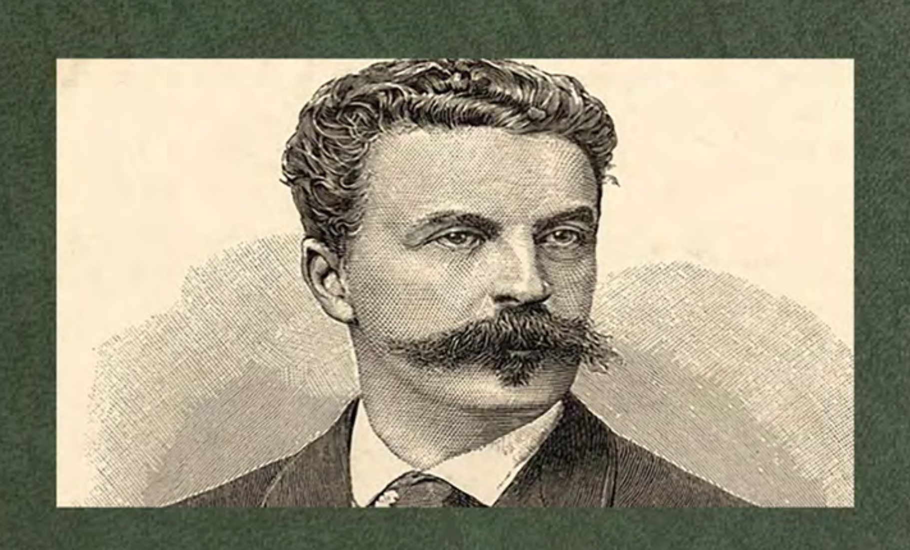


دار اليقظة العربيّة للتأليف والترجمة والنشر بسوريّة

جي ده موپاسّان



سلسلة عيون الأدب العالمي
١٢

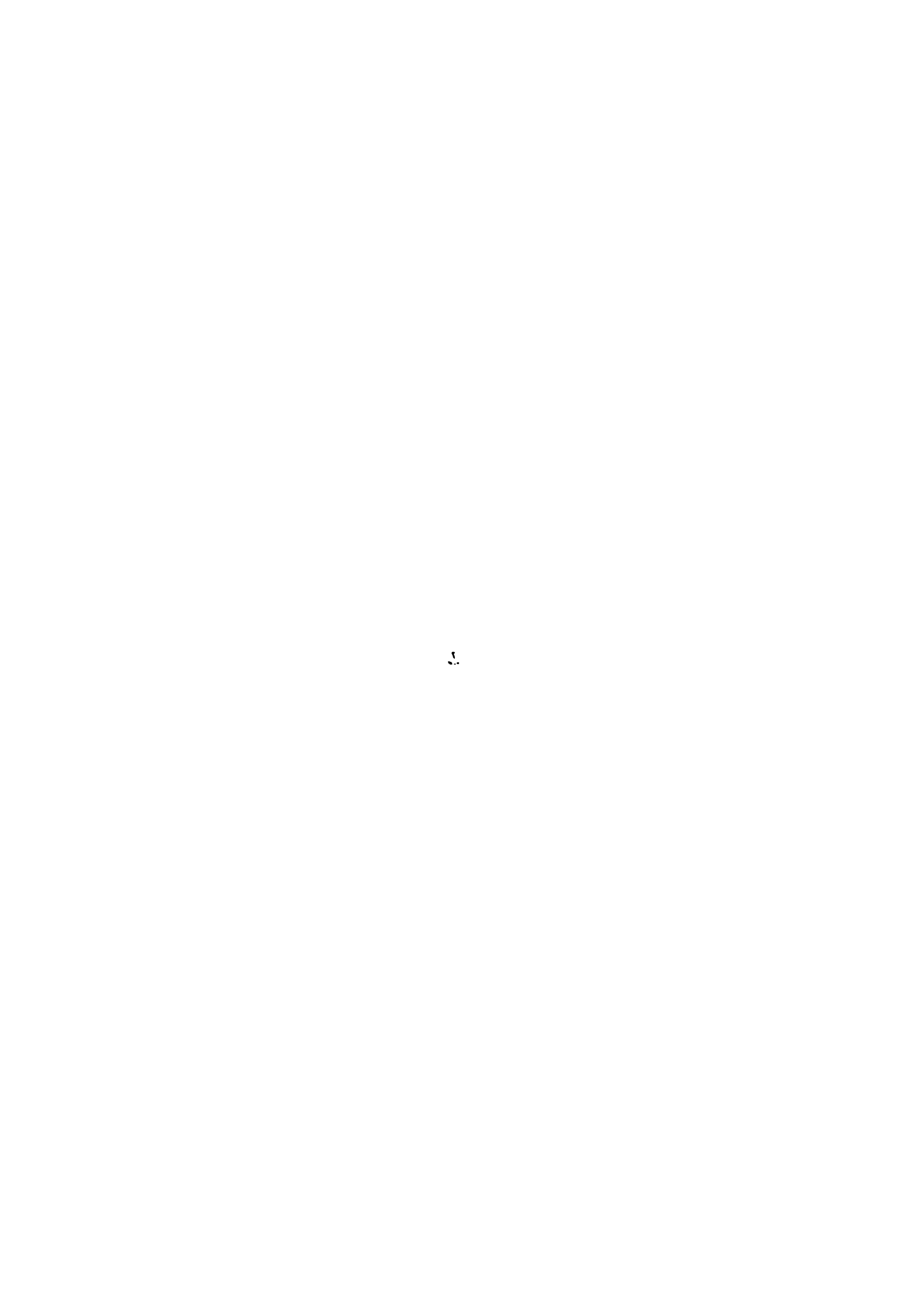
تعريب
ابراهيم الحلو



چي ده موپاسان



انطلقت جان تعدو فوق الثلــج ... حافيــة القدمــين



المقدمة

أجملنا في مقدمة كتاب « قوي كالموت (١) » احداث حياة الكاتب الكبير موباسان وألمعنا الى صفات أدبه وخصائص فنه الرفيع ، بيد اننا وجدنا ان تلك العجالة لم تف كاتبنا حقه ولم تشبع في قارئنا نهمه الى معرفة المزيد عن هذا المشعل الوضاء والشهاب الثاقب الذي التمع في سماء الادب الغربي ردحاً من الزمن فكان رسولا للفن أميناً وسراطاً للادباء مستقيما .

* * *

وثب موباسان ، وهو الموظف المغمور في وزارة البحرية ، بغتة الى القمة السامقة من التأليف الأدبي . وقدم ، خلال عشر من السنين ، انتاجاً قيما في كيفيته كبيراً في كميته . فأدرك النجاح وانقادت اليه الثروة ..

وكما كان مباغتاً في التماع نجمه كذلك غاص فجأة في دنيا اللاوعي وعالم الجنون .. فكان بحق نجماً التمع زاهياً وضاء ومرعان ما خبا واضمحل وغدا اثراً بعد عين !.

١ — قسمته من الحياة

ولد جي دي موباسان Guy de Maupassant في قصر

الموظف « ميرومسنيل » بنواحي (ديب) Dieppe ولكنه نشـ

(١٨٥٠ — ١٨٨٠) وترعرع في (اتريتا(٢)) (Etreta) القريبة من القصر ، حيث اعتكفت أمه بعد افتراقها عن زوجها ، عاش ثمة موباسان حياة طليقة من

---

(١) صدر عن دار اليقظة العربية في سلسلة « عيون الادب العالمي »

(٢) في هذه البلدة وضواحيها ، وفي قصر شبيه بمسقط رأسه تدور حوادث « حياة صاخبة » وقد استوحاها ، ولا جرم ، من مرابع صباه ، ومجالي طفولته .

كل قيد منفلتة من كل غل كأنه المهر العربيد في الملعب .

واتبع في المدرسة الكهنوتية في (ايفيتو Yvetot) دراسة صارمة جدية ثم انتقل ، لاستكمال دراسته ، الى كلية (روان Rouen) فكان له من وليه (لويس بويلهيت Louis Bouilhet) نعم المرشد النصوح كما شرع يمرسه بقرض الشعر وكتابة النثر فكان المعلم الأول .

وجاءت حرب ١٨٧٠ فكان على موباسان ان يخوض غمارها فانخرط في « الحرس السيار » ولم يترك هذه الفرصة تفوته فكان يسجل ملاحظات قيمة كونت له ، فيما بعد ، زاداً ثراً غرف منه فصور فأبدع .

ونزل باريس سنة ١٨٧١ فشغل وظيفة صغيرة في وزارة البحرية بيد انه لم يلبث ان تركها ليعمل في وزارة المعارف سنة ١٨٧٨ . وكان ، خلال وجوده في هذه الوظائف الحكومية ، يتأمل ، بكثير من السخرية ، زملاءه فيدرس طباعهم ويسجل نماذج بشرية متباينة شتى .

وشرع ، تحت اشراف غوستاف فلوبير (١) ، صديق امه منذ الطفولة ، شرع بأولى محاولاته ككاتب اديب . ولقد خطط له « مؤلف مدام بوفاري » سبيلا بسيطا واضح المعالم ليكون له منه هدى في مفاوز الحياة الادبية الوعرة المسالك . فكان لايفتأ يردد على مسمعيه :

« اعمل دائما على السمو بطرفتك باحتكاكك المباشر بالواقع الذي هو ، دون سواه ، منبع كل جميل رائع طريف . احتقر الدعوى ، تجنب الحكم الاعتباطي كفعل انصاف المثقفين ، فلتعلم ، قبل كل شيء ، ان الفن لاينقاد الا لصابر جلد لايعرف الوهن قلبه والمستحيل عزمه »

ومضى موباسان ، خلال سنوات سبع ، يقرض الشعر وينظم الملاحم (الجدار LeMur ، على شاطىء الماء Au Bord De L'Eau) اوقطعا تمثيلية قصيرة (حكايات

---

(١) روائي فرنسي ولد في روان ، دقيق الملاحظة ، واقعي . رائعة ديباجته خلاب أسلوبه مثقف انشاؤه . كتب « مدام بوفاري » و « سالمبو » ١٨٣٢ - ١٨٨١ .

الزمن الغابر Histoires De vieux Temps) ثم عاف كل ذلك وانصرف الى كتابة قصص قصار ابرزت مواهبه في الخلق والابداع .

كان فلوبير يسدد له خطاه فيصحح له كتاباته ويتحفه بملاحظات كاتب مجرب بلا الفن فأصاب منه الشهرة وضرب بمكنوناته بسهم وافر .

اما كاتبنا الناشيء فكان يخلط بين جد الحياة ولهوها فلا ينفك يحلم بهو القوي البنيان المتين العضل ، بنزهات في الهواء الطلق والتطواف والتشرد .. كان به لى الحياة ، في شتى مظاهرها ، عطش لاغب ، وشوق مقيم ..

ودهمته آلام القلب عام ١٨٧٦ فأورثته هزالا شديداً أدى به الى الوغول في كآبة وسوداوية بعيدتي القرار .

* * *

الشهاب ولج موباسان سماء الادب كالشهاب الثاقب . فما ان (١٨٨٠ - ١٨٩١) ظهرت القصة القيمة الجارحة « بول دي سويف Boul DeSuif » حتى ارتفعت اسهم مؤلفها دفعة واحدة فبلغت السماك الأعزل .. وكان بدء الاشراق والتوهج (١٨٨٠) وبدأ ، بعد هذا التاريخ ، سيل دافق من روائع المؤلفات بلغت حوالى ثلاثمائة قصة وست روايات .

١ - موباسان القصاص : كان لنجاح « بول دي سويف » اليد الطولى في حمل موباسان على الاندفاع في كتابة القصص القصير فبلغ بهذا الفن مرتبة تداني الكمال وكان ينشر قصصه في الصحف اليومية قبل جمعها في كتب : « بيت تيلليه « La maison Tellier « ١٨٨١ « الآنسة فيفي «Mdemoiselle Fifi ١٨٨٢ « قصص بيكاسيا Les Contes de la Becasse «١٨٨٣» الاخوات روندولي Les Sœurs Rondoli « ١٨٨٤ .

ولاقت هذه القصص نجاحاً عز له نظير فكان منها للقراء متعة بالغة وحياة ذاخرة بالرغاب المتوثبة والعنف الشديد الا ان تأثير اميل زولا وغوستاف فلوبير كان ظاهراً في بعضها .

وكتب « ليفيت Yvette » و « مس هاريت Miss Hariette » سنة ١٨٨٤ فكان لها الوقع المدوي في الاوساط الادبية الوخيمة . وفي « قصص الليل والنهار Comtes Du Jour et De la Nouit » و « الهورلا Le Horla » أبرز موباسان الى العيان طرافة فنه وتخلص من كل تأثير خارجي فكان يستعين بذكريات طفولته لتصوير اهل الريف كما عرفهم في مسقط رأسه .

٢ - الروائي : أتت موباسان الثروة في ركاب المجد فقام برحلات عديدة واختلط بالمجتمع الراقي فاتسع خياله واكتسبت ملاحظاته قوة ونفاذاً . وشرع منذ ١٨٨٥ بانتاج الطويل من الروايات دون ان ينصرف عن القصص القصير فكتب عام ١٨٨٣ الكتاب الذي نضعه الآن بين يديك « حياة صاخبة (١) Une Vie Emouvante » فكان قنبلة شديدة الدوي ، خاطفة اللمعان ، وقف النقاد منها مشدوهين لا يعرفون من اين ينفذون الى نقاط الضعف فيها وما اقلها !

رواية قوية في كل ما فيها : فكانت صورة مثالية لحب مثالي حمله قلب شاب فعصفت به زعازع الحياة فصوحت واحة آماله وانهارت صروح امانيه وتبعثرت رغائبه في مهب كل ريح ! وكانت مجالاً لقلم بليغ وفكر ثاقب يصور فيها طبائع البشر بلؤمها وخسنها وكرمها وتسامحها وحبها وبغضها وخيانتها وتمسكها باذيال العفاف .. انها حياة ! حياة مصغرة لكل ما في الكون من بدوات ونزوات ! انها حياة مائرة مائجة . وما أصدقها من صورة للواقع الحي لا زيف فيها ولا تمويه !

وفي الفترة عينها أتحف كاتبنا الأدب برواية ثانية لا تقل عن الاولى روعة وجمالا : « الصديق الجميل BelAmi » ثم « مونت أوريول Mont Oriol » سنة ١٨٨٧ وتلا ذلك رواية ذات شهرة عالمية « بيير وجان Pierre et Jean » وجاءت اخيراً رواية انغمس فيها كاتبنا الكبير في عالم التحليل النفسي العميق فصور لنا قلباً ولا كالقلوب قلباً مخلصاً في حبه سامياً في تفكيره رفيعاً مترفعاً .. وأوقعه في حب بل حبين : بين الأم والبنت فكان بين حجري رحى ... فعركته بثفالها الماحق سحقته سحقاً .. انها رواية « قوي كالموت Fort comme La Mort » .. وختم موباسان هذه

(١) نشرت هذا الكتاب بعض دور النشر تحت عنوان « حياة .. « Une Vie » فاقتضى التنويه .

المجموعة الرائقة برواية « قلبنا-Notre Cœure » سنة ١٩٨٠ فكانت مسك الختام لهذه الروايات التي أوضحت تطوره الفكري ولظهرت التور موهبته الكبرى في التصوير والتحليل .

ثم انطوى الكاتب الكبير على نفسه فتحاشى جهد طاقته الاحتكاك بالعالم الخارجي ليخلو الى دراساته ويستكمل نضوج افكاره .

وخلال فترة الانطواء هذه نشر موباسان ثلاثة كتب صور فيها انطباعاته اثناء رحلاته : « في الشمس Au Soleil » ١٨٨٤ و « فوق الماء Sur L'Eau » ١٨٨٨ و « الحياة الشاردة La Vie Errante » .

* * *

الكاتب الملتاث (١٨٩١ - ١٨٩٣) بدأت صحة موباسان بالتقهقر فهي تسير من سيء الى أسوأ فبالاضافة الى مرضه العصبي دهمه اختلال في النظر واضطراب في الدورة الدموية الامر الذي ضاعف حالته المرضية وزادها خطورة ، وبلغت اللوثة من كاتبنا غايتها حوالي سنة ١٨٩١ فقد اصيب باضطراب قواه العقلية ثم تفاقم امره حتى غرق في جنون مطبق[١] استمر ثمانية عشر شهراً قضى في نهايتها في مصحة الدكتور بلانش .

* * *

٣ — طرائف موباسان

١ — التشاؤم

لقد عبر موباسان في ما كتب عن ذلك التشاؤم الملحاح الذي كان يلزمه فيبدو له في كل مظهر من مظاهر الوجود .

---

[١] تزعم بعض المراجع الادبية ان جنون موباسان كان بتأثير مرض الزهري الذي اصيب به في فجر شبابه بينما تنفي مراجع اخرى هذا الزعم وترجع سبب لوثته الى مرض وراثي بدليل ان اخاه « هيرفي » قد اصيب بالداء اياه .

لا رجاء انكر مو باسان كل ما يمكن ان يوحي للانسان بالامل والرجاء وقد فات ، في هذا المضمار ، استاذه فلوبير الذي كان يؤمن بالفن ، على الأقل، معزياً وملاذاً . ومو باسان اشبه في وجهة نظره هذه ، بشوبنهاور Schopenhauer (١) الذي قال عنه : انه ا كبر غاز للفكر عرفته الكرة الارضية ! »

ومو باسان ينفي عن الانسان كل عبقرية لأن الانسان ليس سوى حيوان لا يكاد يفوق غيره من السوائم الا قليلا « فنحن لا نعرف شيئاً ، ولا نحدس بشيء ولا يتسع خيالنا لشيء ! » ومو باسان ينفي العناية الالهية لان « الله يجهل ما يعمل ! » وهو لا يؤمن بالفلسفة تحل المشاكل وتخرج من الأزمات لأنها « تفسر الاشياء التي يستعصي علينا حلها تفسيراً غريباً في سخفه تافهاً في قيمته » ولا يؤمن كاتبنا بالعلم ! « فالعلم يتحطم دائماً على صخرة المجهول ويتناثر تحت كل كوكب ! » ومن لا يعتقد « بعناية الهية » لا يرى في الدين سوى « مغالطة وأ كذوبة كبرى » اما الحيـــاة الاجتماعية فما هي الا « ركام مشاهد مريعة سداها حماقات خالدة ولحمتها دناءة متناهية في بشاعتها وانانية لئيمة في اثرتها » وينتج عن كل ذلك ان « الصلات التي تشد بعض البشر الى بعضهم الآخر » ليست سوى « نفاق محبب وتمويه مغر » .

* * *

التعبير عن اليأس لقد أضفت هذه الفلسفة الواضحة الخطوط على مؤلفات مو باسان صفة لا تخلو من نصيب من التناقض الظاهري الا اننا نلمس فيها صلة وثيقة بحالته الصحية والعقلية فلا نراها اصيلة في نفسه الجميلة المحبة الجمال .

• • •

الكاتب الساخر لقد عبر مو باسان عن تشاؤمه في « بيت تيلليه » و « الآنسة فيفي » بلهجة ساخرة مما يذكرك باستاذه فلوبير . ونحن نجـــد موباسان يجهد في سبر اغوار دناءة النفوس وحطتها بروح انتقامية ساخرة يضم منها الخطوط فيخرجها كاريكاتورية بارزة فكأنه موتور يتلذذ بالتشهير .

• • •

« ١ » فيلسوف الماني ولد في دنتزيغ صاحب نظريات شهيرة عن الارادة والتشاؤم « ١٧٨٨ – ١٨٦٠ »

الكاتب العطوف

... فاذا ما ساءت صحته مال الى الابتعاد عن السخرية ليحنو على الشقاء الانساني عطوفاً فيأسو الجراح ويقيل العثرات فهو يقدم لنا ، في مثل هذه الفترات القانطة ، صور بورجوازيين سذج سريعي الايمان الا انه لا يتسلى على حسابهم « السيد باران » وكذلك قل عن شديد اشفاقه على العوانس وحياتهن المريرة فهو لا ينفك يبرز لنا صوراً واضحة المعالم عنهن « مس هاريت » كما انه لم يهمل المرضى والشيوخ والمشردين .

* * *

الكاتب السوداوي

ولقد سبب له استفحال علته وإكثاره من تناول الادوية والعقاقير حالات سوداوية مستمرة تهيج فيه آلاماً نفسية وجسدية ممزقة . وكثيرة هي قصصه التي صورت حالات من خوف هائل فكان يحلل الاوهام الخرقاء التي تستبد أحياناً بالنفوس المضطربة فترتعش كما لو كان ثمة ما يهددها « الخوف » فكان يخرج لنا صور أشخاص عصبيي المزاج يرهبون الضجيج ويفرقون من الوحدة ويخشون الليل « الرؤى » او شخصيات مدخولة مقتنعة بأن مخلوقاً غير مرئي يسكن منازلها ويشتد في ايذائه لها « الهورلا » .

ان في كل قصصه ، ما خلا أقلها ، ما يعبر بصورة فاجعة عن الهلع القلق الذي كان يخالط نفس موباسان امام الآتي المجهول .

* * *

٣ – فنه

ان موباسان مدين بخلوده لمواهبه الفنية الرفيعة . وعلو كعبه في مضمار الفن راجع لمراس طويل وجلد لا يهن وصبر عظيم في معالجة الكتابة والتأليف :

• • •

الافكار الجمالية

بالرغم من عداوة موباسان لكل طريقة موضوعية فقد عرف كيف يحدد نظرته الى الجمال في مقدمة « بيير وجان » .

ان التعلق بالجمال نزعة طبيعية أصيلة في مظاهرها وبدوانها عند كائننا ، ونتيجة

لذوق شديد الثقة بالغ الارهاف الامر الذي كان، قبل موباسان، شديد الشيوع في المدرسة الواقعية.

«فالواقع (١) Réalisme» يقدم لنا مظاهر شتى بينها الكثير من الغث فيأتي الفن ليتدخل فيقدم لنا خلاصة الواقع ولا يقدم لنا سوى الحقيقة المصطفاة القوية التعبير. ومن هنا يترتب على الروائي والقاص استبعاد كل ما لا جدوى منه فلا يخرج الى النور الا ما اتسم بسمة الجمال ولا يتأتى ذلك الا للكاتب البارع اللبق ذي الذوق المرهف والاحساس الدقيق».

اما الواقعي «Réaliste» لذا كان فناناً أخرج لنا مشاهد ونماذج بشرية على قبح وتفاهة لا جدوى منها ولا غناء فيها، ومن البديهي ان لكل كاتب نظرته الخاصة فيرى الحياة من زاوية لا يشاركه فيها سواه ومن هنا نخلص الى استنتاج القيمة العظمى لشخصية الكاتب وقيمة نظرته الى الجمال والكون والفن.

وثمة مأخذ آخر يأخذه موباسان على المدرسة الواقعية وقد تحاشى هو الوقوع في هذا الشطط: «فالكاتب الواقعي يعطي القراء صوراً شديدة الوضوح، بارزة الخطوط بينة المعالم فيوفر عليهم كل جهد يبذل فلا يمكنهم من ادراك ذلك الرضى العميق والارتياح البعيد الغور الذي أحسه الكاتب لدى تبلور الصور في ذهنه فيفقدهم، من جراء ذلك مشاركة المؤلف رضاه وارتياحه وبحزمهم، بالتالي، من المتعة الحقيقية والرياضة العقلية.»

صحيح ان موباسان قد أحدث هذا الانقلاب في المدرسة الواقعية الا انه ظل محافظاً، وباصرار، على بعض الأسس التي قامت على دعائمها «الواقعية الكلاسيكية Réalisme Classique».

● • • •

---

(١) مدرسة فلسفية ظهرت في القرون الوسطى وتلخص في النظر الى الحياة نظرة واقعية وتصويرها بكل ما فيها من دمامة وعدم انسجام، او بهاء او رواء وجمال. اشهر اتباعها: سكوت، فلوبير، زولا، موباسان.

موهبته كقاص

أن في قصص مو باسان القصيرة تبلور لنظرته الجمالية الى الحياة أوضح مما في رواياته الطويلة بفضل انتقاء للاسلوب دقيق واختيار للمواضيع بارع. ففيها تأثير بالغ للتوازن الفكري والتركيز التصويري.

فأول ما يعمد مو باسان الى وصف الاطار الذي تدور فيه حوادث قصصه وصفاً موجزاً مركزاً: باحة المزرعة. ساحة السوق. الحدائق العامة. حافلات القطار.

ثم ينتقل الى لم شعث أبطاله فيصور بخطوط سريعة ملحة ما يبرز من صفاتهم الجسدية. ويتأتى له ذلك ببعض الاشارات المادية او من كلمات عامية فاقعة اللون تعطي للصورة صبغة خاصة تصدم العين بما فيها من رقة وجلافة. ثم يبدأ عرض حوادث بسيطة تافهة عن عمد وربما سخيفة عن تصميم: رحلات صيد طيور أو أسماك. اعمال مختلفة من الحياة الريفية او الباريسية وسرعان ما تبرز، من بين هذه التوافه، مفاجأة غير منتظرة فتمضي بعقدة القصة الى حل لم تكن لتتصوره فيأتي، اغلب الاحايين، فاجعاً دون ان يبدو على الكاتب انه ابتعد عن هدوئه الطبيعي.

ولقد كان لموباسان من أسلوبه الطيع المرن ما سهل له ابراز صوره على أكمل وجه وأصدق وصف. وقلما تعمد كاتبنا زج الفاظ رنانة في كلامه فهو ينهج أبسط نهج فلا تخطىء عين بساطته الطبيعية وصفاء أسلوبه الخالي من كل شائبة وهو وراء ذلك يخفي وثوقاً بنفسه وقلمه تدعو الى العجب العجاب!

. . .

أما بعد... فستوفل ياقارئي العزيز في «حياة صاخبة» وقد عرفت عن مؤلفها الكبير الشيء الكثير. وستلمس فيها الصفات التي حاولنا ابرازها لك في هذه المقدمة ليكون لك منها توطئة وتمهيداً لتذوق هذا الفن الرفيع واستجلاء هذا الادب العالي.

دمشق — تشرين ثان ١٩٥٣ المترجم

الكتاب الاول

الفصل الأول

مشت جان الى النافذة بعد ان فرغت من اعداد حقائبها . لم يكن المطر قد كف عن الهطول بعد ان استمر طوال الليل تقرع قطراته المتلاحقة زجاج النوافذ وتجلد السطح . فكأن السماء المنخفضة قد فتحت ميازيبها فغمرت الارض بسيل احالها وحلا لزجاً ذاب تحته كأنه قطع السكر .

كانت زخات المطر تعبر متقلة بحرارة خانقة . وفاضت الشوارع بالجداول فبدت البيوت كقطع ضخمة من اسفنج تمتص الماء فترشح به الجدر رطوبة تنفذحتى الاقبية ومستودعات المؤونة .

لقد غادرت جان الدير عشية امس فظفرت بالحرية نهائياً ، ان بها لشوقاً الى العب من مسرات الحياة التي طالما داعبت مخيلتها منذ امد بعيد . وهي الآن تخشى تردد أبيها بالسفر في مثل هذا الجو ان لم يتحسن .

وللمرة المائة سرحت ناظريها تستجلي غوامض الافق الممعن في التجهم .

ولاحظت انها نسيت اخذ التقويم في حقيبتها ، فانتزعت من فوق الجدار تلك الكرتونة الصغيرة المقسمة الصفحة اقساماً بعدد اشهر السنة وقد ظهر في وسطها بخط

ذهبي مزخرف الرقم ١٨١٩ . ثم ضربت بقلمها الاعمدة الاربعة حتى بلغت تاريخ ٢ ايار يوم مغادرتها الدير .

وعلا صوت من وراء الباب : — جانيت !

فاجابت الفتاة : — ادخل يا ابتاه . ودخل ابوها

كان البارون (سيمون جاك لبارتويس دي فود) نبيلًا من نبلاء القرن الماضي ، به حمق وطيبة . يعتبر نفسه احد مريدي جان جاك روسو المتحمسين . فهو يحمل بين جنبيه للطبيعة والحقول والغابات والحيوان حباً يكاد يكون كلفاً .

كان ارستقراطي المولد ، به ميل الى الفلسفة ، ربي تربية متحررة جعلته يحمل للاستبداد في شتى مظاهره كرهاً صريحاً عنيداً . لقد تعانقت نقطتا الضعف والقوة في نفسه في منطق واحد هو طيبته . انه طيب .. طيب حتى ليضيق هو ذرعاً بطيبته اللامتناهية : معطاء ، متلاف ، عنيد ، منصرف بجماع قواه الى طيبته التي تنته به ، وهي فضيلة ، الى ان تصبح نقيصة .

لقد حلم ، وهو الرجل النظري ، بمنهج لتربية ابنته كيما يجعل منها فتاة سعيدة مستقيمة دمثة طيبة .

عاشت جان حتى سنتها الثانية عشرة في كنف البيت الابوي ثم بعث بها ابوها ، رغم دموع امها الى معهد « القلب الأقدس» وتركها تسجن بقوة بين جدران الدير القاتمة فتشب جاهلة بالحياة مجهولة من الحياة . ود ان يتسلمها ناصعة الصفحة نقية الضمير في ربيعها السابع عشر كيما يتاح له غمسها بنفسه في مستنقع الحياة فيرميها الى ما في الدنيا من حب وجمال وخير . انه يبتغي ان يهيء لها الفرص ويمهد السبل لنفسها الطرية فتتفتح بين الخمائل ، فوق الارض الخيرة الطيبة وتحت السماء الفسيحة الزرقاء ، إن جل ما يبتغيه هو اشباع عواطف فتاته من ذلك الحب والحنو الذي لا صنعة فيه ولا تكلف ، من تلك القوانين الازلية التي تهيمن على الكون وتسيره بدقتها

المبدعة . يريد منها حباً للطبيعة كحب الحيوان لها ...

غادرت جان الدير بارعة الحسن ، يضج في عروقها دم الشباب الحار المتعطش الى متع الحياة ومناهل العيش الصرفة ، لقد ولدت في نفسها تلك الرغبة في ركوب متن المغامرات المشوقة التي طالما الهبت خيالها في فراغ ايامها وطول لياليها ووحدتها مع آمالها وخيالاتها .

كانت كأنها لوحة (الفيرونيز) بشعرها الاشقر المتوهج كــأنه رسم فوق رأسها بالاصبغة والالوان . اما بشرتها فبها رقة الارستقراطيات المنعمات توردها حمرة خفيفة ويظللها زغب لطيف فيحيلها ضرباً من المخمل الشاحب اذا ما داعبتـه اشعة الشمس .. اما زرقة عينيها فعميقة داكنة كاعين تلك التماثيل الخزفية الهولندية.

واستقر فوق منخرها الايسر خال صغير كما زين ذقنها ثان في الجهة اليمنى تعلوهما شعيرات صغيرة شقراء بلون بشرتها حتى ليصعب على العين تمييزها منها .

وجان مديدة القامة هيفاء القد ، ناهدة الصدر ، متاوجة الردف . واضحة نبرة الصوت ، صريحة الضحكة تشيع فيما حولها جواً مرحاً طروبا ... وقد اعتادت حركة لازمتها وهي رفع راحتها الى شعرها عند الصدغين فكأنها تسويه .

وخفت الى ابيها فالقت بنفسها فوق صدره وعانقته قائلة : ـ حسناً ألسنا ذاهبين ؟

فابتسم لها هازاً رأسه ذا اللمة الطويلة الناصعة واشار بيده نحو النافذة قائلا:

ـ كيف تريدين السفر في مثل هذا الطقس ؟

فانثنت تستعطفه بدلال ورقة :

ـ لنذهب يا ابتاه ! ارجوك! ستنقشع الغيوم بعد الظهيرة .

ـ ولكن امك لن توافق مطلقاً .

ـ بلى . اعدك بذلك بل اتعهد .

ـ اذا تمكنت من اقناع والدتك فلا مانع لدي

وانطلقت بخفة الفراشة الى غرفة البارونة فهي تنتظر بفارغ صبر متفاقم يوم السفر هذا وهي ، منذ التحاقها بمدرسة « القلب الاقدس » لم تغادر « روان » ابداً. فقد شدد أبوها عليها فلم يسمح لها باي ترويح عن النفس او تزجية لاوقات الفراغ قبل بلوغها سناً حددها لها . غير انهم استصحبوها الى باريس مرتين . وما باريس سوى مدينة هي الاخرى . . . وجان لاتحلم بغير الريف . . الريف الطلق ذي الظلال الخضر الوارفات . . .

والعائلة الآن تهم بالذهاب الى املاكهم في « بوبل » لقضاء الصيف ،ولهم ثمة قصر عائلي مرفوع الدعائم فوق رابية صخرية مشرفة على شاطيء « إبور » وجان تهدهد احلاماً عراضاً بحياة طليقة على الشاطيء المرمل وبين احضان الامواج الصواخب .

وكان من المتفق عليه ان يهدى القصر الى جان فيكون لها منه سكناً إذا ماتزوجت . كان المطر المنهمر منذ مساء امس دون فترة شغلها الشاغل والمعكر لصفو اوقاتها . ماانقضت دقائق ثلاث حتى كانت تلج غرفة امها وقدملأت البيت صراخاً . . ولم يمض طويل وقت عندما خرجت هاتفة مستطارة اللب حبوراً :

ـ ابتاه ! ابتاه ! لقد وافقت امي ! لقد وافقت ! مر باعداد العربة !

ولم يكن دفق السماء قد انقطع انهماره بل بدا للناظر وكأنه يتضاعف . وبالرغم من ذلك فقد درجت المركبة امام الباب .

وكانت جان اول من صعد الى المركبة بينما كانت البارونة تهبط السلم يسندها زوجها من ناحية ووصيفة طويلة القامة ، متينة البنيان ، مفتولة العضل كالغلمان ، من ناحية ثانية .

ان هذه الوصيفة فتاة نورمندية من مقاطعة « كو » وقد بدت في العشرين بالرغم من انها لم تتجاوز الثامنة عشرة .

و (روزالي) هذه اخت لجان بالرضاع ولذا فهم يعاملونها في البيت معاملتهم لابنتهم تقريباً ووظيفتها الاساسية قيادة سيدتها التي غدت منذ بضع سنوات على ضخامة هائلة سببها لها مرض القلب الذي طالما شكت منه .

وبلغت البارونة العتبة لاهثة الانفاس ونظرت الى الساحة المغمورة بالمياه وتمتمت :

– حقاً انه شيء غير معقول !

فاجابها زوجها وهو دائم الابتسام : – انك انت التي وافقت على المشروع ياسيدة « اديلايد » وكان يحلوله ان يسبق اسمها الضخم بكلمة سيدة بلهجة احترام يشوبها شيء من هزء .

وسارت تموج باردافها الهائلة حتى بلغت المركبة فاعتلت درجتها فاحدثت صريراً لم تعف منه قطعة في المركبة المسكينة . وصعد البارون فجلس الى قربها بينما اقتعدت الفتاتان جان وروزالي المقعد المقابل .

وحملت الطاهية « لوديفين » كومة الاغطية والمعاطف فنشرتها فوق ركبهم ، كما جاءت باكثر من سلتين دفعت بها بين اقدامهم ثم تسلقت المقعد الامامي فاستوت بالقرب من « الاب سيمون » وتجلببت برداء فضفاض كساها حتى اخمصيها .ودنا البواب وزوجته فاغلقا الباب وحييا سادتهما بعد ان اصغيا الى التعليمات الاخيرة حول ارسال الحقائب في عربة نقل . وانطلقت المركبة ...

كان الاب سيمون الحوذي غارقاً في معطفه الواقي محني الظهر تحت شآبيب المطر بينما اندفعت المركبة ذات الجوادين تنهب الارض في محازاة الارصفة ثم عبرت بالقرب من المرفأ حيث السفن الكبيرة مرفوعة السواري مشرعة الحبال في السماء القاتمة فكأنها اغصان شجر عار يمتـــد في الفضاء ... ثم انعطفت في شارع (ريبودية) الطويـل ، وسرعان ماجتازت المدينة وانطلقت عبر السهول الفساح حيث كانت انظارهم تصافح ، بين الفينة والفينة ، اشجار الصفصاف الغارقة السوق في الماء وقد انقصفت منها اغصان طفت فوق سطح الماء الراكد كأنها الجثث الكثيرة

المدد ترتسم في تمددها مهيبة خلال ضباب الماء . .

كانت سنابك الخيل تخب خبباً . وعجلات المركبة الاربع تنثر الوحل اللزج كما تنثر الشمس ذؤابات اشعتها الدقيقة المتفرقة في كل اتجاه .

كان الصمت مخيماً على الجميع فكأن أذهانهم قد أغرقت هي الاخرى كما الارض في ذلك اليوم المطير ...

واستلقت الام الى الخلف واطبقت اجفانها بينما استغرق البارون في تأمل الطبيعة الحزينة البليلة بعين كئيبة حيرى . اما روزالي فكانت، وصرتها فوق ركبتيها، غارقة هي الاخرى في احلام تافهة شأن بنات الشعب . وسيطر على جان شعور كشعور نبتة حبيبة في ظلال الجدر الجهمة وقد اعيدت بغتة الى النور والهواء . الا ان كثافة سرورها تحت هذا الفيض الدافق من الاحلام العذاب ، كانت تحمي قلبها فلا تتطرق اليه الكآبة كما تظلل الاوراق الوارفة مانحتها بظلها الارزق العريض . كانت صامتة ، تمور في صدرها رغبة ملحة بالغناء ، باخراج يديها من النافذة فتمتلئا ماء فتعب منهما . . ولشدما استخفها السرور بسرعة الجياد ، ومنظر الطبيعة المقبض، واحساسها بانها في منجاة من هذا السيل العارم .

ورنت الى الجوادين وقد لفت نظرها بخار حار يتصاعد من عنقيهما تحت المطر المنهمر انهاراً وزحف النوم الى عيني البارونة شيئاً فشيئاً فاسترخى وجهها المحاط بست غدائر متساوية من شعرها ، المرتكز على تموجات عنقها الضائع في بحر صدرها الزاخر المتهدل . كانت انفاسها القاحة تتردد خلال شفتيها نصف المفتوحتين وقد تهدل خداها وانتفخا . وانحنى زوجها فوقها ووضع بين راحتيها المتعالبتين فوق بطنها الهائل محفظة جلدية . وقد فعل ذلك بتؤدة واحتراس . وكانت اللمسة كافية لايقاظها ففتحت جفنيها المكسري الاهداب ونظرت الى المحفظة نظرة شاردة كنظرة

من نفض عنه لتوه غبار السبات .

وسقطت المحفظة فانفتحت وتناثرت منها قطع ذهبية واوراق نقدية في جوف المركبة . وانطلق كل مرح ابنتها في عاصفة من الضحك كانت كافية لاعادة وعي الام اليها تماماً .

وانحنى البارون فوق النقود المتناثرة فالتقطها واعادها الى زوجته قائلا :

- هوذا ياصديقتي كل ماتبقى من ثمن حقل « إليتو » فقد بعناه لنتمكن من اصلاح املاكنا في « بوبل » كما تعلمين . ففي هذه الاملاك سنقيم ، من الآن فصاعدا، معظم سنتنا .

وعدت البارونة ستة آلاف واربعماية فرنكاً واودعتها جيبها بهدوء .

انها المزرعة التاسعة التي يعمدون الى بيعها من المزارع الواحدة والثلاثين التي آلت اليهم من آبائهم . ولهم ، فضلا عن ذلك ، دخل يناهز العشرين الفاً من الفرنكات يدره عليهم رهن املاك لو اجيد استغلالها لدرت ثلاثين الفاً على اقل تقدير .

انهم يعيشون ببساطة ، ولولا طيبتهم ، هذه الثغرة الفاغرة ابداً ، لكانو على يسر عظيم وحسن حال . فكما يتبخر الماء تحت وهج الهاجرة هكذا يذوب المال في ايديهم تحت اريحيتهم وكرمهم الذين لاحدود لهما .

وكثيراً ماتسمع احدهم يقول : - لست ادري كيف حدث ذا لك ! لقد انفقت مائة فرنك دون ان ابتاع شيئاً ذا قيمة .

ان هذه السهولة في العطاء هي ، فوق ذلك ، احدى لذات حياتهم الكبرى . وهم مجمعون على ذلك بشكل رائع مؤثر .

وسألت جان : - اتراه جميلا قصري الآن ؟

فاجاب البارون مرحاً : سترين ذلك بنفسك يافتاة .

وخف تهطال المطر شيئاً فشيئاً حتى غدا ضباباً خفيفاً من ماء متطاير . وبدت قبة الغيوم كأنها ترتفع وينصع لونها .. وسرعان ما سطع شعاع عمودي من الشمس فوق المروج من ثقب غير مرئي .. ولم تلبث زرقة السماء ان بدت من خلال الغيوم التي انفرجت كأنها نقاب تمزق وانزاح واطلت سماء صافية الاديم عميقة الزرقة فوق الكون المبتل . وعبرت بالهواء نفحة لطيفة كأنها تنهدة سعيدة ندت عن صدر وطرقت آذانهم اغرودة عصفور خرج من ايكته يجفف ريشه المبتل فوق اغصان الغابات والخمائل المجاورة الطريق .

وهبط المساء . واستسلم كل من بالعربة للسبات ما خلا جان . وتوقفوا مرتين في بعض الفنادق تاركين للجوادين فرصة الاستراحة وتناول شيء من العلف والماء.

كانت الشمس قد توارت وراء الآكام الغائرة في الافـق البعيد واصوات اجراس سحيقة تصل الى آذانهم فتشنفها . وتراءت لهم اضواء القرى المتناثرة على جانبي الطريق كما ازينت القبة الزرقاء بنجوم كعديد النمل . وكان الركب يعبر احياناً بمساكن يمزق ألقها حلك الظلام ... واطل عليهم بغتة ، من وراء الاغصان المتشابكة ، قمر احمر هائل الحجم ... فاتر الالحاظ كأنه قد هب للتو من رقاده...

كان الجو لطيفاً لم يشعروا معه بحاجتهم الى رفع زجاج النوافـذ .

واثقلت الاحلام رأس جان فاستسلمت للتهويم وقـد اشبعت روحها من الرؤى السعيدة وخدرا حساسها بالآمال المذهبة الحواشي

لم تكن مستقرة . فكثيراً ما تعاود فتح عينيها لتغير شيئاً من وضع طالت استكانتها فيه فازعجها .. فكانت تسرح ناظريها خارجاً متأملة الليل المنير والمزارع ذات الشجر العاري وطائفة من بقرات جاثمة في الحقول ترفع رؤوسها الضخمة وقد ازعجها عبور المركبة بها في قلب هذا الليل المقمر ...

ثم تعمد الى إراحة اعضائها محاولة استعادة حلم فر من بين جفنيها الا ان ضجيج حركة العجلات الذي يملأ اذنيها كان يرهق افكارها فتعاود اغلاق عينيها وكأن النصب

قــد انتقل من جسدها الى عقلها .

ولم يطل بهم الأمر حتى توقفوا . وبرز لهم رجال ونساء يحملون المصابيح ويطلون من ابواب بيوتهم ونوافذها . لقد بلغوا غاية رحلتهم .

واستفاقت جان من تهويمها وقفزت الى الارض خفيفة عجلى . واعان الجوزي والوصيفة روزالي البارونة فاحتملوها حتى ترجلت . كانت كل قوة فيها قد استهلكت . وراحت تردد وهي تنقل بتثاقــل ساقيهـا الضخمتين : ـ آه ! ياالهي ! ياأولادي المساكــين !

ولم تشأ ان تطعم شيئاً او تجرع شراباً بل آوت الى فراشها سريعاً واستغرقت لتوها في سبات بعــيد القرار .

وجلس البارون وجان الى المائدة بمفردهما . كانا لا ينفكان يتبادلان الابتسام كلما التقت منهما الاعين عبر المائدة . وبعد فراغهما من الطعام انصرفا الى تفحص القصر وما آلت اليه حاله بعــد اصلاحه .

ان قصر (بوبل) من تلك المساكن النورمندية العاليــة السقوف الفسيحة الحجرات المتعددة الشرفات . وهو يجمع بين صفات القصور وطابع البيوت الريفية العريقة . وهو مشاد بالحجر الابيض غير ان لونه قد استحال غبرة داكنة . وانه في اتساعه ليكفي عشيرة كاملة تقيم فيه ... يخترقه ممشى طويل يقسمه قسمين متساويين وعلى هذا الممشى تفتح ابواب جميع الغرف من الناحيتين . واذا صعــدت اليه فعلى درج مذدوج يلتقي فرعاه في الاعلى مشكلين جسراً مقنطراً .

وتقوم في الطابق الارضي ردهة كبرى مكسوة الارض بالسجاد المزدان برسوم اغصان تلعب فوقها ضروب الطير . وقــد انتثرت فوق كل قطع الاثاث طنافس منقوشة نقشاً دقيقاً يمثل (خرافات لافونتين) في جمال وبراعة .

وقفزت جان لفرط مااعتراها من ابتهاج لدى وقوع عينها على مقعد قديم طالما لهت فوقه وهي بعــد طفلة تحبو ... كانت نقوش هذا المقعد العزيز تمثل قصة

« الثعلب واللقلق » .

وبحذاء الردهة الكبرى تقوم المكتبة وقـــد عمرت بالقديم من الاسفار ثم غرفتان مهجورتان . والى اليسار غرفة المائـــدة بـرياشها الحديث . . ثم المنتفعات المختلفة . . .

كان الممشى الطويل يقسم هذا الطابق ، كما ذكرنا ، قسمين تطل على جانبيه الابواب العشرة للغرف العشر . وفي اقصاه تقوم غرفة جان . ودخلاها .

كان كل مافيها جديداً . فقد امر البارون باعادة طلائها ثم استجلب لها رياشاً كان مختزناً لم يستعمل قط وقــــد كسيت ارضها بالسجاد الفلامندي القديم الثمين .

ويدرك المرء فوراً ان هذه الغرفة قد اعدت ليقيم فيها شخص عزيز .

واطلقت الصبية صرخات حبور عندما شاهدت سريرها : كانت زواياه الاربع مزينة باربع عصافير من خشب السنديان سوداء لماعـة فكأنها تقف لتحرس السرير وكذلك كانت جوانبه مزدانة بنقوش تمثل ازهاراً وفواكه مزدوجة . اما لونـه فكان جهماً فقـــد طال به العهـــد وهو، لفخامة جرمه ، يرتفع مهيباً رائعاً كأنه البناء المشيد !

اما غطاؤه فمن لون الفراش ازرق سماوي يلتمع التماع افق لاذوردي منور. وهو من نسيج حريري قديم ذي زرقة عميقة وقد رصعته نجوم ذهبية كبيرة تبرق في ارتعاش كارتعاش نجوم القبة الزرقاء ! . .

ورفعت جان انظارها، بعـــد ان طال بها تأمل السرير ، الى البسط الكاسية الجدران . كانت كلها منقوشة برسوم مناظر واشخاص في ثياب غريبة الاشكال براقة الالوان . ولفت انظارها ، من بينها ، بساط مثلت فوقه مأساة : فبالقرب من ارنب يرعى الكلأ كان يتمدد شاب وفتاة قد علت وجهيها صفرة الموت . اما الفتاة فقـد أغمد في صدرها سيف وعيناها الفتان ابداً بفتاها . وادركت جان مرمى الاسطورة :

انها قصة (بيرام وتهيزبي) ،وبالرغم من ان سذاجة التصوير قد حملت الابتسام الى شفتيها ، فقد سرها بالغ السرور ان تعيش في مثل هذا الجو المفعم بهذه الاسطورة الغرامية التي لن تنفك تخاطب خيالها مثيرة فيها احساسات حميمة ، مشيعة ، كل مساء ، جواً اسطورياً لطيفاً عابقاً بالرؤى العذاب . اما بقية الرياش فمن اطرزة مختلفة .. ان كل ماتقع عليه الاعين من تلك القطع التي يتركها السلف للخلف فتحيل هذه المساكن القديمة شبه متاحف عائلية ذات صلة وطيدة بالحياة والاشخاص والاحداث .

وتجاوبت في احناء القصر دقات الساعة الاحدى عشر ، فهم البارون بابنته فقبلها وانسحب الى حجرته فأوت جان الى فراشها وفي صدرها غصه وفي جوانب نفسها تضطرب عواطف عطشى ! وجالت بانظارها في غرفتها للمرة الاخيرة قبل ان تطفيء النور . كانت النافذة اليسرى تفسح لنور القمر فيتسرب الى الغرفة فينير شعاعه الفضي الحالم الارض بفيض من ألقه الوضاء ...

ولمحت جان ، عبر النافذة الاخرى ، شجرة باسقة يغمرها النور اللطيف . وانقلبت جان على جنبها واغمضت جفنيها محاولة ان تنام . الا انها مالبثت ان فتحتهما من جديد وقد خيل اليها انها ماتزال عرضة لاهتزاز المركبة التي ما انفك صدى ضجيج عجلاتها يدوي في اذنيها . ومكثت فترة لاتبدي حراكاً آملة ان يعجل هذا السكون بالنوم الى عينيها .. الا ان قلقها وفراغ صبرها سرعان ما اجتاحا كل كيانها فاستحال النعاس فيهما ارقاً مضنياً .

كانت تحس في ساقيها تشنجاً كأنه الحمى الناهشة . ونهضت . وعبرت البقعة المنارة من ارض الغرفة حافية القدمين مكشوفة الذراعين ، وقد بدت ، بقميصها الطويل ، اشبه بالاشباح . واتجهت نحو النافذة ففتحتها وسرحت في الليل المقمر انظاراً انهكها الارق !

كان الليل منوراً حتى لتسهل الرؤية فيه كما في نهار ابلج ... وراحت جان تستعيد ذكريات هذه المنطقة التي شغفتها حباً في طفولتها الاولى ...

فهذا هو المرج المترامي الاطراف وقــد كسته يد الربيع رداء اخضر ...
وهاتان الشجرتان العملاقتان الناشرتان اغصانهما نحو القصر .. واذا ما امتد البصر
حتى طرف المرج وقع على الغابة المسورة بجدر تحميها غائلات العواصف ..وقـــد
انتصبت فيها اشجار الدردار العريقة في قدمها ، المتآكلة سوقها، كأنها خشب سقف
نخر عملت به ريح البحر اشكالا .

كانت تلك المساحة مرسومة الحدود من يمين ومن يسار بصفين طويلين من
الحور الذي اعتاد النورمنديون غرسه لتحديـــد املاكهم . اما المزارع المجاورة
فملك لآل « كويوار » وآل « مارتان » .. اما خارج حدود هذه المزارع ،فيمتد
سهل مترامي الجنبات ، اجدب ، وهو منبت للطحلب والاعشاب البرية ومجال دائم
للريح تعربد فيه وتصفر ليل نهار ... ويلي هذا السهل ساحل صخري مرتفع ابيض
تغمر الامواج قدميه . وسرحت جان ابصارها حتى تلك الامواج البعيدة التي بدت
وكأنها تهوم تحت خفقات النجوم .

أما الارض فقد فاحت منها روائحها العطرات بعد ان بللها المطر ولفحتهـــا
الشمس ... وكانت ياسمينة تتسلق الجدار فتصل النافذة نافحة في هدوء الليل ريحها
المعطار فيخالط اريجاً آخر يفوح من ازهار اخرى حديثة الميلاد !..

واستسلمت الفتاة الى هذه النشوة السحرية في جو من هذه الروائح العطرة .
وكأن سكون الريف وهدوء الطبيعة قد خدرا اعصاب جان وفعلا بهـــا فعل
حمام فاتر ...

كانت كل الدويبات التي تسكن في وضح النهار وتنشط خلال الليل في حلكة
الظلام قد شرعت تملأ هذا الظلام المنور حركة وحياة صامتتين ...

كان كل ما في الطبيعة ساكناً ساجياً ماخلا بعض الصراصير والحشرات التي
راحت تناجي القمر بصفير ناعم رتيب كئيب ...

وخيل الى جان ان صدرها ينفتح وقلبها يمتلىء من هذه الهينمات السحرية كما

يتلىء بها هذا الليل الساجي .. فتثور في هذا القلب البكر آلاف الميول العـابرة الشبيهة بهذه الدويبات الليلة التي خرجت من مكامنها تسعى ..

إن شيئاً مجهولاً ، سحرياً جعلها تتحد مع هذه القصيدة الحية : هذا الليل. وشعرت ، والظلام يغمرها ، برعشات لابشرية تعبر كيانها فتحرك اعصابها وتحبي فيها آمالاً عسيرة المنال ... ما أشبه هذه الانتفاضات بنفحة من نفحات السعادة الغالية المرتجاة !!... انها تحلم ... بالحب ! الحب ! انه ، منذ سنتين يثير فيها قلقاً كلما جال خياله في خلدها .. اما الان فهي خليقة بالحب فلم يعد لها من هدف سوى الظفر بالحبيب المرتجى !

كيف سيكون هذا الحبيب ؟ انها لم تكون لنفسها بعـد فكرة واضحة المعالم عنه . عن هذا الشخص السحري الذي بدأ يغزو منها العقل والخيال والقلب! انها لا تعرفه ! إلا انها واثقة من انه سيأتي . هو بعينه ! وهذا كل مافي الأمر . وكل ما تعرفه الآن انها ستعبده ! ستعبده بكل مافيها من قوى ! وهو ؟ سيحبها هو الاخر جهد طاقته ! سيتنزهان في الامسية الشبيهة بهـذا المساء ... تحت الشهب المتهاوية من بين صفوف النجوم الراعشة ... سينطلقان وايديها متعانقة ، وقـد التصق احدهما بالاخر فيسمع نبضات قلبه وتنتقل اليه حرارة جسده .. سيمتزج حبها بصفاء ليالي الصيف المقمرة الصافية الاديم . سيتحدان بشكل يتيح لهما العبور في مفاوز حبها حتى يبلغا اقصى مافيه من اسرار ومكنونات ..

واستمرت في مثل هذه الرؤى الشيقة وقد اهتاج في صدرها وجـد مبهم لا يوصف ولا يحد ...

وشعرت فجأة حبيبها الموعود بقربها ، ملتصقاً بها .. وسرعان ماهزتها ارتعاشة مبهمة فانتفضت من قمة رأسها حتى اخمصيها .. وشدت بذراعيهـا فوق صدرها بحركة لاشعورية كأنها تعتقل حلماً يحاول الافلات من بين جفنيها .. وعبر بشفتيها الممدودتين نحو المجهول احساس اوشكت معه قواها ان تخور .. وطبع

نسيم الربيع فوق ثغرها البكر قبلة شوق ربا ! . . .

وطرق اذنيها بغتة خفق خطى وراء القصر فوق الطريق .

وفكرت ، وقد وثبت بكل قوى روحها الهائمة ، محمولة على اجنحة وجدها المتفائل ، المؤمن بالاتفاق والمقدور ، وبتوارد الخواطر الموحى به من عل ، وبتصرفات الاقدار العجيبة ، فكرت : لو كان هذا حبيبي !...

واصاخت السمع ، لاهثة النفس ، الى وقع خطوات العابر الرتيبة .. لابد من انه سيتوقف بالقرب من السور ليسأل سكان القصر مأوى وضيافة ..

وما جاز بها حتى غمرتها حسرة حقيقية كأنها فقدت شيئاً كان ملكها تحرص عليه ! وادركت ان هذا الحلم العابر قد ايقظ ميولها وحرك كوامن غرائزها .. ورفت فوق ثغرها ابتسامة وانية ! وهدأت من جأشها بعد ان فرحلها المجنح الآمال وارخت لخيالها العنان في دنيا اقرب الى الواقع وأدنى الى المستطاع ..

ستعيش معه في هذا القصر الهادىء المشرف على البحر الازرق الفسيح .. وسترزق طفلين ولا ريب : الصبي له والبنية لها ! وهاهي تراهما يمرحان فوق العشب وبين الخمائل واعين الام والاب المزهوين ترعاهما في حراكهما وسكونهما .. وهاهي تتبادل وزوجها نظرات الوجد والوله من فوق رأسي الصغيرين ! ..

واستمرت ترعى هذا الحلم طويلا .. طويلا .. حتى أتم القمر سياحته عبر قبة السماء واوشك ان يستحم في الازرق الزاخر .. وبرد الهواء .. وشحب الافق الشرقي .. وارتفع صياح ديك في الحقل الايمن فاجابته ديكة من الحقل الايسر .. وبدأت النجوم تغور الواحدة تلو الاخرى في كبد السماء الفسيح الآخذ بالنصوع وعلا تغريد عصفور استفاق لتوه في مكان ما .. وما لبث التغريد ان عم مسامع الفجر الوليد .. فكان اول امره ضعيفاً حيياً ثم راح يقوى ويجرؤ حتى غدا قوياً واضحاً منتشراً من غصن الى غصن ومن ايكة الى ايكة ...

وادركت جان فجأة ان النور يغمرها فرفعت رأسها من فوق راحتها

واغمضت عينيها وقد ازعجها نور الصباح الساطع الوضاح !

كانت جبال من غيوم قرمزية قد حجبت صفوف الحور الباسقات وعكست على السهل ألقاً احمر كأنه الدم المهراق ..

وبتؤدة بزغت الشمس الرائعة الطلعة فمزقت اديم الغيوم وغمرت بنارهـا الاشجار والسهول والمحيط وكل الافق ..

واحست جان انها تكاد تجن سعادة .. انها شمسها انه فجرها ! بدء حياتها ! ومدت ذراعيهـا نحو الفراغ المتألق كأنها تسعي إلى عناق الغزالة البازغة .. وشاءت ان تقول شيئاً .. ان تهتف بشيء .. بشيء علوي كانبلاج هذا الفجر الفتان .. الا انها لبثت مشلولة القوى ، معطلة التفكير ، مأخوذة بحماستها العاجزة !..

وعادت برأسها الواهي الى راحتيها وفاضت بدموع حرى مآقيها ... ولم تلبث ان انخرطت في بكاء لذيذ ...

ورفعت رأسها بعد فترة فلحظت ان اطار الفجر الخلاب قد اضمحل .. وشعرت في روحها باشباع .. وبشيء من الانهاك .. فكأن هواء بارداً لفحها .. ودون ان توصد نافذتها مشت الى سريرها والقت بجسدها المضعضع فوقه .. واستمرت تحلم دقائق قليلة ثم اخذها سبات عميق .. ولم تسمع نداء ابيها عندما جاء يوقظها وقد ازفت الساعة الثـامنة ولم تستفق الا عندما ولج غرفتها وهزها مهيباً بها : ان انهضي ..

كان يبتغي اطلاعها على التجميلات الحدثة في القصر .. قصرها .

وتأبط ذراعها وسار بها فطوفا بالبناء الفخم فلم يتركا زاوية الا تفحصاها . ثم راحا يتنزهان في المماشي بين صفوف الحوار . كان العشب قد نبت تحت اقدام اشجار الحديقة فكسا الارض بساطاً مخضوضر الجنبات موشى الحواشي .. وقفز ارنب بغتة من بين الادغال فاجفلت الصبية .. وانطلق يعدو متوثباً حتى اختفى باتجاه الساحل الصخري ..

وبعد الافطار اعلنت السيدة اديلاييد انها ماتزال منهوكة القوى من رحلة

الامس وستعتكف في غرفتها تنشد الراحة . وعرض البارون على ابنته فكرة القيام بنزهة حتى « إبور » وسرعان ما اخرجا الفكرة الى حيز التنفيذ فانطلقا فعبرا دسكرة تدعي « إتوفان » وكانا يلتقيان بالفلاحين فيحيوهما تحية من يعرف الآخر . ثم اجتازا طريقاً تنحدر نحو البحر في واد كثير المنعطفات .ولم يلبثا ان اشرفا على قرية (إبور)

ومرا في الشارع المنحني الجاري في وسطه جدول تكدست على ضفتيه اكوام من روث المواشي تفوح منها روائح حادة بينما راحت بعض الحمائم تطوف بالقرب من الجدول باحثة بين الروث عما يمسك عليها رمقها .

كانت جان تتأمل كل ذلك كأنه اطار في مسرح ...

واطل عليهما البحر فجأة ، من وراء احد الجدر ، في زرقته العميقة وصفحته المنبسطة حتى مدى البصر فاستوقفهما هذا المنظر الأخاذ وراحا يتأملان تلك الاشرعة البيضاء الشبيهة بمواقف الطير وهي تعبر في عرض اليم .

ولمحا ، في احدى فرجات الشاطىء الصخري ،مرفأ صغيراً وبضعة بيوت فوق رصيفه وقد احتشدت فيه سفن المنطقة فوق منحدر من دقاق الحصى البيضاء وقد انهمك عديد من الصيادين في اعدادها بانتظار المد في المساء المقبل ..

ودنا منهما ملاح يعرض سمكاً فابتاعت منه جان واحدة حملتها بنفسها الى القصر الا انها لم تلبث ان شعرت بتعب ، لكبر السمكة ، فعمدت الى عصى ابيها فانفذتها في اذني السمكة وامسكت بطرفها وامسك ابوها بالطرف الآخر وانطلقا يحملهما كأنهما طفلان مرحان ، فصعدا فوق منحنى الشاطىء يثرثران بانطلاق الاحداث وقد اسلما للنسيم الرخي وجهيهما بين راحت السمكة ، وقد اتعبت يديهما ، تكنس العشب والرمل والحصباء بذيلها الخشن العريض ...

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

الفَصلُ الثّاني

انها لحياة طلقة مرحة هي حياة جان. فهي تقرأ وتحلم وترود ضواحي القصر بمفردها ...

فاذا خرجت فدون وجهة معينة فتسير بخطى وئيدة على طول الطريق ، وخيالها شارد في مهامه الاحلام ... او تهبط قافزة حفافي الاودية الملتوية ، المتوجة الجانبين بتاج ذهبي من ازهار نبات « السمار » النافح عطراً شذياً تثيره الحرارة فيفوح كأنه نشر خمر معطرة ... وكان صخب الامواج المتكسرة فوق صخور الشاطئ يبلغ ، من بعد ، اذنيها فيهدهد خيالها ويطير به في السموات العلى ...

وكثيراً ماكانت تحس استرخاء يسير في اعصابها كأنه الخدر اللذيذ فتلقي بنفسها فوق اول مرتفع معشو شب تصادفه ... واذا ما وقعت عيناها ، من خلال انفراج الربى ؛ على مثلث ازرق من ماء اليم ، ادركها سرور طاغ مفاجيء ، غير متزن ، كأنه الاحساس المبهم بدنو سعادة غامضة لايدرك لها كنه ...

لشد ما اجتاح كيانها حب الانفراد والوحدة فوق صدر هذه الطبيعة الكاسية الحالية !..

فكانت تقيم الساعات الطوال جالسة فوق قمة رابية يتوجها النبت والزهر ... وتمر الارانب قافزة تحت قدميها دون ان تعيرها اي انتباه ...

وكثيراً ماكانت تنطلق تعدو حافية القدمين فوق رمال الشاطيء الصهباء تاركة لهواء البحر البليل مداعبة جسمها ، والتغلغل حتى اعصابها المتوفزة محركاً فيها احساساتها النشوى ... لم تكن لتحس تعباً فهي في مرحها العارم كسمكة في الماء

او سنونو في الهواء !....

كانت تبذر ذكرياتها هنا وهناك كما يبذر الزارع الحبوب بين الاثلام .. فكان لابـــد لتلك الذكريات من النمو والازدهار فلا تذبل ولا تجف حتى ينزل الموت بساحة صاحبتها .. وكان يخيل اليها انها تلفي ، في كل ناحية ، فلـــذة من قلبها وقطعة من روحها ...

ونضت عنها ثيابها والقت بنفسها الى ذراع الماء يحـدوها شوق الى الاستسلام لهذا الازرق المائج .. انها قوية وشجاعة .. وهاهي تمضي ساعة متوغلة في عرض البحر حتى تغيب عن اليابسة فهي خالية الذهن من فكرة الخطر .. لشد ما يبهجها هذا الاستسلام للماء المنعش الصافي الزرقة المائر الصفحة الذي يحمل جسدها اللدن العود فيهدهده هدهدة ترنح اعطافه الرقراق . وكانت تستلقي على ظهرها ، فوق سرير الموج ، وتصالب ذراعيها فوق صدرها الناهـــد البليل وتسرح بانظارها في زرقة السماء العميقة يقطعها طيران سنونو سريع او خيال ابيض ماض لاحد طيور الماء .. ثم تنقلب على صدرها ضاربـــة الماء بـــذراعيها العبلاوين مطلقة صرخات عارمة بفرح موار ..

وكثيراً ما شعروا بخطورة هذه المغامرة الجريئة فكانوا يلحقون بها زورقاً يعود بها الى الشاطىء حيث تتلقى التوبيخ اللطيف ...

وترجع الى القصر ادراجها .. وقد شحب لونها وشعرت بالجوع .. الا انها رشيقة خفيفة تفتر بالابتسام شفتاها وتضج بالسعادة عيناها ...

اما البارون فكان له من مشاريعه الزراعية شغل شاغل . فهو دائم التفكير بتجربة آلات جديدة وغرس ضروب من النبات لم يسبقه اليها احـد فكان يمضي سحابـــة نهاره يباحث الفلاحين ويستأنس بآراء المزارعين فكانوا دائماً يهزون رؤوسهم غير مؤمنين بمشاريعه ولا واثقين بآلاته ... وكثيراً ما كان يرافق بحارة إيور فيقوم بزيارة الكهوف والينابيع والقمم الدانية او يصطاد معهم السمك كبحار

بسيط . فيسير في الليالي القمراء الى الشاطيء يسحب شباكه الملقاة بالامس . لشدما كان يغتبط بصوت اصطفاق القلوع واستنشاق هواء الليالي اللين الطري .. وكم كان ينتشي من الاستلقاء فوق الزورق لدى بزوغ اشعة الشمس الاولى وعيناه معلقتان بصيده من السمك الملتمع الظهور اللزجة تحت الشعاع المبكر ..

وكان اذا مافرغ من تناول طعامه انطلق يروي بحماسة قصة تلك النزهات ثم تقاطعه الام لتحدثه عن نزهاتها هي الاخرى وعدد المرات التي قطعت فيها مماشي الحديقة الطويلة تحت ظلال الحور الباسقات .. وكانت شديدة الانهماك بالمشي فقد اوصوها بالاكثار من الحركة ماوسعها ذلك . فما ان يسدل الليل استاره وتنعش الكون رطوبته حتى تهبط الى الحديقة تستند الى روزالي وقد تلفحت بشالين وتدثرت بمعطفها وغطت رأسها بقبعة سوداء مطرزة بوشي احمر ، ثم تروح تذرع الممشى بخطوها الوئيد راسمة فوق العشب المعفر خطاً للذهاب وآخر للاياب وكانت قدامرت فوضع مقعد في طرفي الممشى فما تمر خمس دقائق حتى تتوقف وتقول للوصيفة الصبور التي تسندها : لنسترح قليلاً يابنيتي

وتعاود البارونة فعلتها هذه بعد الظهيرة ، ثم يدركها اجهاد فتستلقي فوق كرسي طويل يأتونها به فتهوم نصف نائمة ..

انها تسمي هذا العمل « تمريني » كما تشير الى حالتها الصحية قائلة : « سمنتي ! »

وكثيراً ما كانت تسأل زوجها او جان او روزالي ان يجسوا لها قلبها فيفعلون الا انهم لايشعرون بوجيب هذا القلب المختبيء تحت اطواق من الثياب وطبقات من الشحم . وكانت ترفض بشدة وعناد السماح لطبيب جديد يفحصها خشية ان يكتشف امراضاً لم تكن بالحسبان ..

وهي لاتنفك تتحدث عن « سمنتها » كأن السمنة شيء خصص بها دون سواها من الناس !

والف البارون هذا التعبير فكان يقول : « سمنة » زوجتي !.. كما الفته جان

كذلك فهي تردد «سمنة »امي! كما يقولان : ثوبها وقبعتها ومظلتها !..

كانت البارونة السيدة اديلاييد بارعة الجمال في صباها ، نحيفة هيفاء كالقصبة . وقد اختلطت في عهد الامبراطورية بطبقة الضباط فلم يعدم ذراعان وسيلة لضمها في حلبات الرقص !

ولعل ما اثر فيها وطبع نفسيتها بطابع لايمحي هي قصة (كورين) التي قرأتها مراراً وابكتها كثيراً ...

اما روحها فكانت ، خلافاً لجسمها ، على نصيب وافر من الرقة والشاعرية والمرح ! فهي ، في الوقت الذي تكون فيه مسمرة بكل ثقل جرمها فوق مقعدها تكون روحها في اجواء مغامرات يخيل اليها انها بطلتها .

وثمة اشخاص خرافية كانت تعتبرها مثلاً لها فهي لاتفتأ تستعيدها في مخيلتها كما يردد الحاكي قطعة موسيقية بعينها كلما ادير قرصه ...

ولشد ماتميل الى تلك القصص التى تدور حول المآسي واعمال البطولة فتدمع لذكرها عيناها .

وهي تفضل نوعاً معيناً من الغناء هو غناء « برانجر » لأنه يبعث في نفسها ضرباً من الاسف على ماضيات الايام !.. وهكذا كانت تمضي الساعات الطوال هامدة فوق كرسيها سابحة مع خيالاتها .

كانت تحب قصرهم هذا حباً جماً فهو إطار جذاب لهذه المغامرات المزعومة التي لاتوجد الا في مخيلتها . فهو ، بالغابات المحدقة به ، والاراضي المجدبة القريبة منه ، والبحر الهادر على مسمع الصوت منه ، يذكرها بما وصف « ولتر سكوت » في كتاباته التي قرأتها منذ اشهر قليلة العدد .

كانت في الايام المطيرة تعتكف في غرفتها مستغرقة بمراجعة ماتسميه «ذخائرها» تلك الرسائل القديمة ، رسائل امها وابيها ، رسائل زوجها البارون يوم كانا خطيبين. وغير ذلك من مختلف الرسائل ..

وهي تحتفظ بها كلها بحرص في درج سري من(الاكاجو) مزينةزواياه الاربع بزخارف نحاسية تمثل اباالهول.

كثيراً ما كانت تخاطب روزالي قائلة : — روزالي . يابنيتي هات درج « الذكريات » فتفتح الجارية الخزانة وتحمل الدرج الى سيدتها فتضعه فوق كرسي قريب منها فتتناول هذه الاخيرة ما ضم من اوراق مصفرة وتغرق فيقراءتهارسالة رسالة بينما تنهمر من مآقيها دموع حارة بين فترة واخرى فتبلل الاوراق وتجري بمداد الاسطر ...

كثيراً ما كانت جان تقوم بمهمة روزالي فتنزه الام وتصغي اليها تروي لها ذكريات طفولتها . فكانت الصبية تجد في هذه القصص صورة لطفولتها هي فتدهش لما في الحياتين من شبه في الخلق والتفكير والنزعات والميول . ذلك ان كل قلب بشري يظن انه اول من عرف مثل هذه العواطف وبلا مثل تلك الخلجات .. التي ما انفكت قلوب المخلوقات البشرية تنبض بها منذ كانت القلوب .. وستنبض بها مادام في الدنيا رجل وامرأة حتى انقضاء الدهر ...

فاذا سارتا تتنزهان فسيراً بطيئاً منسجماً مع هدوء القصة وبطيء روايتها والتنهدات الحرى التي لاتنفك تقطع سياقها اذ تند عن صدر الامالذاوي شبابها..

كانت مخيلة جان تقفز واثبة تستبق حوادث قصص امها مندفعة الى حياتها العتيدة المشحونة بالامل العذب والارتعاشات السعيدة ..

وبعد ظهر احد الايام كانت الام تستريح فوق مقعدها في الحديقة عندما لمحت كاهناً ضخماً يظهر فجأة في اقصى الممشى متجهاً نحوها بخطى وئيدة متثاقلة . وحيي عن بعد ، ثم دنا باسماً وعاود التحية من جديد ووقف على ثلاثخطوات منهاوهتف:

— حسناً ياسيدتي البارونه . كيف انت ؟

انه كاهن المنطقة .

كانت الام قد نشأت في عصر سادت فيه الفلسفات اللادينية ، وابوها ، وهو

من رجال الثورة ، كان واهي الايمان فعمد الى تربيتها بعيدة عن الكنيسة الا انها كانت ، بالرغم من ذلك ، تضمر حباً للكهنة مبعثه غريزة نسوية دينية متأصلة .

لشد ما اخجلها انها نسيت الكاهن (بيكو) كل النسيان . وشرعت تعتذر اليه لأنها لم تميز مشيته غير ان الكاهن الطيب لم يبد تأففاً او انقباضاً . وتأمل جان . ولم يسعه الى الثناء على بهاء طلعتها وورونق محاسنها البكر . ثم جلس وخلع قبعته الثلاثية الزوايا والقي بها فوق ركبتيه وراح يجفف عرقاً غذيراً نضح به جبينه .

والاب (بيكو) ضخم الجرم ، شديد الاحمرار ، مدرار العرق . فهو لا ينفك ، بين اللحظة والاخرى ، يخرج منديله الكبير ذا المربعات فيجفف به حباب العرق الناضح بـه وجهه وعنقه وما ان يعيده الى طيات مسوحه حتى يعود العرق ينفصد من جسمه ثراً غذيراً فيتساقط قطرات فوق حزامه العريض محدثاً بقعاً تعلق بها ذرات الغبار المتطايرة من الطريق .

كان ، ككل كهنة الارياف ، مرحاً ، جريئاً ، متسامحاً ثرثاراً .

واندفع يروي قصصاً ويتحدث عن اهل منطقته حديثاً لايهم سواه .

وجاء البارون .

والبارون ، تبعاً لاعتقاده الخاص ، لايأبه كثيراً لرجال الدين الا انه كان يأنس بهذا الكاهن ويبش له ذلك ان معرفته به قديمة . .

ودعاه لتناول الغداء على مائدتهم .

مما لاريب فيه ان الاب بيكو يعرف كيف يغتصب الاعجاب بفضل تلك الملكة القلب التي تولد في انفه الاشخاص قدرة على السيطرة وكسب اهتمام امثالهم من الناس .

وخاضوا بعد الغداء في حديث عائلي مرح لااثر للكلفة فيه .

وهتف الكاهن بغتة كأن فكرة سعيدة قد عبرت خلده :

ان لدي شخصاً قد التحق جديـــداً بابر شيتي ارى ان اعرفكم به . انه الفيكونت دي لامار .

وسألته البارونة التي تعرف حق المعرفة كل العائلات النبيلة في المقاطعة :

— أهو من آل « لامار » من منطقة (الاور) ؟

واومأ الـكاهن مؤكداً : — اجل ياسيدتي . وهو ابن الفيكونت جان دي لامار الذي قضى في السنة الماضية .

ثم راحت السيدة اديلاييد ،التي تحب النبلاء حباً جماً وتهتم بهم اهتماماً خاصاً، تلقي على الـكاهن سيلاً عرماً من الاسئلة . وعلمت ان الشاب قـد اضطر الى بيع قصرهم العائلي لسداد ديون ابيه ثم جاء يستقر في مزارعه الثلاث في مقاطعة «إينوفان» فاملاكه هذه تغل له من خمسة الى ستة آلاف فرنك والفيكونت،وهو الرجل المقتصد المتزن ، كان قد قرر ان يحيى لمدة سنتين او ثـلاث حياة بسيطة في بيت متواضع كيما يتاح له وفر يساعده على الظهور بالمظهر اللائق في المجتمع . واذا ماتزوج وجد لديه مدخراً فلا يضطر الى بيع او رهن عقارات ما .

واضاف الـكاهن : — انـه فتى محبوب ، ميال الى الترتيب والقصـد . وهو شديد البرم في هذه المنطقة .

وقال البارون : — اصحبه الينا ياابتي فقديروح ذلك عنه .

ثم انصرفوا الى الحديث باشياء أخر .

واستأذن الـكاهن بعد الغداء بالخروج الى الحديقة فهو معتاد التريض بعـــد الطعام ، وسار والبارون برفقته وراحا يتنزهان بتراخ على موازاة واجهة القصر البيضاء ذاهبين غاديين ...

وظلاهما الواحد نحيف والآخر شبه مستدير بقبعة كالفطر ، يسيران معهما تارة وراءهما واخرى امامهما تبعاً لاتجاههما من القمر ...

وكان الـكاهن يحرك بين شفتيه نوع من السكائر وقد استخرجها من جيبـه وشرح فائدتها بصراحة اهل الريف :

ـ انها تساعد على الهضم وانا ثقيل المعدة دائماً .

ـ والتفت الى القمر السابح في عليائه وقال مشيراً اليه :

ـ ان المرء لا يمل مثل هذا المنظر الخلاب ابداً .

ثم قفلا راجعين الى الردهة ليستأذن الـكاهن السيدتين بالانصراف .

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

الفصل الثالث

ذهبت البارونة وجان يوم الأحد التالى الى الكنيسة تحدوهما عاطفة المجاملة للكاهن وانتظرتاه بعد الصلاة لدعوته الى تناول الغداء عندهم يوم الخميس المقبل .

وبعد فترة قصيرة خرج من الهيكل وبصحبته شاب فارع القامة انيق المظهر كان يتأبط ذراع الكاهن دون كلفة . وما وقعت عينا الكاهن على المرأتين حتى اشار بيده اشارة فرح ومباغتة وصاح :

– كيف حدث هذا ؟ يا للاتفاق العجيب ! اسمحا لي ياسيدتي البارونة ويا آنسة جان ان اقدم لكما جاركما الجديد السيد الفيكونت دي لامار .

وانحنى الفيكونت معربا عن رغبته القديمة بالتعرف بهم ولم يلبث ان انطلق يحدثهما حديث رجل من طبقة اجتماعية عالية المستوى .

كان وجهه من تلك الوجوه الناضحة منها السعادة ، التي طالما شغفت النساء واثارت كوامن غيرة الرجال . وشعره الاسود الاجعد يظلل جبينه الاسمر الصقيل اما حاجباه الطويلان المستقيمان فيبدوان اصطناعيين .. وقد ظللا عينيه فاكسباهما عمقاً وحنواً وعلى مابهما من عمق وحنو في لونهما القاتم وبياضهما المائل الى الزرقة ذات الاهداب الطويلة الغديرة التي تنم على ميول صريحة بالغة الاثر في نفوس النساء . . إذ أنها سرعان ماتدير منهن الرؤوس سواء منهن المتعاليات والساذجات . .

ان سحر عينيه ليوحي الى الناظر بعمق تفكيره وتضفي اهمية خاصة على انفه مايتلفظ به من كلمات .

اما لحيته الكثة اللامعة السواد فتخفي حنكه الموحي بقوة الارادة والعناد.
وافترقوا بعد فيض من مجاملات تبادلوها كما يتبادل العدو اطلاق النار . . .
وما انقضى يومان حتى كان السيد دي لامار يقوم بزيارته الاولى لهم .
ووجدهم في الحديقة وقد نشب خلاف بين البارون والبارونة حول وضع مقعد او مقعدين تحت نافذة الردهة .

ثم جلسوا فدار حديثهم حول المقاطعة فاعرب الضيف عن شدة اعجابه بها وبما فيها من اماكن رائعة في جمالها خلابة في حسنها . وكانت عيناه تلتقيان ، الفينة بعد الاخرى ، بعيني جان فكأن هذا يحدث بمحض الاتفاق ... اما جان فكان شعور فريد يعبر باحساسها اذ تتعرض لهذه النظرة الخاطفة فتحول انظارها سريعاً . . كان في نظرته معاني الاعجاب الصريح والاستلطاف الواضح . .

واكتشفوا ، اثناء الحديث ، ان السيد دي لامار الاب المتوفي في العام المنصرم كان يعرف احد اصدقاء السيد كوستو ، والسيد كوستو هذا هو والد البارونة . وقد مهد هذا الاكتشاف السبيل لحديث ودي للغاية ونبش تواريخ ووقائع وقرابات لايدرك لها آخر . وراحت البارونة تجهد ذاكرتها لتتبع سلسلة الاسلاف والاخلاف مطوقة ، دون ان تحيد في مفاوز علم الانساب الكثير التعاريج ...

– قل ايها الفيكونت . اما سمعتهم يتحدثون عن آل (سونوا دي فارفلور) ؟ ان ابنهم البكر قد تزوج من آنسة ابنة آل (كورسيل) والابن الثاني تزوج من ابنة عم لي تدعى الآنسة « دي لاروش اوبير » وهي قريبة آل « كريزانج » والسيد « دي كريزانج » صديق حميم لأبيك وابي .

– اجل يا سيدتي . أليس هو ، هذا السيد دي كريزانج ، من هاجر وجمع ثروة ثم جر عليه ابنه الدمار وقاده الى الاملاق ؟ . . .

– إنه هو بعينه . لقد طلب يد عمتي بعد وفاة زوجها الكونت «دي ريثري » الا انها رفضته لانه كان يدمن استنشاق « السعوط » ! . او تعرف ، بهذه المناسبة،

ماذا حل بآل « فيللوا »؟ لقد هجروا « تورين » سنة ١٨١٣ بعد ان خسروا ثروتهم واستقروا في مقاطعة « اوفيرني » ولم اسمع عنهم بعد ذلك شيئاً .

ـ اعتقد يا سيدتي ان المركيز الكبير قد قضى متأثراً بسقوطه من على جواده تاركاً فتاة متزوجة من سيد انكليزي وأخرى مقترنـــة بتاجر غني يدعى السيد « بارسول » ويقال انه اغواها قبل ان يعقد له عليها ...

واستمرا فترة طويلة يستعيدان مثل هذه الاسماء التي حفظاها منذ طفولتهما . فقد كان لزواج افراد مثل هذه العائلات اهمية بنظرهم تعادل اهمية الاحداث العمومية الكبرى . كانا يتحدثان عن اناس لم يعرفاهم ابداً كما لو كانوا لهما اصدقاء ... وشعرا بتقارب فكأنهما اصبحا صديقين حميمين تقريباً ... لمجرد كونهما ينتميان الى طبقة اجتماعية واحدة ولان دماً متعادلا يجري في عروقهما ...

اما البارون فكان ، تبعاً لطبيعته اللااجتماعية ، يجهـل كل شيء عن اسر المقاطعة فيسأل الفيكونت مستوضحاً بعض النقاط التي يود جلاءها ...

واستخلص السيد دي لامار : ـ آه . ليس في المقاطعـــة كثير من الاسر النبيلة .

قالها بنفس اللهجة التي يقال بها :ـ ان الارانب قليلة العدد بالقرب من الشاطيء! ثم راح يعطي التفاصيل والايضاحات معدداً الاسر النبيلة المجاورة للمنطقة ثم اشار الى ان بعض محدثي النعمة قد تسربوا الى المنطقة وابتاعوا ملاكاً هنا واملاكا هناك ولديه عنهم المعلومات العديدة .

واستأذن في الذهاب . وكانت نظرته الاخيرة لجان فكأنه يخصهـــا بوداع لايشاركها به احد وداع اشد حرارة واقوى عاطفة !

وعلقت البارونة بعد ذهابه :انه فتى محبوب .

فاجاب البارون : ـ بكل تأكيد . انه فتى كما يجب . حسن التربية مهذب .

ودعوه الى الغداء في الاسبوع التالي . ثم بدأ يزورهم في اوقات معينة .

كان ياتي ، اغلب الاحايين ، في الساعة الرابعة فيلحق بالام في« نزهتها »فيقدم لها ذراعه كي تقوم « بتمرينها »واذا كانت جان حاضرة اسندت امها من الناحية الثانية ويسير الثلاثة بخطى وئيدة من طرف الممشى الى طرفه ثم يعودون الى مثل ذلك مراراً وتكراراً .

وكثيراً ماالتقت عيناه السوداوان المخمليتان بعيني جان العقيقيتين الزرقة.

وقصد (إبور) مراراً برفقة البارون .

وذات مساء جاءهم الاب (لستيك) وكانوا فوق (البلاج) يتمشون وقال دون ان يرفع من بين شدقيه غليونه الذي يلازم وجهه كملازمه انفه له :

— نستطيع ، في مثل هذه الريح ،ان نذهب غداً الى (اتريتا) ونعود دون عناء.

وضمت جان راحتيها بضراعة وقالت : — آه .. ياابتي ! الا تريد ؟!..

واستدار البارون نحو السيد دي لامار وقال:

— اتوافق ايها الفيكونت ؟ نذهب ونتغدى هناك ؟

وسرعان ماتم قرارهم على ذلك .

واستفاقت جان مع انبلاج الفجر واقامت تنتظر اباها وقد خيل اليها انه اطال بارتداء ثيابه ...

ومشيا في ندى الفجر فاجتازا السهل ثم توغلا في الغابة المهتزة الاعطاف باناشيد آلاف الطيور .

ووجدا الفيكونت والاب لستيك جالسين بانتظارهما فوق آلة جر الاثقال .

وكان ثمة رجلان ساعدا البحار على الاقلاع . فدفعوا الزورق باكتافهم من المسطح الرملي فسمع له صوت كأنه تمزيق اشرعة سميكة .. واستقرا اخيراً فوق زبد الامواج واتخذ كل مجلسه فيه بينما بقي البحاران الآخران على اليابسة .

كان نسيم رخي متواصل الهبوب يأتي من عرض البحر فيجعد سطح الماء

فانتفخ به الشراع قليلاً وانداق الزورق فوق سطح الماء وتبدأ متهادياً ...

كانت السماء تنخفض عند الافق فتمزج زرقتها بزرقة المحيط والشاطيء الصخري يرسم فوق سطح الماء الصقيل ظلاً عريضاً متماوجاً تبعاً لتجعدات اللجة الصافية .. والمنحنيات المعشوشبة فيه تبقع هذا الظل هنا وهنالك ببقع خضراء قاتمة... وكانت اشرعة سمراء لانفتأ تخرج من ورائهم من مرفأ « فيكامب » .. وامامهم كانت ترتفع صخور ناصعة اللون غريبة الاشكال ذات فجوات عراض يتسرب منها نور النهار . وهي تشبه الى حـــد ما فيلا هائل الحجم يغمر الماء خرطومه الطويل .. انه مرفأ « اترينا » الصغير .

اما جان فقد استحوذت على مشاعرها هدهدة النسيم وارجحة الامواج وكانت متشبثة بجانب الزورق شاردة بانظارها الى حيث ينتهي بها البصر .. وفكرت ان اشياء ثلاثة في الكون حرية ان توسم بالجمال : النور الابلج والفضاء الازرق الفسيح والماء الصافي الرجراج .

وهيمن الصمت على الجميع . كان الاب لستيك يدير الدفة ومن حين لآخر يخرج من تحت مقعده زجاجة يجرع منها جرعات ثم ينصرف الى عب الدخان من غليون اسود له ثم ينفث من فيه ضبابة زرقاء من دخان ثم يرفع الغليون من بين شفتيه ويبصق من زاوية فمه مع الدخان سيلا من لعابه الاسود ، الى البحر ...

اما البارون فقـــد جلس في المقدمة وراح يتأمل الاشرعة الخافقـة تحت هبات النسيم . وجلست جان والفيكونت الواحـــد بجانب الآخر وبها شيء من اضطراب . ان قوة مجهولة كانت تحدوهما الى رفع اعينهما الفينة بعـد الفينة فتلتقي انظارهما كأن ثمة هاتفاً غير منظور يدفعهما الى هذا العمل في اللحظة الواحدة . لقـد ولد بينهما هذا التعاطف الحار الذي لايلبث ان يظهر بين شابين اذا كان الفتى غير قبيح والفتاة جميلة ... انهما سعيدان هكذا ! ولعل هذا يعود الى ان احـدهما يفكر بالآخر ولا يفكر بسواه ! .

وارتفعت الشمس كأنها تصبو الى تأمل البحر المنبسط تحتها وهي في عليائها سابحة .. وكأن البحر شاء ان يمعن في "الصد والدلال فتحجب بنقاب خفيف من ضباب حال دون نفاذ اشعتها اليه .. انه ضباب خفيض شاف ذهبي لا يكاد يحجب شيئاً ولكنه يضفي على الابعاد رونقاً وبهاء ... وكأن هذا الحجاب الفاتن لم يرق للشمس فرشقته بسيل من لهيبها فما لبث ان تبخر واضمحل وغدا البحر صقيلا كالمرآة تلتمع تحت دفق النور الساطع !.

وهز هذا المنظر الخلاب جان حتى اعماق مشاعرها فهتفت : —

— حقاً انه لسحر حلال !

فاجابها الشاب : بل اروع من السحر واسنى !

لقد ايقظ صفاء هذه الصبيحة الندية في قلب الشابين فيضاً من الاحاسيس ذات الصدى المتجاوب .

ولم يطل بهم الامر حتى شاهدوا اعمدة (اتريتا) وكأنما ساقا الشاطىء الصخري تخوضان عباب اليم . ورسوا بقرب الشاطىء .

وكان البارون اول من وطىء اليابسة . وبينما كان يجذب حبلا ليدنو بالزورق من الشاطىء حمل الفيكونت جان بين ذراعيه ووثب بها الى الارض كيلا تبتل بالماء قدماها ... ثم انطلقوا يصعدون في المرتفع الصخري سائرين جنباً الى جنب . وحرك تماس جسميها الوف الرغبات والبدوات فيهما ..

وطرق اسماعهم صوت الاب لستيك فجأة وهو يخاطب البارون قائلا ؟ !

— الا ترى انهما يشكلان « زوجاً » جميلا على اي حال ؟ !

وتناولوا فطوراً شهياً في فندق صغير قائم فوق رمال الشاطىء . وقد اعادت المائدة الدسمة اليهم شوقهم الى الثرثرة بعد ان كان المحيط قد أستغرق كل مشاعرهم فلزموا الصمت وهم محمولون على متن امواجه ... واندفعوا يلغطون كأنهم التلاميذ

اطلق سراحهم من المدرسة .. فان اتفه الاشياء لتوحي اليهم بمرح بعيد المدى مقهقه الضحكات ...

وكانت حركات الاب لستيك من اشدد واعي ضحكهم ومرحهم فهو تارة يخفي غليونه في قبعته وطوراً يعلنها حرباً لا هوادة فيها على ذبابة عنيدة مانفكت تحاول ان تحط فوق انفه الضخم وقد جذبتها اليه حمرته فخالته قطعة حلوى ...

لقد ضحكوا كثيراً .. ملء اشداقهم وملء قلوبهم !

وقالت جان بعد تناول القهوة : — لو خرجنا نتريض قليلا ...

ونهض الفيكونت مظهراً استعداده . اما البارون ففضل اخذ حمام شمس فوق ارض الشاطيء الحصباء وقال : — اذهبا ياولدي على بركة الله وستجداني هنا بعد ساعة ...

واجتاز بعض اكواخ القرية سائرين لطيتهما . وبعد ان عبرا بقصر صغير اشبه بالمزارع وجدا نفسيهما في واد مكشوف يمتد امامهما طويلا متعرجاً اشجر الجانبين .

كانت ارجحة البحر قد اثرت في اعصابهما فافقدتها اتزانهما العادى كما فعل فيهما الهواء الملح فاشعرهما بالجوع ثم كانت المائدة الشهية فادارت منها الرأس كما استخف المرح والضحك اعصابهما وارهقها .. وانهما الآن ليشعران بشيء من الخفة والنزق فيودان لو يركضان مندفعين في الحقول حتى يختفيا عن البصر ... وشعرت جان باذنيها تطنان وقد تبلورت فيها احساسات جديدة وامضة لم يكن لها بها عهد من قبل ...

كانت الشمس تصليها بفيض من اشعتها الشديدة الوطأة .. وعلى حوافي الطريق تكدست كوم المحاصيل الناضجة وقد اثقلتها الحرارة فاحنت منها الرؤوس المثمرة . والجنادب بينها تبالغ في طنينها وهي كالرمل عداً .. تفر من امام خطواتهما متواثبة

مندفعة في كل اتجاه بين حقول القمح والشعير والنبات البحري القريب مالئة الجو بصفيرها الضئيل الحاد المصم للآذان ...

ولم يكن يسمع ، عدا طنين الحشرات ، نأمة اخرى تحت السماء المشتعلة فيها الشمس المتكبدة قبتها الزرقاء المائلة الى الاصفرار كما لو كانت توشك ان تصطبغ بلون قان شأن المعدن الداني من جمر متقد الجذوة ...

ولمحا ، الى يمينهما ، غابة صغيرة على بعد قليل فانطلقا اليها ..

وسارا في مفازة ضيقة تخترق الغابة وتفضي الى ظلال اشجار هرمة تحجب عنهما اشعة الشمس .

واحست جان برطوبة لطيفة تغمرها فتدغدغ بشرتها وتنفذ حتى رئيتها . وكانت الارض عارية من كل نبت لانعدام نور الشمس والهواء الطلق ماخلا طحلباً كثيفاً كان يغطي بقعاً هنا وبقعاً هناك

وقالت جان : — نستطيع اخذ قسط من راحة هناك !

واشارت الى مكان تقوم فيه شجرتان ضخمتان وارفتا الظلال الا انهما تنفرجان قليلا تاركين لنور الشمس طريقه الى الارض فيحيي فيها موات النبات الذي اينع وازدهر وابتسمت فيه اكمام بيض رقيقة الاهاب كانها غلائل من ضباب ، وقد هومت فوقه حشرات تطن من نحل وفراش وغيرها من الدويبات الملونة الاجنحة بالف لون بهيج .

وجلسا ورأساهما في الظل واقدامهما تحت وهج الشمس .. وتأملا بعجب كل هذه الدنيا الصغيرة الناشطة ومردها شعاع من الشمس !

ورددت جان وقد اخذت بالمنظر الفريد : — ياللجمال ! يالروعة الريف ! كم اود لو اكون نحلة او فراشة تختبىء في كأس زهرة معطار !...

وانتقلا الى الحديث عن شخصيهما : وصفا عاداتهما واذواقهما بلهجة هادئة حميمة كما تسر النفس الى حديثتها مادق من اسرارها الخاصة . وخلاصة رأييهما ان القرف

من المجتمع قد ادركها وعملت الحياة المتكلفة الملونة بها ارهاقاً .. تلك الحياة الرتيبة السائرة على وتيرة واحـدة من النفاق والدعوى فلا يجد المرء فيها بدوة مخلصة او اشارة صادقة .

المجتمع ! انها ، في الواقع لم تخبره ! الا انها واثقة من انـه لن يجاري الريف جمالاً وصفاء ...

وبمقدار ما كانت نفساهما تتدانيان بقدر ما تشبثا باستعمال الصيغة الرسمية في تخاطبهما : سيدي ! آنستي !..

وكلما التقت انظارهما تبادلا الابتسام فاحسا بروحيهما تمتزجان من خلال الاعين ! حتى خيل اليهما ان روحاً جديدة اشد وضاءة وحسناً قد تسربت الى صدريهما فولدت فيهما شعوراً نحو اشياء لم يكونا ، قبل ذلك ، ليأبهان بها او يعيرانها اهتماماً . .

وقفلا راجعين . ولم يجدا البارون حيث تواعدوا . وعلما انه ذهب ماشياً الى (قاعة الانسات) وهي كهف طبيعي بالغ الروعـــة معلق فوق احـــدى قمم صخور الشاطيء .

ومكثا ينتظرانه في الفندق . الا انه لم يعد حتى الخامسة مساء بعد جولة واسعة على الشاطيء .

وركبوا الزورق وسار بهم سيراً رخياً . وكانت الريح تهب باتجاه سيره فتدفعه بـلطف فلا يهتز ولا يضطرب حتى ليخيل للراكب انه جامد في مكانه لا يتقدم . ثم كانت الريح تتراخى فتترك الشراع يسقط ، بعـــد انتفاخه بها ، متهالكاً على طول السارية .. وبدا اليم القاتم اللون خامد الانفاس ، والشمس، وقد افرغت على الارض كل حيويتها ، اخذت تنحدر في سيرها المنحني نحو الافق وئيدة متثاقلة ...

وأخذ الجميع بروعة الطبيعة في ساعة الاصيل تلك فخيم عليهم صمت لا يعكره معكر ..

وتكلمت جان اخيراً : — كم اتوق الى السفر !

فاجاب الفيكونت : – لابأس . الا انه لمن دواعي الملل والضجر ان يسافر المرء منفرداً والرفيق في الرحيل ضروري للمرء كيما يبادله اراءه وانطباعاته ..

وفكرت : - بالصواب نطقت .. وبالرغم من ذلك .. فانا احب ان اسافر منفردة .. فما اروع ان يحلم الانسان وحده !..

ورنا اليها طويلاً وقال : – ويستطيع كذلك اثنان ان يحلما سوية !

وغضت من ناظريها : اتراه يقصد معنى خاصاً رمز اليه ؟ ربما ...

وعادت تجول بعينيها في الافق البعيد كأنها تبتغي اكتشاف مادق فيه وسحق.

وعادت تقول بصوت متهدج : – كم اود لو اذهب الى ايطاليا .. الى اليونان .. آه . اجل الى اليونان ! والى كورسيكا ! . فلا بد ان تكون هذه البلدان على قسط من الجمال والفتنة يفوق كل تصور ..

اما هو فاعرب عن تفضيله لسويسرا ببحيراتها الساكنة وشلالاتها الصاخبة...

اما جان فاصرت : – كلا .. كلا .. افضل بلاداً عذراء ككورسيكا.. او عريقة مفعمة بالذكريات كاليونان . انه لمن اجمل الاشياء ان يجد المرء نفسه وجهاً لوجه امام تلك الاثار التي تركتها عبقرية اقوام درسنا تاريخهم منذ نعومة اظفارنا .. ان يشاهد الامكنة التي رتعوا بين ظهرانيها والاشياء العظيمة التي خلفوها ...

وتكلم البارون بحماسة اقل : – اما انا فافضل انكلترا لانها وسط ثقافي لايضاهى ...

ثم انطلقوا يطوفون في آفاق العالم وهم لايبرحون مقاعدهم ... ناقشوا كل ما في الاصقاع النائية من متع للعقل والقلب .. من القطب حتى خط الاستواء مرددين ماعلموه عن عادات غريبة وتقاليد اسطورية لبعض الشعوب المجهولة كالصينيين واليابانيين ... وانتهوا الى القول ان اجمل ظن وفي العالم هو وطنهم فرانسا باقليمها

المعتدل ، الرطب صيفاً واللطيف شتاء ، بريفها الغني وغاباتها الخضراء ، بانهارها الثرة الهادئة الجريان ، بفنونها الجميلة التي لم تنبتها ارض قط منذ عصر اثينا المجيد ...

وعاد الصمت فخيم عليهم بعد ذلك .. وبدت الشمس الدانية من الماء كأنها تشخب دماً ... كانت تسحب وراءها ذيلاً من نورقان يتدفق فوق صفحة المحيط لامعاً رجراجاً حتى يلامس زورقهم المنزلق فوق الصفحة البنفسجية اللون ...

وسكنت آخر هبة من ريح .. فغدت تجعدات سطح الماء صفحة صقيلة لامعة. وطغى على الشراع الساكن لون كأنه الارجوان الزاهي . وخيمت سكينة عميقة على الكون باسره ... وبدا البحر كأنه العاشق العملاق يقيم صابراً بانتظار معشوقته النارية التي لم تلبث ان انحدرت الى لقائه وقد احمر وجهها وجداً وحياء لدنو ساعة العناق ... وغلفهما شفق احمر عريض وتم بينهما الوصال !.. الا انه ، وهو العاشق الاناني ، لم يلبث ان افترسها وغيبها في العالم المجهول ...

وهبت نفحة منعشة من الافق الغربي كانها تنهدات المعشوقة تطلقها على الكون دلالة على الرضى والارتياح !... ولم يطل الامر بالشفق . فسرعان ما ارخى الليل سدوله راعش الصدر بالنجوم الخوافق ... وتناول الاب لستيك المجذافين وضرب بهما سطح الماء الذي كان في تلك الساعة يلتمع كأنه من فسفور .

كانت جان والفيكونت جالسين الواحد بقرب الاخر وقد أخذا بمنظر الانوار الملتمعة لايلبث الزورق ان يخلفها وراءه . ولم يكونا في تلك الساعة مستغرقين باحلامهما المجنحة كعادتهما بل راحا يتذوقان بلذة جمال ذلك المساء المنعش .. والقت جان براحتها فوق حافة الزورق وشعرت باصبع جارها تزحف حتى تمس ظاهر كفها حدث ذلك كأنه بمجرد الصدفة .. لم تبد حراكاً .. فقد وفرت لها هذه اللمسة المباغتة سعادة عميقة واختلاجاً لذيذاً ...

ولما اوت ذلك المساء الى فراشها شعرت باضطراب غريب يمور به صدرها .. فهي ثائرة الاعصاب الدعة يخرجها ادنى شيء عن طورها ...

هي ثائرة الاعصاب حاضرة الدمعة يخرجها ادنى شيء عن طورها ...

ونظرت الى ساعتها .. انها تدق كما يدق قلب عاشق .. وتأملت هذه الساعة مفكرة : ستكون شاهداً في اتراحها وافراحها .. ورفعتها الى شفتيها وطبعت فوقها قبلة حانية .. انها لعلى استعداد لتقبيل اي شيء تجده في طريقها !

وعادت تفكر : اتراه الزوج المقدرلي بكتاب مكنون ? اي قدر خير قد التقى به في طريقها ? اتراه الكائن الذي ابرأه الله خصيصاً من اجلها ? أهو الانسان الذي ينبغي لها ان تكرس له وجودها ? اتراهما المخلوقين المقدر لهما ان يتحدا منذ الازل ويمتزجا الى الابد ?.. والحب ? سيصهرهما في بوتقته ويحيلهما شخصاً واحداً، روحاً واحداً وجسداً واحداً ? ولم تكن تلك الرعشات العنيفة قد عرفت طريقها الى اعصابها حتى تلك الساعة .. الوجد والوله والهيام ? كلمات سمعت بها الا انها لم تبلها قبل الآن قط !

لقــــد خيل اليها انها شرعت تحبه .. فهي تشعر ، اذ يراود طيفه احلامها ، باستسلام واسترخاء !.. ولشد ما كانت تحلم به ! اما لقاؤه فكان يهز نياط قلبها هزاً .. فما ان تجد نفسها تحت وهج عينيه العميقتين حتى يعتورها احمرار يتلوه شحوب .. وما يطرق صوته اذنيها حتى تسري في جوارحها رعشة تهدهــــد اعصابها برفق ولين ودغــــدغة ...

لم تذق طعم الكرى ليلتها تلك الا غراراً ..

ان رغبتها العارمة في ان تحبه تتفاقم يوماً بعد يوم . وكثيراً ما لجأت الى سبر اغوار نفسها واستكناه خوالج فؤادها .. وكانت تعمد الى الازهار تستشيرها ، او الى الغيوم تسائلها او الى قطع النقد تلقي بها في الفضاء ...

وقال لها ابوها ذات مساء : - تجملي في غد اذا اصبح جهد طاقتك .

وسألته : - ولماذا يا ابتاه ?

فاجابها : - هذا سر لن اطلعك عليه الآن !

وعندما نزلت في الصباح ريا هفافة الاعطاف في هندام خلاب رأت المائـدة منقلة بعلب الحلوى وفوق احد المقاعد اضمامة زهر ضخمة رفافة .

ولم يطل بها الامر حتى لمحت عربة تدخل الباحة منقلة بالاطعمة والفاكهة والأفاويه.

وظهر الفيكونت دي لامار . كان يرفل في فاخر الثياب وقد بالغ في تأنقه حتى بدا كالرجال ذوي السمت والشارة . كانت طلعته رائعة وجماله ابدع مما اعتادت ان ترى ومرد هذا الاختلاف تغيير الهندام وهذه ظاهرة نلحظها في اكثر الناس دنواً منا . وشرعت جان تحدق به دهشة كأنها لم تره قبل ذلك قط . والفته رائعاً في صباه الريق الفياض الحيوية . انه سيدمن قمة رأسه حتى اخمصيه !

وانحنى باسماً وقال : حسناً أأنت متأهبة يا (اشبينتي) ؟

وتمتمت مستغربة كل مايدور حولها : — ولكن ماذا هناك؟اي شيء سيحدث؟

ورد ابوها موضحاً : — ستعلمين تواً كل شيء .

ونزلت مدام اديلايد في هندام فخم هي الاخرى ، تسندها روزالي التي ابدت اعجابها بهندام السيد دي لامار . وتحركت بهم مركبة مشدودة الجياد ...

وقال الاب مازحاً : — قل ايها الفيكونت . يبدو ان وصيفتنا قد اعجبت بك ووجدتك موافقاً لذوقها !..

واضرج الفيكونت حتى اذنيه الا انه تظاهر بعدم الاصغاء وتناول اضمامة الزهر الكبيرة وقدمها لجان فتناولتها وقد استبدت بها الدهشة . وقبل ان تسير المركبة حملت الطاهية (لوديفين) الى سيدتها حساء بارداً تستعين به على الجوع وقالت :

— لقد خيل الي ياسيدتي ، في الواقع ، ان ثمة عرساً !...

وهبطوا باتجاه (إيوز)... وكانوا كلما تقدموا في شوارع القرية خرج البحارة في ثيابهم القشيبة يحيونهم من على عتبات بيوتهم ثم يسيرون اثرهم كما لو كانوا في حفل ديني .

وسار الفيكونت في الطليعة يتأبط ذراع جان التي لم تدر مما يدور حولها شيئاً .

وبلغوا الكنيسة فتوقفوا . وظهر الصليب الكبير يحمله الطفل خادم الاحتفال ووراءه طفل آخر يحمل وعاء الماء المقدس غمست فيه مرشه . وتلا هؤلاء منشدون ثلاثة احدهم يظلع في مشيته . وظهر الكاهن اخيراً والشعار الذهبي يتأرجح فوق كرشه المتكور . . . وحيي بابتسامة اتبعها بانحناء رأسه . . ثم سار يخف به « اركان حربه » مطبقي الجفنين نصف اطباقة متجهاً نحو الشاطيء متمتمة شفتاه بصلاة مبهمة الكلمات .

وعلى الشاطيء وقف جمهور غفير ينتظر وقـــد احدق بسفينة جديدة زانتها اكاليل ضخمة من ضروب الزهر وصنوف الاوراد وقد خفقت فوق ساريتيها وحبالها واشرعتها الاشرطة الملونة تتلاعب بها هبات النسيم . . وبـــدا اسمها باحرف مذهبة تلتمع في مؤخرتها تحت وهج الشمس وتتألق بهاء وسنى . وقرأ الناس : « جان » .

كان الاب لستيك ، قائد هذه السفينة التي بنيت على نفقة البارون يسير في الطليعة . ورفع جميع الرجال قبعاتهم بحركة واحدة . وتقدم الكاهن يواكبه خادما القداس فصعد الى ظهر السفينة وتبعه المنشدون فوقفوا في الجانب المقابل . وبدأ الاحتفال وعلا الانشاد .

كان البحر في سجوه كأنه يشهد هو الآخر الاحتفال بتعميد ابنته الجديدة ساكناً الا حركة خفيفة عند ملامسته حصى الشاطيء حيث تند عنه ضجة مخنوقة محشرجة . . . وكانت الطيور ذوات الاجنحة البيض تعبر الجو راسمة فوق زرقة السماء دوائر ومنحنيات ثم تبتعد لتعود من جديـــد فتحلق فوق رؤوس الجماهير كأنها تشهد هي الاخرى الاحتفال الفخم . . .

وانقطع الترتيل بعد (آمين) استمروا يذجرون بها خمس دقائق . . وبصوت رخو النبرات تشدق الكاهن ببضع كلمات لاتينية لم يفهم منها السامعون شيئاً ولم يعوا سوى نهاياتها الرنانة . . ثم طاف مع حاشيته ارجاء السفينة ورش فوقها الماء المقدس . وبلغ « الاشبين والاشبينة » فتوقف امامهما وهما جامدان ويد الواحد بيد الآخر . . .

كان الشاب محافظاً على هدوء وجهه الجميل .. اماالفتاة فقدعصفبهااضطراب كاد يخمد انفاسها .. وراحت ترتجف حتى اصطكت اسنانها بصوت مسموع ... ان الحلم الذي طالما راود مخيلتها في يقظتها ومنامها كاد ان ينقلب حقيقة واقعة .. لقد سمعتهم يتحدثون عن عرس .. وها الكاهن يبارك رجالاً في ثياب احتفالية متمتماً صلواته ... اتراهم بزواجها هي يحتفلون ؟!

وانتفضت اناملها بشكل عصبي عنيف وكأن هذه الانتفاضة قد انتقلت من عروقها فبلغت قلب جارها . اتراه فهم؟ ام لعله استنتج ؟ ان نشوة الحب قداجتاحته هو الآخر كما غمرت منها الفؤاد والجوارح ؟! او لعله يثق بفتنته واغرائه الذين لاتثبت امامها امرأة قط ؟!

وانتبهت الى انامله تضغط راحتها بلطف باديء بدء ثم ضاعف ضغطه حتى كاد يلوي كفها ويحطمه .. ودون ان يختلج وجهها سمعته يقول فلا يسمع صوته سواها، ولكن صوته كان واضحاً لاريب فيه : —آه باجان .. لو شئت لكان هـذا العرس عرسنا !..

وأحنت رأسها بحركة بطيئة جداً .. ولعلها عنت بها قولها : « نعم !»

وكان الكاهن ماانفك يرش الماء المقدس وعبر بها فتناثر الماء فاصاب رشاشة انامله !..

وانتهى الاحتفال . ونهضت النساء من جثوهن . وكانت العودة فوضى .. فقد انطلق المنشدون وحملة الصليب مسرعين وحث الكاهن خطاه باثرهم .. اماالبحارة والجمهور فخفوا هم الاخرون كي يدركوا مكان الوليمة فلا تفوتهم اطايبها تلك الوليمة التي طالما تحلب ريقهم بانتظارها ...

واقيمت الوليمة الموعودة بالقصر . ومد الخوان الطويل في الحديقة وجلس البارون في الجهة المقابلة والى جانبيه المختار وزوجته الريفية الهرمة الهزيلة تنثر تحيات لانهاية لها في جميع الاتجاهات .. كانت هـذه المرأة القروية تتناول الطعام بضربات سريعة متلاحقة كأنها تنقده بانفها كالدجاجة .

اما جان فقد جلست بقرب « الاشبين » وراحت تهيم في سماوات سعادتها البعيدة الغور كأنها لاترى مما يدور حولها شيئاً ولا تسمع مما يقال كلمة فهي صامتة ساكنة وقد فعل بها السرور فادار منها الرأس وخدر الحواس ...

والتفتت الى جارها وسألته : — مااسمك الصغير؟

فاجاب : — جوليان . الا تعرفين ذلك حتى الان ؟

وعادت تلوذ بالصمت تائهة في مهامه افكارها مرددة بينها وبين نفسها : « كم سأردد هذا الاسم الجميل في آتيات الايام ! »

وما فرغوا من الطعام حتى تركوا الحديقة للمدعوين وانطلقوا الى الناحية الثانية من القصر .. وشرعت البارونة « بتمرينها » مستندة الى ذراع البارون يواكبها الكاهن . اما جان وجوليان فقصدا الخميلة في اقصى الحديقة متبعين طريقاً مظللة تعانقت فوقها الاغصان . وتناول يدها فجأة :

— قولي . اترضينني زوجاً ؟

واكتفت باحناءة من رأسها الضاجة فيه افكار من نار ..

وتابع في شبه توسل : — اضرع اليك ... اجيبي !.

ورفعت نحوه عينيها اللامعتين حبوراً ... وتركته يقرأ فيها الجواب ...

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

الفصل الرابع

دخل البارون ذات صبيحة غرفة جان ولما تنهض بعد . وقال وهو يجلس الى قدمي السرير :

ـ لقد تقدم الفيكونت دي لامار يطلب يدك ..

وبدرت منها حركة كأنما تود اخفاء وجهها تحت طيات اغطيتها .

وعاد ابوها يقول : ـ ... وقد ارجأنا اعطاءه الجواب الى وقت آخر .

وشعرت بالتأثر يضغط انفاسها فلهثت . واضاف البارون بعد فترة باسماً :

ـ لم نشأ ان نبت بالامر قبل استمزاج رأيك . اما امك وانا فلا نجد مانعاً يحول دون اتمام هذا الزواج وان نكن ضعيفي الامل في انك ستجارينا في رأينا هـذا . لابد من افت نظرك الى انك تملكين من الثروة مايفوق ماله منها اضعافاً مضاعفة .. غير ان المرء الذي ينشد السعادة في الحياة قلما يهتم بالمال وحده . واذا رضيت به بعلاً فسيدخل هذا الفتى عائلتنا لأن ليس له اقرباء او اهل بينما لو تزوجت سواه فستغادرين بيت ابيك الى قوم غرباء . والخلاصة : ان هذا الفتى يرضينا فهل تراه يرضيك انت ؟

وتمتمت وقد اعتراها احمرار صبغ وجهها حتى مفرقها : ـ انه يرضيني انا الاخرى يا ابتاه !...

كان الاب ينظر اليها باعماق عينيه وقد افترت شفتاه في ابتسامة عريضة . قال :

ـ كنت اشك في ذلك بعض الشك ايتها الانسة !...

واقامت نهارها سكرى بسعادة قلقة لاندري مهماذاتص .
لاتلبث ان تتركه الى غيره بحركة آلية . واحست تعباً في ساقيها وهي لم تمش، وغلاً في ذراعيها وهي لم تقم باي عمل مضن .

وكانت جالسة وامها تحت شجرة الدلب وما ازفت السادسة مساء حتى رأتا الفيكونت قادماً . وراح قلب جان يجب وجيباً عالياً جنونياً ... وتقدم منهما الشاب لم يعره اضطراب . وما بلغهما حتى هم بيد البارونة فقبلها ثم عطف الى الفتاة فناولته راحة راعشة صب عليها قبلة طويلة حارة . فكأنه يقر لها بحسن صنيعها ..

وبدأ عهد خطوبتهما السعيد غاصاً بالرؤى والاحلام .. فكانا ينتبذان مكاناً قصياً ينصرفان فيه الى الثرثرة العذبة الراضية . او يخرجان الى الحقول والجنائن فيجلسان فوق رابية معشوشبة او في روضة فواحة او امام الارض الفسيحة العذراء . وكثيراً ماتنزها في « ممشى الام » فيروح يحدثها حديث المستقبل البسام بينما تنصرف الى الاصغاء اليه بجماع قلبها وقد اخضوضرت الامال في نفسها الفتية العطشى ... وكانت ، اذ تصغي اليه ، لاترفع ناظريها عن اثار خطوات امها فوق الاعشاب ..

وشاء جوليان تعجيل الفرحة الكبرى ماوسعه ذلك ووافق الجميع على ان يكون الاحتفال في نهاية ستة اسابيع اي في منتصف شهر آب ثم يسافر العروسان في « شهر العسل » .

عندما سألوا جان رأيها حول اي الاقطار تفضل زيارتها في رحلة عرسها اعلنت عن رغبتها القديمة في زيارة كورسيكا . ففي هذه البلاد البدائية يتاح للمرء الانفراد والانصراف الى رفيقه اكثر مما يتاح له ذلك في مدن ايطاليا او غيرها من البلدان المتمـــدنة .

ولم يفرغ صبرهما بانتظار اليوم الموعود، يوم اتحادهما مرة واحدة والى الابد... ذلك انهما كانا في شغل شاغل بما وفرته لهما فترة الخطبة من سعادة فياضة وامل مزدهر بسام .. ولم يقتصر عهد خطبتهما على التعلل بالاوهام بل تذوقا نشوة القبل الرطيبة

وارتعشا لمتعة الدعاب البريء كضغط الاكف وتبادل النظرات المشوقة تمتزج فيها الروحان في صفاء كصفاء تلك النظرات . بينما كانت الرغاب العارمة ، والنزعات المبهمة تدير رأسيهما دواراً هائلاً لايجد ان منه منفلتاً ولا الى اشباعه سبيلا ...

وقررا ان تقتصر الحفلة على الخالة (ليزون) التي تعيش كسيدة لاجئة في احد اديرة فرساي . وليزون هذه هي شقيقة البارونة وقد شاءت هذه الاخيرة الاحتفاظ بها بعد وفاة ابيها غير ان الناس فضلت الانسحاب الى مثل هذا الملجأ يحدوها تصورها انها ثقيلة الظل غير مفيدة لاحد ولا شك في ان الجميع ، وهذه حالها ، يرغبون عنها .. واقامت في الملجأ الا انها لم تنقطع عن زيارة شقيقتها فتمضي لديها شهراً او شهرين من كل عام .

والعمة ليزون امرأة ضئيلة الجرم ، قليلة الكلام ، سرعان ماتختفي فلا تعود الى الظهور الا ساعة يدعوها واجب اوداع . وهي تقضي معظم اوقات اقامتها لدى شقيقتها معتكفة في غرفتها .

وبالرغم من انها لم تتجاوز الثانية والاربعين بدت هرمة الا ان طيبتها وسمت محياها بميسم الجمال فعيناها تنضحان حزناً ولطفاً . وهي لم تكن قط ذات موضوع في العائلة او بين الاتراب . وحتى عندما كانت طفلة لم تجد من يهتم بها او يقبلها لأنها لم تكن على حظ من الجمال موفور . لذا كانت تلزم الزوايا هادئة مسالمة ومنذ ذلك الوقت لبثت متوارية ، باهتة الشخصية ، منكرة لذاتها ... ولم يزدد الاهتمام بها حتى بعد ان كبرت ونضجت انوثتها ..

انها اشبه بظل يعبر عبوراً خفيفاً لايلفت اليه الانظار .. بل اشبه باحدى تلك القطع من الاثاث فلا تثير اي اهتمام لكثرة مااعتادها النظر والفها . اما اختها ، البارونة ، فاستمرت تنظر اليها كما كانت تفعل وهما في البيت الابوي : نظرتها الى مخلوق ناقص لامعنى له ابداً !

اما اسمها « فليز » ولشد ماسبب لها هذا الاسم الفني الرنان متاعب وازعاجاً .

لا انهم ، عندما ادركوا انها لم تتزوج ولن تتزوج ابداً حرفوا اسمها من ليزالي « ليزون » ومنذ مولد جان اضحت « الخالة ليزون » .. وهي بالاختصار : قريبة متواضعة ، نظيفة ، رائعة في خجلها الذي لم يكن ليفارقها حتى حيال اختها وصهرها . اما هذان الاخيران فيكنان لها حباً حقيقياً يشوبه شيء غير قليل من عدم الاكتراث والتهاون في امرها .

وكثيراً ما كانت البارونة تقول ، لتحدد وقتاً ما من اوقات طفولتها الاولى : .

ـ حدث ذلك عندما اصابت ليزون لوثتها ...

كانت تكتفي بهذا القدر من القول فلا تعطي ايضاحاً قط . وبقيت قصة هذه اللوثة التي نزلت بليزون مغلفة في ضباب السر المكنون ...

اما كيف حدث ذلك : فخلاصته ان ليزون القت بنفسها ذات مساء الى البحر . كانت في ربيعها العشرين ولم يستطع احد معرفة الدوافع الحقيقية لمحاولة الانتحار تلك . لم يكن ثمة مايشير الى مثل هذا المصير في حياتها الخاصة او بدواتها الظاهرة او ما ينم عن هذا الجنون المفاجيء .. وتلقفها الصيادون وهي تـكاد تلفظ انفاسها . . ولم يعر اهلها الامر كبير اهتمام بل نفضوا ايديهم منه واكتفوا بالاشارة الى جنون ليزون كما يشيرون الى حادثة الجواد « كوكو » الذي كبا فكسر ساقه فاضطروا الى اعدامه لينقذوه من آلامه ...

ومنذ ذلك اليوم اخذوا عن ليزون فكرة ضعف العقل .. وسرعان ماسرى هذا (الاحتقار اللبق) من دائرة العائلة الى كل معارف العانس المسكينة . وحتى جان الصغيرة قد انساقت بحب التقليد الطبيعي لدى الاطفال ، الى عدم الاكتراث بالخالة ليزون . فهي لم تكن تذهب اليها قط فتعانقها في سريرها كفعلها مع بقية اهلها . وحتى غرفتها قلما ولجتها . وكأن روزالي الطيبة هي الوحيدة التي كانت تعرف موقع غرفة الخالة فتدخلها لتهتم بترتيبها وتنظيفها .. وقد اقتصرت علاقة جان بخالتها على تقديم جبهتها لها لتطبع عليها قبلة عندما يكونون الى المائـدة ...

لم تكن ليزون تشغل اي فراغ ، ماديا كان او معنويا . فهي من ذلك الضرب من البشر الذي يمر فلا يؤبه به . . ولو مات لما ترك فراغاً ذا بال في المحيط الذي يضطرب بين ظهرانيه . . ذلك الضرب الذي لا يوحي بسوى الاسف العابر . . انها ، بالاختصار ، من تلك المخلوقات التي لا تجيد ولوج القلوب التي تعيش بينها . فاذا ما قيل « الخالة ليزون » فكأن يقال : « ابريق القهوة او وعاء السكر ! » دون ان تترك هاتان الكلمتان اثراً في النفوس قوياً كان او ضئيلاً . . .

ووصلت ، مثقلة بالهدايا ، وقد شارف تموز منتصفه . وكان اضطرابها متفاقماً بسبب هذا الزواج المباغت . . اما هـــداياها فلم تسترع كبير اهتمام لمجردانها هي التي حملتها . . .

وكادوا يتناسونها بعد يوم واحد على وصولها .

كانت لا تفارق بعينيها الخطيبين الشابين ذلك ان شعوراً غريباً بـدأ يختمر في اعماق نفسها المعقدة . واندفعت تهتم « بجهاز » العروس اهتماماً فريـداً محموماً . . تمضي جل وقتها سجينة غرفتها منصرفة الى الخياطة والتطريز . وفي كل لحظة كانت تحمل للبارونة مناديـل فرغت من تطريزها او ثياباً اخرى وشتها وزينتها بحروف مطرزة . وكانت تسأل : - اهو كذلك يا اديلاييد ؟

فتفحصها الام باكتراث قليل وتجيب : — لشدما تتعبين نفسك يا ليزون المسكينة !

وذات يوم من اواخر الشهر ، وكان القمر قد بزغ رائعاً بعد يوم لاهب ، والليل نيراً فاتر الانفاس ، انه من تلك الليالي التي تثير في النفس كل ما كمنت من مشاعر سرية سحرية . وهبت نفحات الحقول الندية فتخللت النوافذ وافعمت اجواء البيت بشذى معطار . كان البارون وزوجته يلعبان الورق بتراخ تحت الدائرة المنيرة التي يرسمها غطاء المصباح فوق الطاولة وقد جلست بينهما ليزون منهمكة بالتطريز بينما استند الشابان بمرفقيهما الى حافة النافذة المفتوحة وغرقا في تأمل الليل الساجي والحديقة المفعمة ضياء . . .

كانت خمائل الحديقة ترسم ظلالها فوق العشب شاحبة لامعة متحركة بهبات نسيم الليل الرخي ... وجذب سناء الليل الشابين بجاذب لايقاوم ..

واستدارت جان وخاطبت اباها قائلة : — سنقوم بنزهة باباتاه امام القصر فوق العشب الندى ..

فاجاب البارون دون ان تفارق انظاره الورق : — امضيا ياولدي ..

وعاد الى شأنه . وخرجا فسارا بخطى وئيدة فوق المرج المنور الجنبات حتى بلغا الخميلة الصغيرة في الطرف الآخر من الحديقة . ومرت الساعات لايفكران بالعودة . وادرك البارونة التعب فشاءت ان تصعد الى غرفتها الا انها تنبهت الى غياب الخطيبين فقالت :

ينبغي مناداة العاشقين !

وأجال البارون ناظريه في ارجاء الحديقة فوقعت عيناه عليهما يمشيان بهدوء متخاصرين .

قال : — دعيهما . ان الجو على غاية من الجمال في الخارج . ستقيم ليزون بانتظارهما . اليس كذلك ياليزون ؟

ورفعت العانس عينيها القلقتين وقالت بصوتها الخفر :

— بكل تأكيد . سأنتظرهما ..

ونهض البارون وزجته وكان هو الآخر يشكو صداعاً اورثه اياه حر النهار واعلن وهو يخرج عن رغبته في ان يأوى الى فراشه حالاً . وانطلق بزوجته .

وبعد خروجهما نهضت الخالة ليزون تاركة فوق ساعد المقعد شغلها الصوفي وابرتها الضخمة وجاءت تستند بمرفقها الى حافة النافــــذة وتجيل في الليل الخلاب نظراتها الوجلة ...

كان الخطيبان يمشيان فوق الحشائش لايدركهما عناء او نصب ، ذاهبين جائيين في الممشى الطويل . وكانت راحتاهما متعانقتين وقد خيم عليهما الصمت وكأن

روحيهما قد انطلقتا الى اجواء علوية فامتزجتا بالنفح السحري المنبثق من الارض .
ولمحت جان بغتة شبح الخالة العانس يرسمه نور المصباح في اطار النافذة المفتوحة المصراعين .

قالت مخاطبة رفيقها : – انظر ! الخالة ليزون تراقبنا . . .

ورفع الفيكونت رأسه وقال بصوت خارج عن حيز ارادته :

– اجل ! الخالة ليزون تراقبنا . . .

كانت رطوبة ناعمة ، منبعثة عن ندى يغمر الاعشاب ، قد تمشت في مشاعرهما ودغدغت حواسهما . .

وتابعا مشيهما الوئيد . . الهين . . حالمين . . .

قالت : – لنعد . لقد طال بنا الغياب . .

وعادا على اعقابهما . . .

كانت الخالة ليزون قد رجعت الى ابرتها وصوفها ، عندما دخلا الردهة ، حانية الجبهة مرتجفة الاصابع المزيلة كأن بها برداً يرعشها .

واقتربت جان وقالت : – سنأوي الى مضاجعنا الآن ايتها الخالة .

واستدارت اليها العانس برأسها كانت عيناها حمراوين كأنها قد ذرفت دمعاً غزيراً . الا ان ذلك لم يسترع انتباه العاشقين . وتنبه الشاب فجأة الى ان حذائي حبيبته الدقيقين قد بللهما الندى فادركه لذلك قلق وخاطبها بحنو :

– الا تحسين برداً في قدميك الصغيرتين العزيزتين ؟

ولدى سماع هذه الكلمات اهتزت اصابع الخالة اهتزازاً شديداً جعل الفسيج يفلت منها فتنداح كرة الصوف فوق البلاط بعيداً . . . وحملت راحتيها بسرعة الى عينيها واندفعت في بكاء عصبي مرير . . .

وجمد الخطيبان وهما ينظران اليها مندهشين . وخفت اليها جان وركعت

بقربها وتناولت ذراعيها وقد استبد بها الاضطراب واندفعت تقول : ايتها الخالة ليزون !.. ماذا دهاك ؟ ماذا دهاك ؟. وجمجمت الفتاة المسكينة بصوت غارق بالشهقات والزفرات :

— لقد سألك : « الا تشعرين بـ .... ر .. د .. في ... في .. قدميك العزيزتين ؟... » اما انا فان احداً لم يقل لي مثل هذاالقول مطلقاً ... مطلقاً ...

وادركت جان ، رغم دهشتها وحنوها ، رغبة عنيفة في القهقهة اذ خيل اليها انها ترى عاشقاً يغازل ليزون .. اما الفيكونت فقد استدار ليخفي ابتسامة عريضة هازئـــة ...

ونهضت ليزون فجأة فتركت صوفها فوق المقعد وانطلقت الى غرفتهالاتلوي على شيء ... وبقي الشابان منفردين يتبادلان النظرات وفي صدرهما حب يعتلج وهيام يفور ...

ووجدت جان نفسها تردد : - ياللخالة المسكينة ! ياللخالة المسكينة !

وعلق جوليان : يخيل الي ان اللوثة قد عاودتها هذا المساء !

كانا متماسكين بالاكف دون انيجزما امرهما على الافتراق .. وبهدوء... بهدوء كلي .. تبادلا قبلتهما الاولى ... امام مقعد الخالة ليزون الخاوي ... دون ان تراود دموع العانس المسكينة خاطرهما بعد ذلك .

لقد حمل الاسبوعان الاخيران هدوءاً الى نفس جان انساها ثورات عاطفتها فيما مضى من ايام .

لم يتح لها وقت للتفكير حتى صبيحة اليوم الفاصل ... وشعرت بتخاذل في قواها ودوار يجتاح رأسها وانحطاط جسدي خيل اليها معه ان لحمها وعظامها قدذابت فلم يبق منها اثر تحت جلدها ! ولحظت ان اناملها ترتعش وتنتفض كلماهمت بتناول شيء .

ولم تعاودها سكينتها الا امام المذبح يوم الاحتفال .

تزوجت ؟ أجل لقد تزوجت ! وهكذا انتهى كل شيء في مثل ايماضة !

لقد بدا لها هذا التداخل والاختلاط في الاحداث منـذ الصباح ، والمفاجآت المتوالية ، كأنها اضغاث احلام . ان الاشياء ، مهما كانت معتادة ، في مثل هـــذه المواقف الفاصلة ، ذات لون جديد ومعنى غير معهود . الكلمات والاشارات وكل شيء .. حتى الوقت لايظهر لنا سائراً في طريقه المعتاد ...

انها مضعضعة الفكر ،ضالة التفكير ، زائغة البصر ...

وهبط المساء لايحمل اليها اية راحة او اي تخلص من القلق !.. وكل ما في الامس ان آمال حياتها الموعودة بدت لها دانية القطوف يانعة الثمرات قريبة المنال!

لقد رقدت امس في فراشها فتاة عذراء ضاج صدرها بالرغاب.. وسترقد هذا المساء لتستفيق امرأة ذات بعل ... ياله من تاريخ في حياتها فاصل خطير ...

لقد عبرت اذاً هذا الحاجز الذي يحجب كل ما في المستقبل من متع ومسرات وسعادة طالما حلمت بها الفتيات اذا ماخلين الى مضاجعهن ! لقـــد فتح امامها الباب السري .. وهاهي توشك ان تلج العالم الجديد الذي طالما راودها في احلام يقظتها ومنامها !

وانتهى الاحتفال . وعادوا ادراجهم عبر المعبد شبه الفارغ فقد اقتصر الحفل على عدد ضئيل من المدعوين ...

ما ان ظهر العروسان على باب الكنيسة حتى عكر الفضاء رشق من طلقات نارية عبر بها الفلاحون عن ابتهاجهم بالحدث السعيد .. وواكبوا الحفل مستمرين باطلاق النار حتى بلغوا القصر وقد تفاقم ذعر البارونة لصوت النار ...

وقدمت وجبة خفيفة للعائلة وكاهني شاتلات وإبورو والشاهدين الذين تم اختيارهما من فلاحي الجوار . وقبل ان يجلسوا الى المائدة قاموا بجولة في ارجاء الحديقة .

كانت هتافات القرويين المتعالية من الناحية الاخرى للقصر تشق عنان السماء وتصك الآذان يعبرون بهذا الضجيج المصم عن ابتهاجهم وقـــد تحلقوا حول اسمطة

الطعام والخمر الممدودة تحت اشجار التفاح . لقد عم الفرح كل المنطقة ولم يقتصر على الكبار بل تعداهم الى الاطفال الذين توافدوا متراكضين متلاحقين حتى كادت تغص بهم الحديقة على اتساعها ...

اما جان وجوليان فقد عبرا الحديقة واجتازا الخمائل ثم تسلقا الرابية المشرفة على البحر ووراحا ، صامتين ، يتأملان المائج الازرق . .

كان الجو ، رغم اننا في منتصف آب ، على شيء من البرودة فريح الشمال تنفخ والشمس تلتمع حادة في كبد سماء صافية الزرقة .

وشاء العروسان اللجوء الى مكان ما هربا من الشمس ، فاجتاز المنبسط الرملي وانعطفا الى اليمين باتجاه الوادي المتعرج المشجر والهابط نحو إبور

وما ان بلغا الادغال الملتفة على جانبي الوادي وتوغلا فيها حتى شعرا بالهواء يختنق فلا تهب عليهما نسمة ، فحادا عن الطريق ليتخذا سبيلاً ضيقة عبر الاغصان المتعانقة . كانا يتقدمان بعناء ومشقة . والتفت ذراع جوليان حول خصر عروسه . كانت صامتة ، لاهثة ، متوثبة القلب متقطعة الانفاس . وداعبت الاغصان الدانية شعرها ، ولامست منها الوجه والنحر ... ومدت يدها فقطفت ورقة فاذا بحشرتين ملتصقتين فوقها ..

قالت بهدوء وبراءة : - هي ذي عائلة !.

وهمس جوليان في اذنها : - ستكونين هذه الليلة امرأتي ...

صحيح انها كانت قد عرفت اشياء كثيرة عن الحياة الجنسية تعلمتها في الريف ، الا انها لم تكن تحلم من الحب بغير ما فيه من شاعرية وروحانية ... لقد ادهشتها قولته : امرأته ؟!

ولكن الم تصبح امرأته حتى الآن ؟!

وراح يكسو عنقها وصدغيها وشعرها الاجعد اللمعات قبلاً قصيرة سريعة .

ومالت برأسها محاولة تحاشي هذه القبل ، قبل رجل .. ومع ذلك فقد طغى عليها تأثير مفاجيء لذيذ .

وما لبثا ان وجدا نفسيهما في اقصى الغابة . فتوقفت دهشة لماقطعاه من مسافة . ماذا سيقولون عنهما ؟ قالت : لنعد .

وجذب ذراعه التي كانت تلف خصرها وتهصر قوامها اللدن العود ، اللين الجس ، واستدار فتواجها واحسا بانفاسهما تلهب منهما الوجهين .. وتبادلا نظرة ! نظرة ثابتة ، حادة نفاذة ، مزجت منها الروحين .. ووراحا يبحثان في اعماق اعينهما ، فيما وراء سوادها ، في ذلك العالم الانساني المجهول المختبيء وراء العقل ، محاولين سبر تلك الاعماق واجتلاء تلك الآفاق باصرار وعناد .. ماذا سيكون الواحد منهما بالنسبة للآخر ؟ كيف ستكون هذه الحياة التي كتب لهما ان يقضياها متلازمين لا يفترقان ؟ هذه الحياة التي يطلقون عليها « الزوجيه » ؟ وادرك الواحد والآخر انه لم يعرف رفيقه حق المعرفة حتى الآن .

والقي جوليان بذراعيه فجأة الى كتفي زوجته ورشفها بقبلة حارة عميقة كالم تذق مثلها قبل الآن .. واحست ، وهو مطبق بثغره فوق ثغرها ، ناراً اكولة تلهب شفتيها الشهيتين .. وتغلغلت هذه القبلة في عروقها وتمشت في اعصابها ... فادركتها هزة عصبية وانتفاضة مباغتة من العنف بحيث دفعت جوليان عنها بجماع قواها فالقت به ارضاً .

وارتبكت .. غير انه هب واقفاً .. فتمتمت : — هيا بنا . هيا بنا .

ولم يجبها واكتفى باخذ يديها بيديه واحتفظ بهما مدة ثم قفلا راجعين .

وسارا صامتين حتى بلغا المنزل . ومر بعد الظهر طويلاً مملاً .

وجلسوا الى المائدة عند هبوط الليل . كان العشاء بسيطاً قصيراً على غير ماجرت عليه العادات النورمندية . وقد خيم شيء من الضيق على المدعوين . اما

الـكاهنان والمختار والفلاحون الاربعة فقد كانوا على شيء من الابتهاج الذي يرافق الاعراس عادة غير ان الضحكات لاتلبث ان تموت فوق الشفاه اذ تحرقهـــا احدى نكات المختار السمجة . وحوالي التاسعة قدمت لهم القهوة .واما خارجاً ،تحت اشجار التفاح فقد بدأ الرقص القروي ... كان المشهد يظهر بوضوح من النافذة : عشرات القرويين والقرويات قد انتظموا في حلقة الرقص الريفي الجميل على ايقاع الاناشيد والاهازيج البلدية المثيرة لكوامن الاحساس .. وكان في الحشدحملة المشاعل ينيرون الحلبة للراقصين والراقصات . وصاح المختار وقد استبد به الطرب : - ياللسماء ! كل شيء على خير صورة ! كأننا نشهد احد اعراس « كاناش » !

وتجاوبت ضحكات مكبوتة .. وعارض الاب بيكو العدو الطبيعي لـكل سلطة مدنية :

- تريد ان تقول عرس « قانا » ؟

ولم يرق الاعتراض للمختار فاجاب : - كلا ياسيدي الـكاهن . لقد قلت « كاناش » وانا اعني ما اقول .

ونهضوا وعبروا الردهة ثم انصرفوا الى جماهير الشعب الطروب فاختلطوا بها. ولم يطل الامر بالمدعوين فانصرفوا .

لو دنا احد من البارون والبارونة في تلك الساعة لسمعها يتشاجران بصوت خفيض .. فمدام اديلايد ترفض بشدة وبثورة اعصاب الاستجابة الى مايطلبه زوجها وانتهت بان رفعت صوتها بعض الشيء وقالت :

- كلا ياصديقي . انا لا استطيع . لا اعرف كيف اقوم بمثل هذه المهمة الوعرة المسالك !

وانصرف عنها الاب . ومشى الى جان وخاطبها قائلا : - أتريدين يابنيتي مرافقتي في نزهة قصيرة ؟

واجابت وهي تنهض متأثرة : - سمعاً وطاعة يا ابي .   وخرجا ..

ولفحهما هواء جـــاف هب عليها من ناحية البحر ، هواء بارد يهب في اواخر

الصيف معلناً دنو الخريف وكانت الغيوم المكمدة متلاحقة في اعالي السماء تخفي النجوم تارة وتسفر عنها اخرى ..

وضغط البارون ذراع ابنته فوق صدره وشد على يدها بحنو ورفق عظيمين. وسار بها بضع دقائق .. كان على اضطراب وتردد كبيرين .. وحزم امره قليلاً وقال :

- اسمعي ياجميلتي . سأقوم الآن حيالك بواجب عسير كان الحري بامك القيام به الا اني ، وقد رفضت امك ، لم اجد مناصاً من اتمام المهمة بنفسي . ثمة اسرار يجهد الاهل باخفائها عن الاطفال عموماً والفتيات منهم خصوصاً .. ذلك ان الفتيات تفرض فيهن الطهارة والنقاوة وصفاء النفس حتى الساعة التي يأخذهن فيها الاهل ويلقوهن بين ذراعي الرجل الذي يتوسمون فيه اسعادهن . ان مهمة اماطة اللثام عن اسرار الحياة الزوجية الجميلة تقع على عاتق الرجل . بيد ان كثيرات من الفتيات يثرن في وجه الحقيقة الكبرى اذ يصدمهن شيء قليل من قسوة تختبيء دوماً وراء الاحلام وتتوارى ابداً خلف الاماني العذاب .. ذلك انهن ، يابنيتي ، يكن صفحة ناصعة لم يخدشها مخدش .. وتأتي ساعة يجدن انفسهن فيها وقد دميت منهن الارواح والاجساد فينهدن الى رفض حق طبيعي للرجل اقرته قوانين البشر واقرت به نواميس الطبيعة الحكيمة .. لا استطيع الايضاح ياعزيزتي ولا الاستفاضة بالحديث غير اني لأرى مندوحة عن تذكيرك بانك غدوت ملكاً حلالاً لزوجك جسداً وروحاً يتصرف بكيانك المادي والروحي تصرف المالك المطلق ..

ماذا فهمت من الموضوع ؟ ماذا استخلصت من هذه الاقوال ؟ لقد أحست رعشة تهز كيانها هزاً عنيفاً غدت معها كريشة في مهب ريح صرصر ... وجثمت فوق صدرها كآبة خانقة كأنها حدس ونبوءة عما يخبيء لها مستقبلها المجهول الذي بدأ يتكشف لها منذ هذه اللحظة على جهومة وقبح ..

وعادا الى المنزل وسمرتهما فوق العتبة مفاجأة : كانت السيدة اديلاييد قد انخرطت في البكاء المرير فوق صدر جوليان !..

كان نشيجها صاخباً ضاجاً كأنه يخرج في وقت واحد من انفها وعينيها وفمها اما الشاب فكان مرتبكاً ، برماً ، يسند حماته الضخمة الجثة بذراعيه .. وكانت تقطع زفراتها الفينة بعد الاخرى ، لتوصيه بابنتها المعبودة .. بعزيزتها الوحيدة .. جان ..

وبادرها البارون قائلاً : - دعينا من هذه المشاهد المسرحية !.. ارجوك .. هدئي فيضان هذه العواطف الدافقة ! واخذها بذراعها فأجلسها فوق مقعدها بينما انشغلت هي بمسح الدموع المذرفة فوق وجهها المليء المترهل . ثم التفت الى جان واهاب بها قائلا : - هيا ياصغيرة ! قبلي امك وامضي الى فراشك .

كانت توشك ان تنفجر باكية .. فاسرعت بتقبيل والديها وانطلقت مسرعة لاتلوي على شيء ..

اقام البارون وزوجته مع جوليان على انفراد فالخالة ليزون قد اوت هي الاخرى الى فراشها . كان الثلاثة على شيء من الاضطراب حتى ان احدهم لم ينبث ببنت شفة . كان الرجلان واقفين الواحد ازاء الآخر وهما بلباس السهرة . اما البارونة فكانت جاثمة فوق مقعدها تجتر من حنجرتها بقايا الشهقات والزفرات ..

وطال بهم الصمت حتى غدا ثقيلاً لايحتمل ، واثار البارون موضوع الرحلة التي ينوي العروسان القيام بها بعد ايام قلائل .

واستسلمت جان الى وصيفتها الباكية روزالي ، فخلعت عنها ثيابها ... فكانت اصابعها المضطربة تبحث عبثاً عن العرى والازرار والمشابك .. انها ولا ريب اشد اضطراباً من سيدتها . اما جان فلم تكترث مطلقاً بدموع الفتاة . فقدخيل اليها انها ولجت عالماً غير العالم الذي عهدته ، انها حملت الى ارض غير الارض التي اعتادتها ، انها فارقت كل ماشغفها في ماضيها واحبته بجماع فؤادها ، كان كل شيء يبدو لناظريها ، منقلب الاوضاع .. كل شيء .. حتى افكارها .. وتساءلت مراراً وهي تستغرب مثل هذه الفكر : « اتراها تحب زوجها ؟ »

في الواقع انه بدا لها كأنه غريب لم تعرفه قبلاً .. لم تعرفه الا لماماً .. فقبل ثلاثة اشهر لم تكن تشعر بوجوده لم تكن تعلم انه يعيش ويضطرب في عالم الاحياء ..

وما هي الآن ... زوجته !.. امرأته !.. ملكه !.. لمَ هذا يا الله ؟! لمَ يسقط المرء في احبولة الزواج كما في هوة فاغرة تحت قدميه ؟!

وما فرغت روزالي من الباسها اردية نومها حتى خفت الى فراشها فانزلقت بين طياته فشعرت رعشة باردة تمشت في اوصالها لملامسة الاغطية الباردة ، فضاعفت هذه الرعشة شعورها بالبرد والوحشة . هذا الشعور المقبض الذي عرف طريقه الى روحها منذ ساعتين .. منذ ان انفرد بها ابوها ..

واختفت روزالي وهي لاتنفك تذرف الدموع ، اما جان فاقامت تنتظر .. اقامت تنتظر ، متوفزة الاعصاب ، معتصرة الفؤاد ، هذا المجهول المنتظر الذي اخطرها به ابوها بكلمات مبهمة مقتضبة ، هذا الشيء السحري .. سر الحب الاكبر ..

وسمعت بابها يقرع ثلاثاً .. دون ان يسبق القرع خفق خطيً او وقع اقدام .. وانتفضت مرتاعة ولم تجب .. وعاد القرع يعلو .. ثم ادير المقبض ... وسارعت باخفاء رأسها تحت الاغطية كأن سارقاً ولج غرفتها .. ودنت منها خطىً خفيفة الوقع .. واحست يداً تلمس سريرها ..

وتمشت في اعصابها رعدة عنيفة كرعدة المقرور .. ولم تستطع امساك صرخة قصيرة ندت عنها وازاحت الغطاء عن وجهها فاذا بها وجها لوجه امام جوليان وهو يرنو اليها باسماً بشره .. قالت : ـ آه ! لكم اخفتني !

فسأل لاتفارق ابتسامته الشهوانية شفتيه : ـ اذاً انت لاتنتظرينني ؟

لم تجب فقد اعتراها خجل هائل عقد لسانها اذ وجدت نفسها مضطجعة امام مثل هذا الرجل المهذب ..

كانت ، في زينتها الليلية الكاملة ، براقة الحسن قسيمة الوجه ..

ومكثت صامتة لم يؤاتها ماتقول ، ولم تعرف ماهي فاعلة ، دون ان تجرؤ على رفع عينيها اليه او خفضها الى نفسها .. باللساعة الجدية الفاصلة ! ان سعادتها في حياتها المستقبلة مرتبطة بهذه الساعة اشد ارتباط !

ولعله ادرك ، هو الآخر ، اي خطر تنطوي عليه مثل هذه المعركة ...

وما تتطلب من سيطرة تامة على نفسه واعصابه ، ونعومة محاتلة في تصرفاته وبدواته ، فعليه تجنب خدش خفر عروسه ورقة حاشيتها ومثالية روحها العذراء التي طالما غذتها الاحلام وهدهدتها الاماني .

وبهدوء تناول راحتها فلثم اناملها ثم جثا بالقرب من السرير كأنه امام مذبح وتمتم بصوت خفيض كالهمس :

— اتريدين مبادلتي الحب ؟

اعادت هذه الكلمات اليها هدوء روعها فرفعت اليه رأساً غارقة بالدنتلاوقالت باسمة الثغر :

— لقد احببتك ياصديقي .

وعاد يرفع الى شفتيه انامله الرقيقة .. وتابع بصوت غير نبراته غليان دمائه في عروقه :

— او تريدين تقديم البرهان على ماتقولين ؟..

لم تدرك تمام الادراك مارمى اليه .. الا انها عادت تحس الاضطراب يأخذ بمجامع نفسها . وتذكرت كلمات ابيها فاجابت : ـ اني لك ياصديقي !

وكسا راحتها بقبله الندية ثم استقام قليلا وزحف يدنو من وجهها الذي عادت تخفيه من جديد ، والقى باحدى ذراعيه فوق الاغطية بينما انزلقت ذراعه الاخرى تحت الوسادة فرفعها والرأس التي فوقها ، وبصوت خفيض سأل عروسه : ـ اتريدين اذاً ان تفسحي لي مكاناً صغيراً بالقرب منك ؟

وشعرت بالخوف يغزو فؤادها ، خوف غريزي ، وتمتمت :

— آه . ليس الآن .. ارجوك ..

وكأنه اخذ بقولتها على حين غرة ، فاعتراه شيء من اضطراب ، وعاد يقول بصوت مسترحم الا انه قوي النبرة :

— ماجدوى التأخير ياعزيزتي ونحن بالغين ذلك عاجلا او آجلا ؟

وشاءت الرد عليه الا انها حزمت امرها على الاستلام .. فعادت تردد :

- اني لك ياصديقي ..

وسرعان ما اختفى في غرفة الزينة ، وكانت تسمع بوضوح حفيف ثياب تنفض، ورنين نقود في الجيوب ، واخيراً سقوط الحذائين المتتابع .. ورأته يجتاز الغرفة بغتة وهو في مباذله ويضع ساعته فوق المدفأة واستدارت جان وقد اغمضت عينيها اذ احست به يبلغ السرير . وانزلق فيه الى قربهـــا وغمر عنقها بقبلات نهمة .. وادركهـــا رعب راعب ورغبة عنيفة بالوثوب من السرير والانطلاق من الغرفة والاختفاء بعيداً عن هذا الرجل .. واستكان جوليان بقربها لحظة . فافرخ روعها.. ورأت ان ليس امامها الا الاستدارة اليه ومعانقته ..

وقال لها بصوت حزين وكأن جام صبره قد فرغ :

- انك لاتودين اذاً ان تكوني امرأتي الصغيرة ؟

واجابت متمتة خلال اصابعها : - اولست لك امرأة ؟

فعاد يقول منزعجاً : - كلا ياعزيزتي . انك تهزئين بي !

وحركت نبرة صوته الحزين اعماق نفسها فاستدارت اليه لتستميحه عذراً فاحتواها بذراعيه وراح يغدق على وجهها وعنقها قبله اللاهبة العطشى ...وتركت ذراعيها تسقطان وهي لاتدري ماينبغي لها ان تفعل فقد كانت افكارها من الاختلاط بحيث لم تعد تفقه شيئاً ..

ومزقها بغتة الم حاد .. واعتصرها جوليان بين ذراعيه بقوة فراحت تئن انيناً موجعاً .. ثم امتلكها بعنف شديد ..

ماذا حدث بعد ذلك ؟ انها لاتذكر شيئاً فقد فقدت ذاكرتها تماماً .. وكل ماعلق في خلدها انه كان يمطر شفتيها بوابل من قبل قصيرة حانية اعترافاً منه بجميلها .. ثم كان عليه ان يخاطبها وان تجيبه .. ثم عاود محاولاته فقاومته هذه المرة بعنف عنيد ..

وفكرت آنئذ وقد تغلغل اليأس حتى اعماق نفسها ، فقد تصورت سكرة الحب الكبرى على غير مارأت من عنف ووحشية ! فكرت : هذا اذاً مايسميه :

ان اصبح امرأته ؟! انه هذا ! انه هذا ! واستمرت على مثل هذه الحال من اليأس القاتل بينما استكان هو فوق ظهره وقد يأس من امتلاكها مجدداً ..

كانت مضعضعة الحواس وعيناها الزائغتان تهيمان فوق الطنافس الكاسية الحائط .. الحاملة اساطير الحب ... الحب ! ياله من شيء قاس وحشي ! الا لقد كذبت الاساطير !

واحست جوليان ساكناً هامداً فرنت اليه بهدوء فادركت انه قد استسلم للرقاد ! كان ينام مفتوح الفم نصف انفتاح .. هادىء التقاطيع كل الهدوء !... انه ينام !...

لم تعتقد انه يغرق في سباته بهذه السرعة ! ان في عمله هذا لاهانة لها ! اهانة آلمتها اكثر من وحشيته بامتلاكها ! او يقوى على الرقاد في مثل هذه الليلة ! افلا يحمل ماحدث اي معنى مثير في نظره ؟! آه لشد ما كانت تفضل لو هاجمها ، لو اغتصبها مجدداً ، لو اثخنها بدعابه الكريه حتى تفقد الوعي وتخلو من الشعور .

واستمرت في سكونها ، مستندة الى احد مرفقيها ، منحنية فوقه ، مصغية الى ترديد انفاسه خلال شفتيه ، هذا الترديد الذي كان ينقلب ، حيناً بعد حين ، شخيراً مرتفعاً منفراً !

وانبلج الصبح ، شاحباً أول امره ، ثم استنار ووضح .. وردياً ثم قانياً فساطعاً .. وفتح جوليان عينيه المثقلتي الاجفان ببقية من نعاس .. وتثاءب .. وتمطى بذراعيه .. ورنا الى امرأته وابتسم وسأل : ـ أنمت جيداً ياحبيبتي ؟

ولحظت انه يخاطبها بصيغة المفرد فاجابته دهشة : ـ اجل . وانت ؟

قال : ـ انا ؟ آه ! كأحسن ماينبغي ...

ودنا منها فعانقها ثم راح يحدثها بهدوء مستفيضاً في وصف مشاريع الحياة المستقبلة بلهجة رجل اقتصادي .. ولم تخل جان من دهشة لكثرة ماردد على مسمعها كلمة : اقتصاد توفير .. وكانت تصغي اليه دون ان تفقه لكلامه معنى .. فهي تنظر اليه حقاً الا ان عقلها كان شارداً وراء الوف الافكار التي تعبر به لاتكاد تمسه الا مساً رفيقاً ..

ودقت الساعة الثامنة فقال : ـ هيا . ينبغي لنا ان ننهض . ان بقاءنا طويلاً في السرير مثير للسخرية ولا سيما هذا اليوم بالذات !..

وقفز من السرير . وبعد ان فرغ من هندامه التفت الى زوجته وراح يساعدها بلطف على تسوية شأنها ذلك ان الوضع لايسمح باستدعاء روزالي ..

وكانا على وشك الخروج عندما استوقفها قائلا : ـ اتعلمين اننا نستطيع ، عندما نكون منفردين ، ان نتخاطب بصيغة المفرد . اما تجاه اهلك فينبغي لنا ان نستمر فترة اخرى في استعمال صيغة الجمع.. ولن يصبح ذلك طبيعياً الا بعد عودتنا من شهر العسل .

واعتكفت جان نهارها في غرفتها لاتظهر الا اوقات الوجبات . وزرف النهار كالمعتاد كأن شيئاً لم يكن قد حدث .. وكل ما في الامر ان عدد الرجـــال قد ازداد واحداً في ذلك البيت !..

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

الفصل الخامس

وصلت المركبة التي اقلت العروسين الى مرسيليا بعد اربعة ايام ..

وكانت جان ، بعد مفاجاءات الليلة الاولى ، قد اعتادت قرب جوليان منها ودعابه اللذيذ لها بالرغم من ان نفورها من الاستسلام اليه لم يكن قد خف .

لقد وجدته جميلاً .. فاحبته .. ثم نفرت منه لعنفه في امتلاكها .. الا انه عاد فحسن في عينيها فاستمادت مرحها وسعادتها .

كانت ساعة الوداع مقتضبة لاأثر فيها للحزن والدموع . والوحيدةالتي اظهرت غماً هي البارونة . والقت في راحة فتاتها ، ساعة تحركت المركبة ، كيساً منتفخاً ثقيلاً كانه الرصاص ، وقالت :

- هذه لمصاريفك الخاصة ايتها الزوجة الشابة .

تناولت جان الكيس ورمت به الى حقيبة يدها .. وانطلقت المركبة بملء سرعتها ..

وسأل جوليان زوجته : كم اعطتك امك في هذا الكيس ؟

لم تكن قد فكرت بذلك ابداً . فتناولت الكيس وافرغته فوق ركبتيها فاندهق الذهب في حجرها سيلاً : الفا قطعة . وصفقت بيديها قائلة :

- سأعمل بها اشياء جنونية . واعادتها الى كيسها ..

وبعد مضي ثمانية ايام ، ذات يوم قائظ ، بلغا مرسيليا ..

وغداة اليوم الثاني حملهم مركب يدعى « الملك لويس » الى اجاكسيو وهو بطريقه الى نابولي ماراً بكورسيكا ...

كورسيكا ! الادغال ! الاشقياء ! الجبال ! يالموطن نابليون الساحر !

وخيل الى جان انها تخرج من عالم الواقع ، مستيقظة ، لتوغل في دنيـــا الخيالات والاحلام !

كانا فوق جسر السفينة جنباً الى جنب واعينهما معلقة بالصخور المجدة بالابتعاد فوق شاطيء « بروفانس » .. كان البحر ساكناً لازوردياً كأن نور الشمس قد ارهقه وقد استرخي تحت السماء الممتدة حتى لتختلط زرقتها الشاحبة بزرقة اليم القاتمة عند قوس الافق الجنوبي !..

قالت بعد فترة سهوم : — اتذكر ياجوليان نزهتنا البحرية في مركب الاب لستيك ؟ وكان جوابه قبلة رشقها بها فوق اذنها ..

كانت العجلة البخارية للمركب تصفع الماء الراكد فتعكر سباته العميق .. تاركة وراء المركب ثلماً طويلاً شاحباً من زبد تموج فيه الماء جائشة كأنها الشمبانيا .. يمتد الى مدى البصر مستقيماً وراء السفينة الماخرة العباب .. وظهرت بغتة سمكة ضخمة من نوع الدوفين تتوثب فوق سطح الماء ثم عادت فغطست برأسها واختفت واعترى جان جزع لرؤية الحيوان البحري الهائل فندت عن صدرها صرخة ثم القت بنفسها فوق صدر جوليان .. ثم انفجرت ضاحكة من خرفها الصبياني وبعثت بناظريها يرقبان السمكة التي لم تعد تظهر ... ولم تلبث ان عادت تذرع سطح البحر وبرفقتها اخرى من نوعها .. ثم ثانية فثالثة .. كأنها الحاشية تحف بالامير .. وشرعت السمكات تتراقص وتتواثب حول المركب في ايقاع طروب ..

كانت جان ، وقد افرخ روعها ، تصفق بيديها مستطارة اللب غبطة لدى ظهور السابحـــات الرشيقات وشرع قلبها يتواثب بين حناياها كتواثب تلك الحيوانات البحرية ، في موجة طاغية من حبور صبياني مجنون ..

واختفت السمكات فجأة . وعادة فظهرت في عرض البحر بعيداً .. وادرك جان حزن حقيقي لابتعادها .

وهبط المساء هادئاً ، ساحراً ، مليئاً بألق اخاذ ، ساكناً سكوناً سعيداً وانياً ..

كان الهواء راكداً فلا يحرك الماء الساجي ... وغمر هذا السحر المهيمن على المساء والسماء النفوس فاستغرقها استغراقاً بعيد المدى عميق القرار .. وانزلقت الشمس المائلة الجرم متاهلة ، وئيدة الخطو ، صوب افريقيا المحتجبة وراء سجف الافق .. افريقيا ! يا للأرض اللاهبة ! كأن وهج سعيرها يصل اليهم .. الى عرض المتوسط الازرق .. وهبت نسمة رطيبة داعبت الوجوه عندما اختفت ملكة النهار وراء ستائر تخدعها المجهول !..

لم تجد جان وجوليان رغبة في الايواء الى غرفتهما ذات الرائحة الملحة الخانقة بل تمددا جنبا الى جنب فوق الجسر والتفا بالاغطية الصوفية . وما اسرع ما استسلم جوليان للسبات . اما جان فاستمرت مفتوحة الاجفان تمتع روحها بسحر الليل الزاحف فوق صدر البحر منشداً ..

وعلقت انظارها الحالمة بمواكب النجوم التي شرعت تزين صدر هذه العروس من الزنج .. السماء ! وتركت لدوي العجلات هدهدة مسامعها بصوتها الرتيب المبهم .. بالصفاء هذه الليلة وبالسحر سماء الجنوب !

لم تنم جان ليلتها تلك الا لماماً . واستيقظت على جلبة وغناء . انهم بحارة المركب يبدأون يومهم بتنظيف المركب . وهزت زوجها الغارق في نومه العميق . ونهضا .

توقفت جان قليلا لتعب من الضباب الملح المجابب الكون ملء رئتيها .. كان الماء يحدق بالمركب من جميع جهاته .. ومع ذلك فقد بدا أمامهم فجأة شيء رمادي مبهم العالم ، في الفجر الوليد ..

ما أشبهه باكوام من غيوم متراكمة دقيقة رؤوسها ، ممزقة اوصالها ، منحطة فوق زبد الامواج ..

واخذ المنظر يتمائل للوضوح شيئاً فشيئاً .. واتخذت القمم اشكالاً في السماء المنورة فبدت سلسلة ضخمة من جبال مدببة القمم غريبة الاشكال : انها كورسيكا. حسناء وراء خمار رقيق شفاف !

ولم تلبث الشمس ان بزغت خلف ظهورهم فأبانت ما ابهم من خطوط الجبال وتعرجاتها بما القت عليها من ظلال قاتمة ضاربة الى الزرقة .. ولم يلبث النور ان غمر تلك القمم بفيضه الذهبي بينما ظلت الاقسام المنخفضة من الجزيرة ملفوفة بنقاب من ضباب رقيق خلاب ..

وخاطب ربان السفينة جان قائلا : ـ انشمين هذه الرائحة الفواحة ؟

وكانت في الواقع تشم اريج نبات بري فريد معطار ..

وعاد الربان يقول : ـ انها كورسيكا المزدهرة دائماً هكذا ياسيدتي .. انها حسناء دائمة التبرج فواحة العطور . واني لأميز هذا الارج ولو غاب عن انفي عشرين سنة انه « هو (١) » هنالك .. في سانت هيلين ، لايمل التحدث عن عطر بلاده الاريج .. كما يخيل الي .. اوَ تعلمين اني امت بصلة قرابة اليه ؟!

ورفع الربان قبعته محيياً كورسيكا .. ثم حيى ، باحترام وتأثر عظيمين ، عبر الاقيانوس ، الامبراطور الكبير . ابن عائلته .. ذلك النسر المهيض الجناح ، المكبل بالاغلال وراء الامواج ..

وبلغ التأثر من جان مبلغاً اوشكت معه ان تذرف دموعاً سخينة ..

وبدأت الجبال تتبين معالمها شيئاً فشيئاً .. واستطاعوا ، بعونه الربان ، تمييز جنباتها ... وبرزت المدينة فجأة ، ناصعة البياض ، في اقصى الخليج ، جاثمة على رمال الشاطىء المائج تحت اقدام جبال شامخة شماء ...

وكان في الحوض بعض سفن ايطالية راسية . وخفت الى سفينتهم اربعة او خمسة زوارق لنقل الركاب .

وسأل جوليان زوجته وهو منهمك في اعداد امتعتهما : ـ الا ترين ان عشرين قرشاً تكفي كمكافأة للخدم ؟

انه منذ ثمانية ايام لاينفك يحرجها بمثل هذه الاسئلة . واجابته وقد فرغ صبرها :

نابوليون بونابرت

- عندما لا تكون واثقاً من كفاية ما تدفع ، ادفع مبلغا اكبر .

كان دون انقطاع يشتبك مع خدم الفنادق والحوذيين والبائعين من كل نوع ، في جدال ونقاش فاذا ظفر ، نتيجة لمساومته العنيدة ، بتنزيل جزء من المبلغ ، قال لجان وهو يفرك راحتيه اغتباطاً :

لا أحب ان أسرق !

كانت ترتعش عندما يقدم لها حساب ما . فهي واثقة من ان نقاشاً ومساومة سينشبان على كل نبذة ، فكانت تكاد تذوب خجلا ويتضرج خداها تحت نظرات الاحتقار يرشقها بها الخدم الذين يحدجون زوجها بأعينهم شذراً وقد أطبقوا الأكف على هباته الهزيلة ..

ولم يسلم صاحب الزورق الذي أقلها الى البر من مثل هذه المساومة .

ووقعت انظارهما ، أول ما وقعت ، على نخيلة من نخيل الشاطىء ...

ونزلا في فندق وطلبا الغداء فوراً ، والفندق واقع في طرف ساحة فسيحة دانية من الشاطىء . وما فرغوا من تناول الفواكه حتى نهضت جان وبودها لو تطوف في ارجاء المدينة غير ان جوليان اخذها بين ذراعيه وهمس في اذنها برقة :

- الا ننام يا قطتي ؟

وفغرت فاها دهشة وقالت : : - ننام ؟ ولكنني لست تعبة مطلقاً ! ..

ولشبث بها وتابع يقول : - ان بي اليك لرغبة . أو تفهمين ؟ منذ يومين لم ..!!

وتلعثمت وقد غمرت الدماء وجنتيها :

- آه ! الآن ؟! ولكن ماذا يقولون عنا ؟ ماذا يظنون بنا ؟ كيف ستطلب اعداد الغرفة في رابعة النهار ؟ آه ! جوليان ! ارجوك !

بيد انه لم يصبر عليها : - لا اهتم بما سيتقولون به . سترين كم انا متضايق !

وقرع الجرس .

ولاذت بالصمت وعيناها الى الارض ، كان التمرد في روحها وفي جسدها لا يفتأ يتحرك امام رغبات هذا الزوج النهم ، ولم تكن لتلبيه الا بقرف ، متنازلة عن كل

شيء ، مهانة في انوثتها فهي لاترى في هذا العمل ، كما يمارسه هو ، الا معنى حيوانياً منحطاً ... نوعاً من القذارة ..

كانت حواس جان ما تزال نائمة ومع ذلك فقد عاملها زوجها كما لو كانت تقاسمه رغبته .

وحضر الخادم فطلب اليه جوليان ان يقودهما الى غرفتها ، الا ان الخادم الكورسيكي الغذير الشعر ، الكث اللحية ، لم يفهم مرمى جوليان فاجاب ان الغرفة لن تكون معدة قبل الليل .

وأوضح له جوليان قائلا : - كلا نريدها الان ، فقد أورثتنا الرحلة تعباً ونود ان نستريح .

وطافت بشفتي الكورسيكي ابتسامة بينما ودت جان لو انشقت الارض وابتلعتها ..

وعندما هبطا بعد ساعة كانت جان تتحاشى النظر الى من صادفتهم واثقة من انهم سيتغامزون ويتهامسون وراء ظهرها ، ووجدت في قلبها على جوليان لأنه لم يدرك واقع الامر ، لم يقدر ما فيها من خفر وحساسية وغريزة مهذبة ، وشعرت كأن حجاباً انسدل بينهما ، كأن حاجزاً قد رفع بين قلبيهما ؛ لقد ادركت هذه الساعة انهما شخصان لم يستطع احدهما النفاذ الى مكنونات صدر الآخر ولم يتمكن من سبر اغوار روحه ، انهما يسيران اغلب الاحيان جنباً الى جنب ، متخاصرين الا انهما غير متمازجين .. وان شخصية كل منهما ستظل ، طوال الحياة ، مفردة لا رفيق لها .

أقاما ثلاثة ايام في هذه المدينة المختبئة في زاوية ذلك الخليج ، وقد أسدلت الجبال من حولها ستاراً يحول دون هبوب النسائم الملطفة لسعير جوها الخانق ، ومن ثم رسما الخطة لمتابعة رحلتها ، وكيلا يضطرا الى التلكؤ امام ما يعترضهما من عقبات في الطريق قررا استئجار جوادين من جياد كورسيكا ذات العيون الغضبى ، الضامرة من الشدة والقوة .. واتخذا سبيلهما ذات صباح عند بزوغ النهار يرافقهما دليل يركب بغلاً يحمل لهما زادهما فالفنادق نادرة الوجود في هذه البلاد البدائية .

وقطعا ارضاً قاحلة في معظم بقعها ، وكثيراً والتقيا بجبلي راكباً جواداً او

مقتمداً ظهر اتانه يحمل بندقيته المحشوة وقـد علاها الصدا الا انها ، في كتفه ، سلاح رهيب .

كان الهواء كثيفاً بأريج النباتات البرية الفواحة ، وبدأ الطريق يتسلق بهما جبالا وعرة المسالك والدليل يشير الى القمم ويسميها لهما ، ويرفع العروسان انظارهما دون ان يتوصلا الى تمييز شيء مما اشار اليه الدليل ، وبعد لأي تقع منهما الانظار على كوم من صخور جرداء معلقة فوق احد المنحنيات ، انها احدى تلك القرى المستقرة في الاعالي كأنها عش طائر ضائع في مفازات الجبل الوعر الشعاب .

واثارت هذه الرحلة الشاقة الطويلة اعصاب جان ، قالت : لنركض بجوادينا قليلا .

واندفعت بمطيتها دون ان تنتظر جواب زوجها ، بيد انها لم تلبث ان جذبت العنان وتوقفت ذلك انها لم تسمع وقع سنابك جواد زوجها فاستدارت تستطلع جلية امره .. وانفجرت ضاحكة بجنون اذ لمحته يحاول عبثاً الركض بجواده وقد شحب وجهه وتشبث بعرف جواده المتواثب بشكل غريب . ومما ضاعف الصورة الهزلية التي بدا عليها ، جمال طلعته واستقامة فرعه كالفرسان ..

ولما ادركها سار الهيدبي في طريق مسطحة تعبر بين غابتين متراميتي الاطراف تمتدان فوق الشاطيء فتكسوانه كأنهما المعطف السابغ ؛ انها أدغال كورسيكا الشهيرة حيث تنبت جميع ضروب الشجر مشكلة فوق سفوح الجبال معاصياً لا يمكن ولوجها .

وأدركهما السغب فقادهما الدليل الى احد تلك الينابيع الكثيرة في البلاد الجبلية كان النبع خيطاً دقيقاً من ماء مثلج يخرج من قلب الصخر ويسيل من ميزاب هو ورقة كستناء عريضة ركزت فيه بحيث يتاح للشارب تناول الماء بفمه .

وشعرت جان بسعادة عظمى لم تتوصل معها الا بجهد كبير الى كتمان صيحات السرور .

وعاودوا في الاصيل ، سيرهما فاجتازوا قرية « كارجيز » التي بناها جماعة من اللاجئين اليونانيين المبعدين عن وطنهم .

كان العابر بنبع القرية يشاهد عصبة من فتيات حسناوات ممشوقات القوام أنيقات الملبس ذوات فتنة خاصة ، والقى عليهن جوليان تحية المساء فأجبنه بنغم موسيقي بلغة وطنهن الأم .

وبلغا قرية « بياانا » وكان عليهما ان يستضيفا احد السكان كفعل المرء في العصور القديمة أو في البلاد المجهولة .

وهز السرور جان اذ رأت الباب الذي طرقاه يفتح امامهما ، انها رحلة بكل ما تحمل الكلمة من معان ، كان البيت لعائلة صغيرة استقبلتهما كما يستقبل رجل الدين مبعوثاً الهيا ! ووفر لهما مضيفوهما فراشاً من قش الذرة في احدى زوايا بيتهم العتيق المشاد بالخشب النخر .

ولما اصبحا تابعا رحلتهما فعبرا بغابات خلابة الجمال ، رائعة الجلباب ، تفعم جوها موسيقى ساحرة تنبعث عن ألوف الاطيار المجهولة .. فكأنها بما هي عليه من سحر أخاذ ، مسرح للاشباح أبدعه خيال احد الآلهة الافاقين ...

ولزمت جان الصمت المطبق العميق .. ثم تناولت يد جوليان وجذبته اليها ! انها تبتغي العب من معين الحب امام هذه الطبيعة المتبرجة المزدانة باروع ما ابدع الخالق من فاتن خلاب !

وتابعا سيرهما فاشرفا بعد ساعة على خليج جديد شاطئاه من صخور ظرانية حمراء تلتمع امام زرقة الماء اللازوردي .

وتمتمت جان : ـ اوه ! جوليان !

ولم تزد وقد اخذت بمشاهد الطبيعة الفاتنة فكأن يداً تضغط عنقها فلا تقوى على الكلام ..

وتدحرجت دمعتان فوق خديها . فنظر اليها جوليان دهشاً وهتف :

ـ ماذا بك ياقطتي الجميلة ؟!

واسرعت تمسح خديها وتبسم وتقول بصوت مرتجف النبرات :

– ليس بي شيء .. لقد اثارت الطبيعة كوامن اشواقي .. لست أدري .. في الواقع .. مابي لشد ما انا سريعة التأثر بانفه الاشياء ..

لم يفهم لتأثرها معنى ، هذا التأثر السريع الذي يدهم قلوب هذه المخلوقات الحساسة فيحركها بفتنة ... او يروعها بقسوته . لقد وجد في دموعها سخفاً . وقال وقد انصرف بكليته الى الاحتراز من وعورة الطريق :

– تحسنين صنعاً لو راقبت جوادك .

وتابعا سيرهما في طريق تكاد تكون غير مطروقة قبلاً بغية بلوغ الخليج ثم انعطفا يميناً فاجتازا وادي « اوتا » المظلم .

وبدت الطريق مخوفة محفوفة بالاخطار ، اقترح جوليان ان يهبطاها ماشيين .

ولم تكن جان ترجو خيراً من ذلك . فلشد ماسرها ان تمشي ، ان تنفرد برجلها بعد ان بلغت اعصابها من التوتر غايته ..

وتقدمهما الدليل ببغلته والجوادين وسارا هما بخطى وئيدة .

كان الجبل المتهدم القمة ينفتح امامهما فيمر به الشريك محاطاً بجدارين هائلين ينحدر فوقهما سيل عارم .. وقد بدت لهما البقعة الزرقاء فوق رأسيهما مدهشة عجيبة .

وانتفضت جان اذ صكت مسمعها حركة فجائية بالقرب منها . انها صادرة عن طائر اقلقه وقع الخطى فانطلق من احدى ثغرات الجبل . انه نسر واسع الجناحين حتى لكأنهما موشكان على ضرب جانبي المفازة .. ولم يلبث ان حلق عالياً في الفضاء الازرق وغاب عن ابصارهما .

كانت جان تسير في الطليعة خفيفة رشيقة تتطاير الحصى تحت قدميها .. وكان جوليان يقتفي خطواتها لاهثاً وعيناه الى الارض خشية التعثر .

وغمرتهما الشمس فجأة اثر بروزهما من فرجة النفق . واحسا عطشاً . ووقعت منهما الاعين على نبع قريب فاسرعا اليه . وركعت جان فوق ركبتيها وراحت تعب من مائه العذب النمير . وفعل جوليان فعلها .

ودنا جوليان منها ، اذ كانت منصرفة الى ورود الماء ، والف بذراعه خصرها

اللدن .. وحاول تقبيلها فابدت مقاومة فكانت شفاهها تلتقي وتتنافر .. ثم تعمد الى ميزاب النبع فتعضه محاولة التشبث به لحماية شفتيها من فم جوليان النهم فكان خيط الماء الدقيق يتجاذبه الفمان فيتكسر فوق الشفاه ثم يعود الى تماسكه متناثر القطرات فوق الوجهين والعنقين والذراعين والثياب ، وعلقت بشعرها قطرات منه كأنها اللؤلؤ .. وجرعت مع الماء السلسبيل قبلات رجلها فوجدتها ، للمرة الاولى ، حلوة المذاق ..

وشعرت جان بغتة بنداء الحب ! وافهمت جوليان ، وثغرها الى ثغره ، انها تريد منه ان ينقع غليلها ..

والقت برأسها الى الوراء متطاولة بعنقها الاتلع تاركة شعرها الساحر ينسدل فوق منكبيها في استرخاء اخاذ واستسلام مثير .. وباعدت بين ذراعيها .. وخف اليها جوليان واحتواها بين ذراعيه واحتملها الى رابية معشوشبة .. وعب من جمالها ماروى غليلها معاً ..

واسندت جان رأسها الى صدره بدل ناعم وفؤادها مسرع في وجيبه ، ونهداها يرفان وجفناها متكسران كأنما قد بللا ماء .. وتمتمت بصوت خفيض:

— جوليان .. اني احبك .

وعاد يجذبها الى صدره فاستلقت وقد اخفت براحتيها وجهها المضرج خفراً .. واحتواها مجدداً بذراعيه بشوق لاهب .. كانت لاهثة الانفاس مقيمة بالانتظار ..

وطال بها المسير حتى بلغا القمة فقد كانت جان ماتزال مرتجفة الاوصال راعشة الاطراف ولم يبلغا « ايفيزا » الا مع المساء الهابط حيث استضافهما قريب لدليلهما يدعى « باولي بلا بديتي » فاذهما مضيفهما الى غرفة خصصها لهما ، غرفة حقيرة مشادة بحجر عار الا انها فريدة بالنسبة لهذه البـــلاد حيث يقيمون في منجاة من الاناقة والرفاهية . وشرع المضيف يحدثهما بعاميته الكورسيكية ، هذا المزيج من الفرنسية والايطالية وقد فهما من حديثه انه يرحب بهما وينزلهما على الرحب والسعة . وظهرت فجأة لهما سيدة سمراء ذات عينين سوداوين كبيرتين وبشرة حارة وقامة قصيرة

وضحكتها لاتفارق ثغرها تاركة لاسنانها سبيلا الى الظهور وبشكل دائم ودنت من جان فقبلتها وشدت يد جوليان ثم قالت : - عمي مساءً ياسيدتي. عم مساءً ياسيدي كيف انتما ؟

وتناولت القبعات والمعاطف والشالات وامرت زوجها ان يتقدم الضيفين فيريهما القرية وصدع الرجل بالامر وسار بهما لاينفك يحدثهما بلهجته العامية الغريبة . وتوقف فجأة وقال : في هذا المكان قتل « ماتيولوري » ابن عمي جان. كنت بالقرب منه . وعندما ظهر ماتيو على عشر خطوات منا صاح بجان : - جان . لاتذهب الى « البتراكس » او اقتلك . اقول لك !

وامسكت بذراع جان وقلت : - لاتذهب ياجان . انه خليق بتنفيذ وعيده!

واذا سألتما عن سبب ذلك ففتاة علق بها الشابان .

ولم يقبل جان التهديد فشرع يصرخ : -سأذهب ياماتيو . انك لن تستطيع منعي

وعندئذ خفض ماتيو بندقيته ، قبل ان يتاح لي سبقه الى ذلك ، واطلق النار وسقط جان واختفى ماتيو بين أشجار الكستناء .. هناك .

وحدق العروسان بشاهد هذه الجريمة النكراء بمزيد من الدهشة .

وبعد لحظة صمت سألته جان : - والقاتل ؟

وسعل المضيف وقال : - لقد لجأ الى الجبال . ولم يستطع اخي قتله الا في العام المنصرم . لاشك في انكما قد سمعتما باخي : الشقي فيليب بلابريني .

وارتعشت جان وقالت : اخوك ... شقي ؟

وطافت اماضة من كبرياء فوق جبين الكورسيكي الرزين وعاد يقول :

- اجل ياسيدتي . انه شهير هذا الشقي . لقد تمكن من صرع ستة من رجال الامن . وقد قضى هو ونقولا مورالي بعد ان حوصرا ستة ايام في (بنولو) واستمرا في كفاحهما حتى اوشكا ان يقضيا جوعاً . ثم اضاف بنبرة طبيعية :

- ان طبيعة البلاد تتطلب مثل هذه الاعمال .

قال هذا بنفس اللهجة التي يقول فيها : - ان هواء الوادي طري منعش كاتريان!

ثم عادا لتناول العشاء فاستقبلتهما الكورسيكية الصغيرة كما لو كانت معرفتها بهما تعود الى عشرين سنة خلت . بيد ان قلقاً عاد يعكر صفو هناءة جان : اتراها ستشعر في مقبلات الايام بتلك الرعشة السحرية التي هزتهـا هزاً عنيفاً ، وهي بين ذراعي جوليان ، فوق المنحنى المعشوشب قرب النبع ؟!

وارتجفت اذ انفردت به في الغرفة ووجدت ان قبلاته لم تعد تحرك فيها عصباً ما .. الا انها سرعان ما استعادت رباطة جأشها .. وكانت تلك ليلة غرامها الاولى ..

وودت ، في الصباح ، عندما ازمعا السفر ، لو لم تفارق هذا المنزل المتواضع الذي عرفت فيه معني جديداً للحب لاعهد لها به من قبل . وقبل ان تتحرك بهما المطايا دعت مضيفتها وسألتها عما تود ان ترسل اليها من باريس لدى مرورها فيها بطريق العودة فرفضت المرأة الكورسيكية عرض جان بادئ بدء الا انها نزلت اخيراً عند الحاحها .. وكم كانت دهشة جان عظيمة اذ طلبت اليها الكورسيكية الشابة اهداءها مسدساً صغيراً تقتل به اخا زوجها .. واوضحت لجان قائلة :

— ان زوجها لايعرف الغيرة . لأنه مريض وبارد الطباع ، اما اخوه فشديد الغيرة نيابة عنه .. وبالرغم من انها امرأة لاغبار على سلوكها فان اخ زوجها يلاحقها بمراقبة صارمة وقد توصل الى طعنها بخنجره في ذراعها فاوشك ان يقطعها . ولذا فقد قررت الانتقام منه ، ووعدتهـا جان بارسال السلاح عندما تطأ قدماها أرض باريس .

وتابعا رحلتهما .. ولم تكن البقية من هذه الرحلة الا حلماً مذهب الحواشي ، واستكانة محببة لذيذة ، ونشوة تتمشى كالحيا في الاوصال .. وفقدت جان لاستغراقها في احلامها ، كل اهتمام بما تصادف من مناظر أو اشخاص أو اشياء .. كانت عيناها معلقتين ابداً بجوليان .

وبدأت كؤوس الهوى المترعة تتبادلها شفاههما .. فكأن قلب جان قد استفاق بعد ان طال به الهجوع .. فاذا تخاطبا فبتلك الاسماء المصغرة المحببة، بتلك الكلمات السخيفة اللذيذة .

وكان عليه ، عندما بلغا (باستيا) ، ان يحاسب الدليل ليصرفه ، فراح يبحث في جيوبه فلا يجد ماهو بحاجة اليه من نقود ، فتوجه الى جان قائلا :

– بما انك ياعزيزتي ليست بك حاجة الى الالفي فرنك التي اعطتك اياها امك ، فهاتها فهي في محفظتي اكثر اماناً فضلا عن انها توفر عليّ البحث عن نقود صغيرة كلما كنت بحاجة الى ذلك .

وناولته المبلغ لم تنبث ببنت شفة .

وبلغا « ليفورن » وزارا فلورنسا وجنوا وكل الشاطيء .

وذات صباح ذي ريح شمالية بلغا مرسيليا . وكان قد مضى شهران على مغادرتهما قصر (بوبل) فنحن الآن في منتصف تشرين الاول .

وشعرت جان بانقباض عندما لفحتها الريح الشمالية الباردة الاتية من بعيد ، من نورمنديا ، كما ان جوليان بدا ، منذ مدة ، متغيراً ، تعباً ،بارداً في علاقاته بها . . وادركها مايشبه الخوف دون مبرر منطقي . . لقد خيل اليها انها انتهت من جولة سعادتها . .

وواصلا سيرهما اخيراً . .

وكان عليهما ان يبتاعا من باريس كل مايحتاجانه من حطام ضروري لسكناهما نهائياً في القصر . وسر جان ان يتاح لها شراء كل ماترغب في اقتنائه بفضل هدية امها . . وكان اول ماخطر لها ان تبر بوعدها لمضيفتها الكورسيكية في (إفيزا) . وخاطبت جوليان قائلة :

– تكرم ياعزيزي بارجاع النقود التي وهبتني اياها امي اذ ان بودي ابتياع بعض الحاجيات .

والتفت اليها بوجه علاه الانزعاج وسألها : ـ الى كم تحتاجين ؟

وجمدت امام لهجته وتمتمت :ـ ولكن . . اعني . . كما تشاء . .

فتابع : ـ سأعطيك مائة فرنك شريطة الا تبذريها . .

ولم تحر جوابا لما اعتراها من دهشة واستغراب .

واخــيراً توصلت الى ان تقول متلعثمة : ـ ولكن .. لقد اعطيتك نقودي .. كي ..

ولم يتركها تكمل : ـ صحيح تماماً .. انكن بحوزتك او بحوزتي .. شيء واحد ! فهل ثمة فرق بين جيبك وجيبي .. وانا لا امنعك منها بدليل اعطائي إياك مائة فرنك ..

وتناولت القطع الذهبية الخمس دون ان تضيف كلمة واحدة .. الا انهـا لم تجرؤ فيما بعد على طلب شيء . واكتفت بشراء المسدس وارسلته الى مضيفتها الكورسيكية واتخذا طريقهما بعد ثمانية ايام متجهين نحو « بوبل » .

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

الفصل السادس

كانت العائلة برمتها ، والخدم جميعاً ، باستقبال العروسين ، وقوفاً امام السور الابيض ذي العوارض القرميدية الحمراء . وتوقفت عربة البريد .. وكان عناق طويل .. ودموع غدار فاضت بها في مآقي الام .. اما الأب فكان متجلداً يزرع الارض بخطاه العصبية .

وتحدثت جان ملياً . فجاءت على ذكر كل شيء خلال نصف ساعة ماخلا بعض التفاصيل الصغيرة التي تغرب عن الذاكرة لامحالة في مثل موجات السرور العاجلة هذه .

وانصرفت الزوجة الشابة الى افراغ حقائبها فخفت لمساعدتها الوصيفة روزالي بالغة التأثر .. وبعد فراغها ذهبت روزالي الى شأنها بينما انحطت جان فوق أحد المقاعد وقد احست تعباً يهد جسمها .

وتساءلت عما تعمله . انها تبتغي مايشغل روحها ويدها .. ولكن عبثاً بحثت ، ولم تشعر رغبة في النزول الى الردهة حيث تهوم امها فوق مقعدها المريح . وفكرت بالقيام بنزهة الا ان الطبيعة كانت من الكآبة بحيث اثارت نظرة واحدة عبر النافذة كوامن اشجان قلب جان الفتي .

وادركت الآن ان ليس لها بعد اليوم ماتعمل . صحيح ان صباها المسجون بين جدران الدير قد امتلأ بجهودها لاعداد مستقبلها .. فكانت احلامها مجنحة خلابة .. وقد ملأ تماوج هذه الاحلام ماضيها بالذكريات الغوالي والاماني العذاب .. الا ان احلامها لم تلبث دفعة واحدة ان تحققت فور خروجها من اسر تلك الجدر القوائم . لقد التقت برجلها فاحبته وأملته وتزوجته .. لقد تم كل ذلك بمثل ايماضة

لم تترك لها مجالاً للتفكير او وقتاً للتلذذ بطعم آمالها المحققة ..

وهاهو ، الواقع المذب ، الذي عرفته في ايامها الاولى ، قد غدا عادة يومية ملازمة فقدت معه كل تلك الآمال العريضة المترامية الابعاد ..

لم يعد لها ماتفعله اليوم ولا غداً ولا بعد غد .. وعزمت على الخروج بعد ان تأملت فترة قصيرة السماء حيث تطوف سحب قاتمة جاهمة ..

اهذا هو الريف باعشابه واشجاره ؟ اهذه هي البرية التي عرفتها في شهر ايار المنصرم ؟ ماذا دهى الاوراق الرخصة المغمورة باشعة الشمس البازغة في الاصباح الندية ؟ وأين ذلك النفح الشمري الذي كان كامناً في المروج الخضر الملتمعة فيهـــا أزهار كأنها نجوم السماء ؟ أين الشقيق القاني كالنجيع ؟ الاقحوان الأنور ؟ أين تلك الفراشات الصفر المعلقة في أطراف خيوط سحرية لاترى ؟ أين تلك الارتعاشات التي تبعثها في الاوصال هبات النسيم المشحونة بنشوة الحياة وسحر الوجود ؟ وأين .. أين ذلك الارج الفواح المتغلغل حتى أعمق أعماق الصدور ؟.. انها لاتجد لكل ذلك أثراً .. لقد مضى ذلك العهد الاخضر المفناج !..

كانت المماشي مكسوة ببساط أصفر من أوراق الخريف الذاوية وقد بللها المطر .. مطر تشرين والريح الصرصر ترعش الحور فترتقص هياكله العارية المنتصبة كأنها الاعمدة الفقرية العملاقة ! وكانت بقايا من أوراق الربيع معلقة في أطراف الأغصان الراعشة وقد جارت عليها يد الخريف فامتصت دماءها الخضراء واستنزفت حيويتها البليلة .. فكانت لاتنفك تتطاير في الفضاء الرمادي وكأنها ، لصفرتها ، نقود ذهبية كبيرة .. تدور وتدور ثم تتهاوى مترافصة كارتقاص الطائر الذبيح .. اما الجدر الخضر التي كانت بهيجة المنظر فقد تعفرت وقبحت في كل عين ... واذا هبت الريح اصطكت الاغصان العارية كاسنان المقرور .. وتهاوت الاوراق في خشيش كحشرجة المغالب سكرات النزع .. وثمة طيور صغيرة مذعورة تقفز من غصن عار الى آخر مطلقة صرخات قصيرة باحثة عن ملجأ لها يحميها غائلة الخريف الداهم!

وسارت جان بخطى وئيدة عبر المشى الذي اعتادت الأم التنزه فيه ..

واحست شيئاً يجثم فوق صدرها كأنه حدس عن حياة سأم وملل بدأتها .

وجلست فوق الرابية التي حدثها فوقها جوليان المرة الاولى حديث الحب .. ومكثت هكذا مهمومة مع أحلامها لاتفكر بشيء معين وقد تغلغل الانقباض حتى اعماق سويدائها .. ودهمتها فجأة رغبة في الاستسلام للنوم تخلصاً من تعاسة يومها.

ولمحت بغتة طيراً بحرياً حملته الزوبعة فذكرها منظره بالنسر الذي رأته هناك في كورسيكا يعبر فضاء وادي (اوتا) المظلم . وانتفضت في أعماقها كتلك الانتفاضات التي تدهمنا اذ نستعيد ذكريات عذاباً قد انقضت .

وعادت الى مخيلتها مشاهد الجزيرة الخلابة وعبث في أنفها نشرها البري المعطار وغمرها فيض من أشعة شمسها اللاهبة التي تنضج البرتقال والليمون ، وتراءت لهـــا جبالها الموردة القمم وخلجانها الصافية الزرقة وانهرها الثرة ومساقط شلالاتها العارمة ..

واستفاقت من هذه الرؤى لتعود الى واقعها المقبض .. وسرعان ماحثت خطاها الى غرفتها وهي تكبت بجهد دموعاً أوشكت تنسال من مآقيها المقرحة ..

ولم تنتبه اليها امها الغارقة في تهويمها أمام وهج المدفأة وقد اعتادت قضاء مثل هذه الاوقات الكئيبة .

كان البارون وصهره يتنزهان وقد غرقا في حديث مشاغلها اليومية .

وهبط الليل فغمر الردهة الواسعة بظلاله الكثيفة المقبضة .. لايخترقها سوى ومضات نار الموقد المتراقصة الالسن .

كانت بقية من ضياء لاتزال تنير المناظر الرمادية اللون في الخـــارج فبدت المرئيات تحتها كأنها لطخت بالاوحال . ودخل البارون وجوليان . وقرع هذا الاخير الجرس ونادى :

— عجلوا . عجلوا بالنور . ما أشد كآبة هذه الحجرة هكذا !

وجلس أمام المدفأة وراح يفرك راحتيه بارتياح . وقرب من النار حذائيه المبتلين فتصاعد منهما بخـــار خفيف وأخذت قطع الوحل بالتساقط عنهما بعد ان جففها وهج النار .

قال البارون : ـ اغلب ظني ان السماء ستثلج فقد بدأت تتكشف في الشمال.. والبدر التام في مثل هذه الليالي القرة . انها أدلة على قرب تساقط الثلج .

واستدار الى ابنته وقال : حسناً ايتها الصغيرة . امسرورة انت بعودتك الى بلادك ومنزلك بالقرب من أبويك الشيخين ؟

كان هذا السؤال العابر كافياً لاثارة أشجان جان فما كان منها الا ان القت بنفسها بين ذراعي ابيها وقد فاضت بالدمع عيناها وراحت تعانقه بعصبية ..

انها رغم كل جهد بذلته ، لم تتوصل الى التخلص من أحزانها العميقة وانقباض صدرها البعيد الغور فكرت بما ينتظرها من مباهج وعدت قلبها بها اذ تعود الى كنف البيت الابوي .. ولشد ما ادهشها برودها نحوهما وهذا الشلل الذي أصاب عواطفها كما يحدث للمرء اذا مافكر كثيراً باغراء شط بهم المزار وطال بهم البعاد حتى فقد اعتياده على رؤيتهم اليومية فاذا ماعاد اليهم أدركته أول أمره خيبة أمل لايلبث ان يتخلص منها عندما يستعيد الفته لهم .

واستمر العشاء طويلاً . وكان الصمت مخيماً فكأن جوليان قد تناسى زوجته . واسلمت جان نفسها لما تبعثه نار الموقد من دفء لذيذ . وكانت أمها مستغرقة كعادتها في نومها الهنيء بالقرب منها . ودنا البارون من الموقد وعرض راحتيه للوهج القوي وقال :

ـ انها نار طيبة هذه الليلة ! الجو مثلج يا أولادي .. مثلج .

ثم القى بكفه فوق كاهل جان وقال مشيراً الى النار :

ـ أترين أيتها الفتاة . ان أجمل ما في الحياة موقد .. موقد تنتظم العائلة حوله .. لاشيء يفوقه جمالاً ... ولكن .. اما آن لكما ان تأويا الى غرفتكما فانتما ولا ريب متعبان ياولدي .

وساءلت المرأة الشابة نفسها وقد خلت في غرفتها : « كيف يمكن ان تختلف اوبتان الى مكان واحد محبوب ؟ ماهو مبعث هذا الشعور المقبض ؟ هذه التعاسة ؟ هذا الهم الذي يجثم فوق صدرها ثقيلاً حتى ليبدو كل شيء مثيراً للأعصاب ؟

وللمرة الأولى بعد زواجها اوت وحيدة إلى سريرها فقد اتخذ جوليان لنفسه غرفة اخرى مدعياً التعب ، فضلاً عن انه كان من المقرر مسبقاً ان يكون لكل منها غرفته الخاصة .

وجفاهـــا النوم طويلاً ... ولشد ما استوحشت اذ لم تشعر بجسد يلتصق بجسدها حقاً لقد فقدت عادة النوم منفردة .. وتعاونت الريح المعولة فوق السطوح مع استيحاشها على طرد النوم عن جفنيها وابعاده عن مضجعها .

واتعبها التفكير فاستسلمت للرقادوقد تصرم من الليل اكثره .. ولم تستفق الا في الصباح عندما غمر سريرها نور قوي فصبغه بلون الارجوان .. وبدا زجاج نوافذها أحمر قرمزياً وقد غطته بلورات الجمد فكأن الأفق كله قد انتقل اليه ..

ووثبت من فراشها وتجلببت بمعطف سابغ وخفت الى النافذة تفتحها فهبت نسمة مثلجة نقية لاذعة دخلت الغرفة وصافحت بشرتها فتمشت في أوصالها برودة حادة أجرت الدمع من عينيها ..

كانت شمس هائلة الجرم ، منتفخة الأوداج ، كأنها وجه الثمل ، تصعد في سماء قرمزية تبرز بقع منها خلال الاغصان العارية في حديقة القصر .

أما الأرض فقد غطتها طبقة من جليد صلب كانت تتكسر وتنسحق تحت وطأة اقدام الفلاحين وراء الأسوار ...

كانت الليلة المنصرمة كافية للاطاحة بكل ماتبقى من أوراق الحور من فوق أغصانها ... ووراء الأرض المنبسطة بدا خط الامواج مخضراً تشوبه بقع بيض من زبد راغ .

وبعد ان طال بها تأمل هذا المنظر الفريد مشت الى غرفة المائدة .

وانقضى اليوم كسابقه في تلكؤ وبرود .

وكذا انقضت ايام الاسبوع جميعاً ..

وشيئاً فشيئاً خف حنينها الى الآفاق المجهولة التي طالما حلمت بها ..وشعرت برغباتهاتنصاع للواقع وترضى بالملموس . لقد غلفت عاداتها الجديدة حياتها كماتغلف

ألماء الكلسية ماتغمره بطبقة من كلسها .. فتولد عندها اهتمام بالوف الاشياء اليومية التافهة ، وتبلور في أعماقها نوع من الكآبة الحالمة ، وضرب من التبلد الغامض ما الذي هي بحاجة اليه؟ ما الذي تبتغيه ؟ انها لاتعرف .. انها تريد شيئاً تجهل كنهه. انها لاتشعر احتياجاً الى أي شيء مادي ولا عطشاً الى أية مسرة حتى ولا إلى تلك المباهج السهلة المنال . ماذا بها اذاً ؟ وكما حال لون المقاعد القديمة في الردهة مع مرور الزمن هكذا نصلت ألوان الحياة بناظريها وبدأت تمحي ثم اتخذت شكلاً كئيباً شاحباً .

أما علاقاتها بجوليان فقد طرأ عليها تغير كلي . فلشد ماتبدل بعد رجوعهما من شهر العسل فكأنه الممثل يعود الى وجهه الطبيعي بعد ان فرغ من اداء دوره . فهو لا يكاد يعيرها أي اهتمام فلا يكلمها الا لماماً أما الحب فقد زال كل أثر له من علاقتها .. وما أقل الليالي التي كان يمضيها في غرفتها !

واسندت اليه ادارة الثروة والبيت معاً . فكان يراجع الحسابات ويرهق الفلاحين ويضغط النفقات .. وقد اتخذ سمة المزاوع النبيل ففقد رونقه واناقته كما عهدته جان يوم تحابا انه لايخلع عنه ثوب الصيد المخملي القديم ، المرصع بالبقع ، ذا الأزرار النحاسية الصدئة وقد عثر عليه مهملاً في خزانة ثيابه صدفة يوم كان عازباً .. واكتسب عادة الأشخاص الذين لا يهمهم إرضاء الغير بمظهرهم فاهمل حلاقة لحيته التي طالت بشكل غير منظم فاضفت عليه سيما قبح لايصدق ! كما فقد عادة العناية بيديه . وبدأ يشرب الخمر فهو يجرع منها أربعة أو خمسة كؤوس مع كل وقعة .

وإذا حاولت جان توجيه بعض الملاحظات الرقيقة اليه أجابها بشراسة :

ألا دعيني وشأني .

فانقطعت عن تقديم النصح اليه وفقدت كل اهتمام به وتم هذا الانقلاب في نفسها بسرعة أدهشتها هي . لقد أصبح زوجها غريباً بالنسبة اليها . غريباً حتى ان قلبها قد اوصد دونه . وكثيراً ما كانت تفكر وتسائل نفسها كيف امكن ان يتم ذلك بعد ان التقيا وتحابا وتزوجا بدافع واحد هو الحب .. ايمكن ان تعتبره

مجهولاً من قلبها كأنه لم يقاسمها فراشها قبل اليوم ؟ وكيف لايعمل هذا الهجران فيها إيلاماً ؟ أهي الحياة هكذا ؟ أم تراها قد خدعا ؟ اهذا ماخبأه لهاغدها المأمول؟ ولو ان جوليان احتفظ باناقته ورقة حاشيته وجاذب روحه لكان ألمها مضاعفاً !..

وكان من المقرر ان يقيم الزوجان في القصر بمفردهما بعد رأس السنة اذ ان الأب والام سيقصدان روان فيقيمان في بيتهما هناك . أما الزوجان الشابان فعليهما ألا يغادرا القصر هذه السنة كيما يتفرغا الى اعداد سكنهما فيه واعتياد الحياة الجديدة والامتزاج بالمكان الذي سيقضيان فيه الحياة كلها . وكان لهما جيران قدم جوليان لهم زوجته فتم بينهم التعارف . أما الجيران فهم آل بريزفيل وكوتيليه وفورفيل .

غير ان الزوجين الشابين لم يقوما بزيارتهما لهؤلاء الجيران بسبب عدم صلاحية عربتهما وحاجتها الى طلاء جديد . واستقدموا اخيراً من قام لهم بالطلاء ، وشاء جوليان مدفوعاً بحبه للاقتصاد ، ان يحدث فيها اصلاحات جديدة وتغييرات هامة فقد أحال الحوذي القديم للعمل بالبستان وشرع هو نفسه يقود العربة ولما كان لابد من شخص يمسك باعنة الجياد عندما يغادر العربة ركابها فقد اتخذ جوليان لهذا العمل خادماً صغيراً يدعى ماريوس . وعمد جوليان كذلك الى بيع جوادي المركبة ليوفر غذاءهما بعد ان استنبط طريقة فذة لاستدراك هذا النقص وهي ادخاله في عقد إيجار خادمين من خدمه مادة تنص على تقديم جواد من قبل كل منهما مرة في الشهر وبالتاريخ الذي يحدده هو .

وهكذا جاءه الاول بجواد ضخم الجثة أصهب اللون والثاني بفرس طويلة الوبر صغيرة الجرم .. وشد الحيوانان الى المركبة جنباً إلى جنب وقاد ماريوس هذا الموكب المضحك أمام رب القصر وكان هذا الحوذي الصغير غارقاً في رداء قديم كان للأب سيمون ..

كان جوليان قد اغتسل وسوى شيئاً من هندامه فاستعاد بعض هيئته القديمة واناقته السالفة .. الا ان لحيته الطويلة اضفت عليه مسحة سوقية .

وتأمل العربة والجوادين والحوذي الصغير فاستخلص ان كل شيء على مايرام .

والشيء الوحيد الذي استرعى انتباهه بكثير من الاهتمام هو الشارات العائلية التي اعيد طلاؤها فوق أبواب العربة بعد ان كان قد أمر بازالة شعار عائلة زوجته واثبات شعار عائلته .

وهبطت البارونة تستند الى ذراع زوجها وصعدت الى المركبة بعناء واستوت فيها تحدق بها الوسائد من كل جانب . وظهرت جان بدورها . وضحكت أول الامر للتناقض البادي في حجم الجوادين وشكلها . . ولاحظت ان الابيض يبدو وكأنه حفيد الاصهب وما لمحت ماريوس حتى انطلقت في ضحكة رنانة طويلة لم تستطع مقاومتها ، كان وجهه غارقاً في قبعة عريضة الحوافي فلا يبدو منه سوى انفه كما اختفت يداه في كمي ردائه الفضفاض وهو يستدير الى الوراء بحركات غير متزنة ليلبي أوامر سيده وهو في ذلك الزي العجيب .

واستدار البارون وتأمل الفتى الغارق في زيه المضحك فانتقلت اليه عدوى الضحك من ابنته فانفجر مقهقهاً ونادى زوجته وهو لا يكاد يقوى على الكلام :

ـ انظري . . ما . . مار . . ماريوس ! . اليس غريباً في شكله ؟ يا إلهي ما أغربه !

وانحنت البارونة فوق باب العربة وراحت تتأمله فانتابتها أزمة ضحك هي الاخرى جعلت المركبة تهتز فوق نوابضها كأن رجات دهمت عجلاتها .

وشحب لون جوليان وتوجه اليهم سائلاً : ـ لابد انكم جننتم ! ما الذي يضحككم بهذا الشكل ؟

واقتعدت جان العتبة وحذا البارون حذوها واحست قواها تخور لشدة ما ضحكت . . أما البارونة فظلت في العربة فريسة لنوبات القهقهة تكاد تختنق بها . وبدأ معطف ماريوس يهتز فقد أدرك انه هو مبعث هذه العاصفة من القهقهة . . ولم يسعه الا مشاركتهم وهو قابع في طيات أرديته الواسعة .

واندفع جوليان شديد الانفعال . . وبصفعه اطار القبعة الهائلة من فوق رأس الحوذي ثم استدار الى حميه وراح يتلفظ باقوال وصوته راجف النبرات :

ـ يبدو لي ان ليس لك ان تضحك . . فلو لم تكن قد بذرت ثروتك وبعثرت

مالك لما وجدتنا على مثل هذه الحال . ان التبعة لتقع عليك انت الذي دمرت نفسك وجررت علينا الخراب !

وهدأت العاصفة الطروب .. ثم تلاشت تماماً . ولاذ الجميع بالصمت. وصعدت جان الى قرب امها والدموع تكاد تنفجر من مآقيها . واستوى البارون مأخوذاً جامداً أمام المرأتين واتخذ جوليان مقعده في مجلس الحوذي بالقرب من الغلام الدامع العينين المنتفخ الاوداج .

كانت الطريق طويلة مبرمة لما خيم على الركب من صمت واستياء . ولم يشأ أحد من الثلاثة الصامتين المكتئبين التعبير عما يختلج في أعماق صدره . انهم يدركون حق الادراك انهم لن يقووا على التحدث بشيء آخر طالما ان هذه الفكرة المؤلمة تثخن نفوسهم لذا فضلوا الاعتصام بالصمت على تجاذب اطراف حديث ذي شجون .

كانت المركبة تجتاز الحقول يخب جوادها خبباً غير منتظم ودجاجات سوداء كبيرة تفر من أمامها وتختفي وراء الاسيجة ، أو يظهر كلب ـ ذئب يطارد العربة مزمجراً ثم لايلبث ان يعود الى مأواه وهو لايكف عن نباحه .

كانت المركبة تطوي في اندفاعها الحقول والسهول طياً وتعترضها حفر موحلة تميل بها ذات اليمين وذات اليسار فتند عن صدر الام صرخات قصار .

وبلغوا غاية طريقهم حيث قام حاجز أبيض مغلق الباب خف اليه ماريوس ففتحه ثم داروا حول مرج مترامي الجنبات ليقفوا أمام بناء عال كئيب مغلق النوافذ.

وفتح باب في صدر البناء بغتة برز منه خادم شيخ أشل يرتدي صدرية حمراء ذات خطوط سود يخفي مريوله الأسود قسماً منها . وراح يهبط درجات السلم بخطى متحاملة . وبعد ان استوضح امر الضيوف وعرف أشخاصهم سار بهم إلى ردهة مكسوة بالبياض . كان هواء الحجرة المغن ، المحبوس ، ينفذ الى الرأتين بارداً مثلجاً فيشيع حزناً وانقباضاً وتقززاً .

وجلس الجميع وأقاموا ينتظرون . وبلغت مسامعهم أصوات خطى تسير في الطابق العلوي على عجلة من أمرها . كانت جان جالسة بالقرب من امهـــا كئيبة

منقبضة النفس . أما البارون فكان يستند بظهره الى رخام المدفأة خافض الجبين .

وانفرج باب عال أخيراً وظهر الفيكونت والفيكونتس دي بريسفيل . كانا على قصر وهزال يسيران قفزاً ولا يعرف لهما سن على وجه التحديد . وبالغـــا في الحفاوة والمجاملة . كانت المرأة رافلة في ثوب حريري مقلم وقد تقبعت بقبعة صغيرة ذات أشرطة طويلة كالتي ترتديها الارامل . أما الزوج فقد حشر جسمه الضئيل في معطف رسمي فخم ودنا فجيا بانحناءة من ركبتيه .

كان بكل مافيه ، شعره ، عيناه ، رداؤه ، يلتمع التماع شيء أحسنت الاعتناء به .

وبعد المجاملات المعتادة وتبادل التمنيات بحسن الجوار لم يعد لاحد مايقوله . فعادوا الى عبارات المجاملة يتبادلونها من جديد معربين عن أملهم باستمرار علاقات حسن الجوار . كما أشاروا الى تبادل الزيارات بينهم تسلية كبرى لهم هم المقيمون كل سنتهم في الريف .

كان هواء الحجرة البارد ينفذ حتى العظام ويشيع في الحناجر مايشبه الصدأ وسعلت البارونة ثم اعطت اشارة النهوض . واصر بريسفيل قائلين : ـ كيف ؟ أبمثل هذه السرعة . اقيموا بعض الوقت ايضاً .

غير ان جان قد استجابت لاشارة امها بالرغم من ان جوليان قد عبر بالاشارة أيضاً مامعناه ان الزيارة كانت شديدة الاقتضاب .

وشاء أصحاب البيت قرع الجرس لاستدعاء الخادم كيما يعد العربة الا ان الجرس حرن فلم يعلو له رنين فخرج رب الدار وعاد ليعلن ان الخيول قد ادخلت الاسطبل ولا بد من الانتظار ريثما تخرج وتشد الى المركبة . وانتظروا . وراح كل منهم يبحث عن كلمة تقال . تحدثوا عن الشتاء المطير . وسألت جان وقد اعترتها ارتعاشة رغماً عنها :

ـ بم يشغل الزوج والزوجة وقتهما وهما على مثل هذه العزلة طوال السنة ؟

لشد ما أدهش السؤال آل بريسفيل لانهما كانا دائمي الانشغال بالكتابة الى أقربائهما من النبلاء الموزعين في كل ناحية من فرنسا كما كانا يملاءان فراغ يومهما بمشاغل

صغيرة . أما تصرفات الواحد منهما حيال الآخر فكانت على قسط كبير من الرسميات كأنهما غريبان . فهما يتحدثان بكثير من الجد عن أشيـــاء تافهة لاخطر لها ولا معنى .

وخيل لجان ان هذين الزوجين الدقيقين المرتبين من بقايا نبلاء القرون الماضية .

ومرت المركبة أخيراً يجرها حيواناها المتنافران ، من أمام النافذة ، الا ان ماريوس لم يكن في مقعده فقد خيل اليه انه حر حتى المساء فانطلق الى الريف يلهو فيه .

وغضب جوليان غضباً شديداً ورجا مضيفيهم ان يرسلا الخادم المتخلف ماشياً ساعة يعود .

وبعد فيض من عبارات الوداع اتخذوا طريقهم الى القصر .

وما ان اغلقت أبواب المركبة حتى شرعت جان وابوهـا يضحكان ويقلدان حركات آل بريسفيل الا ان جان بالغت في ذلك حتى خرجت عن تهذيبها فانتهرتها الأم ولامتها ولم تعف عن زوجها فليس لهما ان يهزءا بمثل هؤلاء القوم الطيبين العريقي النسب .

ولم يسعهما الى الصمت اكراماً للأم . وما أطلوا على القصر حتى خـــاطب ... جان قائلاً :

— ان قصرك ياسيدة جان شديد البرودة ولا شك فهواء البحر المثلج يلعب فيه كفعله كل يوم .

وتوقفت المركبة اخيراً ، وسمعوا جوليان ينادي شخصاً خلف العربة فانحنت جان وانحنى أبوها من فوق الباب فبصرا بشخص غريب الشكل يسير نحوهما مسرعاً كانت ساقاه تتعثران بردائه الطويل المتطاير الاعطاف وقد أعمت باصرتيه قبعة لاتفتأ تنقلب عن رأسه .. كان كماه يصطفقان اصطفاق جناحي طائر مذعور او ذراعي طاحونة هواء .. وهو يخوض في سيره حفراً موحلة تصدمه حجارة هنا وهناك .. قافزاً .. واثبا .. قد لطخه الوحل . انه ماريوس يتبع المركبة بكل ما أوتي من قوة .

ما ان بلغ الغلام المسكين العربة حتى خف اليه جوليان فتناوله من ياقته وجذبه اليه ثم افلت خناقه لينهال عليه بقبضتيه لكماً وصفعاً فغرقت قبعته حتى بلغت كتفيه تحت وقع اللكم والصفع فكانت تدوي كأنها الطبل تقرعه عصاً غليظة !

وكادت جان تفقد صوابها أمام المشهد القاسي فهتفت : ـ أبي .. آه.. ابتاه!.. انظر!..

أما البارونة فراحت تضغط ذراع زوجها وقد ثار فيها اشمئزاز مرير وقالت :

ـ ولكن .. الا تمنعه ياجاك !..

وانزل البارون زجاج النافذة الامامية وتناول صهره من كمه وهتف به بصوت مرتجف :

ـ ألم تنته بعد من ضرب هذا الغلام ؟!

واستدار جوليان الى حميه مأخوذاً :ـ ألم تر اذاً في اي وضع مذري غدا ثوب هذا الشقي .

وأجاب البارون وقد مد رأسه بين الاثنين : ـ وهل يتطلب ذلك كل هذه الوحشية ؟

واحتدم جوليان غيظاً من جديد وقال : ـ اتريد ان تنصرف الى شأنك ؟ هذا شيء لا يعنيك .

ورفع يده يريد ان يهوي بها على الغلام المسكين بيد ان قبضة حميه كانت أسرع الى الامساك بذراعه المرفوعة بقوة وجذبها فصدمت خشب المقعد وصاح به بشدة :

ـ اذا لم تكف فوراً عن ضربه نزلت اليك وعلمتك كيف تقف عند حدك .. انا ..

وتراجع جوليان فوراً .. وبضربة من سوطه انطلق الجوادان باقصى سرعتهما.

ولزمت المرأتان الصمت وقد اعتراهما شحوب شديد . وكان وجيب قلب البارونة يطرق المسامع بوضوح تام .

وعلى المائدة أبدى جوليان مزيداً من اللطف كأن شيئاً لم يحدث . وكذلك

فعل الباقون بتظاهروا بتناسي الحادث فجاروا الصهر بمرحه . وشرعت جان تتحدث عن آل بريسفيل فما كان من زوجها الا مجاراتها بمرحها ولكنه لم يلبث ان قال :

– انهم قوم على جانب من اليسر عظيم .

لم يقوموا بعد ذلك بزيارات قط . فكلهم كان يخشى تكرر حادث ماريوس. واكتفوا بارسال بطاقات بمناسبة عيد الميلادمعربين فيها عن عزمهم على القيام بواجب الزيارة في الربيع عندما يصحو الجو ..

. وهلت ليلة عيد الميلاد . وكان على مائدتهم الكاهن والمختار وزوجته . ودعوهم مرة ثانية بمناسبة رأس السنة . فكانت هذه الولائم هي الترويح الوحيد الذي ادخل بعض التغيير على حياتهم الرتيبة .

كان على الاب والام مغادرة القصر في ٩ كانون ثان ، وشاءت جان التمسك بهما الا ان جوليان لم يبد أي تشبث ببقائهما مطلقاً . اما البارون فكان رده على برودة صهره ان استقدم من روان عربة اجرة . وبعد ان فرغوا من اعداد الحقائب ليلة السفر قررت جان وابوها السير الى إبور وكان الليل نيراً مثلجاً ، فهما منذ عودة العروسين من كورسيكا لم يزورا إبور ..

واجتازا الغابة التي طوفا فيها ليلة الزواج جوليان وجان .. هذه الغابة التي حملت الي جسد جان اول رعشة من رعشات الحب .. فتحت ظلالها عرفت الحب الحسي الذي لم تعرفه بعد ذلك الا في وادي (اوتا) بالقرب من الينبوع الذي ورداه وامتزجت مياهه قبلاتهما العذبة .

كانت الغابة عارية عن أوراقها ، وقد اختفت منها تلك النباتات المتسلقة .. لاشيء فيها سوى حفيف الاغصان وذلك الضجيج الجاف الذي يعلو من الادغال ايام الشتاء .

ودخلا القرية الصغيرة . كانت شوارعها الخاوية الصامتة تفوح برائحة البحر والسمك . وكانت الشباك العريضة معلقة أمام الابواب كما تجف أو منشورة فوق عصي طويلة ..

كان البحر الرمادي البارد ذو الزبد الهادر قد بدأ جزره كاشفا عن صخور (فيكامب) الخضراء الجاثمة تحت أقدام الساحل الصخري المرتفع . وفوق الشاطيء الرملي كانت الزوارق ملقاة فوق جنوبها كأنها الحيتان الكبيرة الميتة .

وهبط المساء . وزرف الصيادون عائدين يجررون أقدامهم المحتذية نعالاً ثقالاً وقد لفوا حول أعناقهم شالات من صوف وفي أيديهم زجاجات الخمر والمصابيح النقالة .. وداروا حول الزوارق والقوا بشباكهم .. ثم دفعوا بزوارقهم الى البحر ووثبوا اليها .

كانت جماعة من نساء الصيادين ذوات القامات الفارعه ملتفات بثيابهن الرقيقة قد وقفن فوق الشاطيء يرقبن انطلاق آخر زورق وقد عكر صفو الشـــارع لغطهن الصاخب .

ووقف البارون وابنته يرقبان هؤلاء الرجال الذين ينطلقون كل ليلة معرضين أنفسهم للموت سداً للرمق وهم ، رغم ذلك ، على جانب من البؤس لايعرفون معه للحم طعماً .

وتمتم البارون وقد عرته رعشة وهو يتأمل المنظر المؤثر :

ـ إنه مخيف بجماله . هذا البحر . ما أروعه والليل يرخي عليه سدوله !.. انه يحمل على متنه الوف النفوس فيتصرف بحيواتها تصرفاً مطلقاً .. إنه رائع ! اليس كذلك ياجانيت ؟

وأجابت بصوت بارد النبرات :ـ ولكنه لايفوق البحر المتوسط جمالاً ..

ورد أبوها مستنكراً : ـ البحر المتوسط ؟ انه لمن زيت ؟ بل كأن ماءه عذب واكد ! ولونه ؟! ان له زرقة ثياب غسيل ! انظري ! انظري الى هذا المحيط! كم هو مخيف بهذه الجبال من زبده الجياش ! فكري ! فكري بكل هؤلاء الرجال الذين ركبوا متون لججه الصاخبة . لقد اختفوا في افقه الجهم العريض ..

كان ذكر البحر المتوسط كافياً ليطير بخيال جان ويذهب به شعاعاً .. الى تلك البلاد البعيدة التي مابرحت تلهب منها الخيال وتثير فيها كوامن الشوق والحنين .

وبدلاً من ان يعودا بطريق الغابة قفلا راجعين على موازاة الشاطيء بخطى وئيدة لاينبثان بقولة ولا يثيران موضوع فراقها المنتظر .. وتراءى لجان ان ذهنها أخذ يتفتق عن أشياء جديدة غير منظورة .. وحملتها رؤية تلك الانوار المبعثرة بين المزارع على التفكير في الوحدة الباسطة الجناح فوق كل هذه المخلوقات ..

وبصوت جازم قالت :ـ ليست الحياة متعة في كل الاوقات ..

وأجاب البارون وقد أطلق تنهدة حرى : ـ ماذا تريدين يافتاة ! اننا لانقوى على تغيير شيء ...

وفي صبيحة اليوم التالي سافر الاب والام ومكثت جان وحيدة مع جوليان.

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

الفَصلُ السّابعُ

دخلت العاب الورق في حياة الزوجين ، ففي كل مساء ، بعد العشاء ، كانا ينصرفان الى هذه التسلية بينما يروح جوليان يدخن غليونه ويرتشف الكؤوس على مهل . وما ان يفرغا من ذلك حتى تصعد جان الى غرفتها وتجلس الى النافذة تشتغل بابرتها او تتأمل المطر المتون يقرع الزجاج والريح الصرصر تهز المصاريع هزاً عاتياً .. واذا ما اضناها الجلوس رفعت ناظريها وارسلت بهما صوب البحر الجائش الغوارب .. ولا تلبث ان تعاود عملها بعد دقائق من تأمل حالم ضائع في مهامه مجهولة القرار ..

لم يكن لها ، عدا ذلك ، ما يشغلها . فقد جمع جوليان بيده كل ادارة البيت ارضاء لنزعته الى السيطرة وتبعاً لميله الى القصد في النفقات .

كان مقتراً صارماً في تقتيره . لا يعطي منحاً مالية للخدم مطلقاً وقد عمد الى خفض كميات الطعام الى حدها الادنى الضروري . ولاحظ ان جان ، منذ قدومها الى (بوبل) ، كانت توعي الخباز ان يجيء لها كل صباح فطيراً دسماً فرأى ابطال هذه العادة واضطرها الى تناول العادي من الخبز .

وتفادياً للاستيضاح والمشاحنات والجدل لزمت الصمت حيال تصرفاته الغريبة بيد انها كانت تتألم بالغ الالم فكأن بدوات هذا الشح ابر تخذها وخذاً موجعاً . انها تنظر الى مثل هذه التصرفات نظرها الى انحطاط نفسي وخسة طبيعية هي التي ربيت في بيت لا يقيم للمال وزناً . فكم سمعت اباها يقول :

— ولكن المال خلق لينفق !

اما جوليان فهو لا يفتأ يردد على مسمعيها : — الا تستطيعين ابداً ان تقلعي عن عادة القاء المال من النوافذ !

وفي كل مرة يتوصل الى توفير فروش هزيلة من شراء سلعة ما كان يلقيها في صندوقه وهو يردد مبتهجاً : — ان الجداول الصغيرة هي التي تشكل الانهـار الدافقة الذاخرة !

ولم تنقطع جان عن الهيام مع احلامها كفعلهـا يوم كانت فتاة عذراء. الا ان صوت جوليان لا يلبث ان ينتزعها من عالمها السحري اذ يصك اذنيها وهو يلقي الى الاب سيمون باوامره الصارمة .. فكانت تعود الى شأنها وهي تقول لنفسها: — لقد انتهى كل شيء ...

وتسقط دمعة حرى وتسيل فوق خدها الا سيل تكاد تحرق بشرته الرقيقة ..

ولحظت جان ، ذات يوم ، ان روزالي قد اصبحت حالها غير ما كانت عليه في ماضيات الايام ، فقد اعترى هذه البنية انقلاب مفاجيء ، هذه الفتاة المرحة ابداً، الضاحكة السن ليل نهار .. لقد فقد خداها رواءهما الزاهر وغاضت منها دمـاء الحيوية فظهرا كأنهما معفران بالتراب وبرزت عظامها تصدم العين .

وكثيراً ما استفسرتها جان عن حالها : — امريضة انت يا بنيتي ! ؟

وكان جواب الخادمة الصغيرة لا يتغير : — كلا . ليس بي شيء يا سيدتي .

ويصعد شيء من الدم الى وجنتيها وتسرع بالخروج ...

كانت فيما مضى لا تسير الا قفزاً .. اما الآن فهي تجر قدميهـا جراً وقد فارقتها كل فتنتها الماضية ووسامتها السافة كما انها صرفت عن ابتياع تلك الحاجيات الصغيرة الجميلة من الباعة الجوالين فعبثاً كانوا يغرونها بما يحملون من ادوات زينـة براقة واشرطة حريريه زاهية وغير ذلك مما يطير له قلب النساء من زينة وبهرج .

ولم تقتصر الكآبة على ساكني القصر بل تعدته الى مظهره الخارجي فقد عملت الامطار بالواجهة البيضاء عملها وتركت فوقها خطوطاً طويلة رماديه اللون .

وازداد الجو اكفهراراً في اواخر كانون الثاني .وتساقطت الثلوج ، وتراكمت في الافق الشمالي البعيد غيوم هائلة منبعثة من قلب المحيط المظلم . . وغمرت الثلوج السهول المجاورة ولما اصبحت كانت الاشجار كاسية حللاً بيضاً ناصعات ...

واهتم جوليان باستثمار هذا الطقس فانتعل حذائيه الكبيرين وتنكب بندقيته وراح يترقب الطيور المهاجرة .. وكانت طلقاته تمزق الصمت العميق المخيم فوق بساط الثلج الناصع البياض فتذعر جماعات الغربان فتنطلق من فوق الاشجار محلقة في الفضاء الرمادي الجامد ...

وادرك جان ضجر فاتل فخرجت الى العتبة فبلغ اذنها ضجيج آت من بعيد فوق البساط الابيض الشاحب الصامت .

وذات صباح كئيب من هذه الاصباح كانت جان جالسة الى الموقد تستدفيء بينما راحت روزالي تهتم بتنسيق الغرفة وقد نضحت معالم وجهها بالم دفين مكتوم واشتدت عليها وطأة حالة صحية لا تبشر بالخير .. وندت عن صدر البنية المسكينة زفرة حارة طرقت اذني جان فسألتها دون ان تستدير برأسها اليها : – ما بك يا روزالي ؟

وجاءها جواب الخادم المعتاد : – لا شيء يا سيدتي .

بيد ان صوتها كان منكسراً محشرجاً .

وانصرفت جان الى التفكير باشياء أخر .. وانتبهت فلم تشعر بحركة الفتاة خلفها فنادت :

– روزالي ! فلم تظفر بغير صمت مطبق . وعادت تنادي بصوت اقوى وقد خالتها غادرت الغرفة : – روزالي !

كانت توشك ان تمديدها الى الجرس تقرعه عندما طرق اذنها انين عميق ينبعث من ورائها جعلها تقفز وقد اعترتها رعشة خوف عنيفة .

كانت الخادم الصغيرة مستلقية فوق الارض شاحبة ضائعة النظرات وقد مدت ساقيها واستندت بظهرها الى خشب السرير .

وخفت اليها جان هاتفة : – ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

ولم تنبث ببنت شفة وجمدت لا تبدي ولا تعيد . كانت تركز على سيدتها عينين زائغتين مغمورتين بالدموع وقد لهثت منها الانفاس وعلا صدرها وانخفض

متسارعاً فكأن الماً هائلاً يمزق أوصالها تمزيقاً وحشياً . . وانهارت فجأة بكل جسمها وقد خنقت بين اسنانها صرخة الم ممزق . . .

وبدا شيء يتحرك تحت ثوبها بين فخذيها المتباعدتين . . . وندت عن صدر الفتاة تنهدة عن حنجرة تختنق . . ثم ارتفع مواء طويل . . . شبيه باستغاثة رقيقة مؤلمة اول نداء يصدر عن مخلوق يلج باب الحياة . .

لقد وضح كل شيء امام عيني جان ! وخفت الى البــــاب ونادت وهي تكاد تفقد صوابها :

– جوليان . . . جوليان . .

واجابها صوت زوجها من اسفل : – ماذا تبتغين ؟ !

ووجدت صعوبة قصوى في التعبير : – انها . . . انها . . روزالي !

واندفع جوليان فقفز الدرجات زوجاً زوجاً . . وبلغ الغرفة ودنا من الفتاة . وبضربة واحدة ازاح ثوبها عن ساقيها فظهر بين فخذيها العاريتين مضغة من لحم جعدة ، متشنجة ، لزجة ينبعث منها انين حاد مخنوق اشبه بمواء صغار الهررة حديثة الميلاد .

ورفع جوليان وجه الخبيث الى زوجته الضائعة اللب ودفعها بكلتا يديه خارجاً وهو يقول : – اذهبي . اذهبي . هــــذا لا يعنيك . . ابعثي الي بلوديفين والاب سيمون . .

وهبطت جان مرتعشة الاوصال الى المطبخ ونفذت منه الى ردهة الاستقبال التي لم تعرف النار منذ ذهاب والديها واقامت ، مقرورة ، منفـاقمة القلق ، تنتظر تطورات الموقف .

ولم تلبث ان لمحت الخـادم يخرج مهرولاً ثم يعود بالارملة « دانتو » قابلة المنطقه .

وحدث فوق السلم هرج عظيم كأنهم ينقلون جريحاً ثم جاء جوليان فانبأ جان انها تستطيع الصعود الى غرفتها . كانت ترتجف كأنها امام حادث مفجع . وعادت تجلس امام نارها وتساءل نفسها :

– كيف هي الآن ؟ ولحق بها جوليان بعد قليل :

كان جوليان مشغول الفكر ، ثائر الاعصاب ، يقطع الحجرة بخطى سراع كأن غضباً هائلاً يعصف بين حناياه . وتوقف بعد لحظات وسأل :

– ما الذي تنوين فعله بهذه الفتاة ؟

لم تدرك مرمى قولة زوجها فنظرت اليه مستفهمة : – ماذا ؟ ما الذي تقول؟ لا اعرف شيئاً انا ؟

وصرخ بغتة وكأن ثورة غضبه بدأت تنفجر :

– نحن لا نستطيع ، على اي حال ، ان نحتفظ تحت سقفنا بولد سفاح ..

وانتهب جان ارتباك شديد ثم ، بعد صمت طويل ، قالت :

– ولكن ... يا صديقي ... باستطاعتنا ايكال امره الى مربية ما ..

ولم يتركها تكمل : - ومن سيدفع النفقات ؟ . انت ِ ولا شك ! ..

وفكرت طويلاً باحثة عن حل . وقالت اخيراً : – ولكن الا يهتم ابوه به ؟.. واذا ارتضى هذا المجرم الزواج من روزالي انقضى كل اشكال ..

وكاد جوليان يفقد سيطرته على اعصابه . قال مزمجراً : – ابوه ؟ ابوه ؟ او تعرفين اباه انت ِ ؟ كلا طبعاً .. حسناً .. وبعد ذلك ؟

واحتدت جان وقد بلغ منها التأثر مبلغه : – انه لن يدع هذه الفتاة هكذا. بكل تأكيد .. انه اذاً لجبان ! سنعرف اسمه . ونمشي اليه نسأله تفسيراً لتصرفاته ..

كان جوليان قد استعاد شيئاً من هدوئه . وعاود ذرع الغرفة : – انها لا تريد التصريح باسم الذي اغواها . الا لي انا ... واذا لم يرتض ِ الزواج منها ؟ . نحن لن نستطيع في هذه الحالة الاحتفاظ تحت سقف بيتنا بفتاة - ام ووليد سفاح . اوَ تفهمين ؟

واصرت جان : – انه شقي هذا الرجل .. ولكن .. لا بد من معرفته .. وعندئذ يكون لنا معه شأن . وغمر الدم وجه جوليان بيد انه وجد وجهاً للاعتراض:

– وبانتظار ذلك ؟

ولم تكن قد حزمت امرها فسألته : ـ وما الذي تقترحه انت ؟

وسرعان ما صرح برأيه : ـ آه ! انا ؟ ارى ان ننقدها بعض المال ونرسلها مع وليدها الى الشيطان !

ولم يرق هذا العرض للمرأة الشابة فرمته بنظرة احتقار وقالت :

ـ امّا هذا فلا ! انها اختي بالرضاع هذه المنكودة ! لقد نشأنا سوية . وها هي ترتكب فعلة شنعاء .. فليكن ! انه حظها من ايامها .. انه نكد طالعها غير اني لن القي بها خارجاً من اجل ساعة ضعف ادركتها . . واذا اقتضى الامر فسأعنى انا نفسي بتربية الوليد ...

وفقد جوليان كل سيطرة على اعصابه : ـ وسيكون لنا اسم نظيف نحن ! . وشرفنا .. وعلاقاتنا سيقولون في كل مكان اننا نحمي الزلات ونؤوي الساقطات .. وسيمتنع القوم الشرفاء عن وطأ ارض بيتنا . . ياله من تفكير اخرق حقاً ! امجنونة انت ؟

وظلت مسيطرة على زمام اعصابها حتى تلك الساعة :

ـ لن اترككم تلقون بروزالي خارجاً ابداً ! . واذا ابيت الاحتفاظ بها استردنها امي .. ولكن لا بد من معرفة والد الطفل ...

وخرج عندئذ وقد فرغ منه الصبر وصفق الباب خلفه صائحاً : ـ ما اغبى النساء وما اشد حمقهن !

وصعدت جان بعد الظهيرة الى قرب الفتاة النفساء . كانت ساكنة في سريرها والعجوز دانتو تقوم بامرها . كانت عيناها مفتوحتين معلقتين بالعجوز التي احتضنت الطفل وراحت تهدهده .

ما وقعت عينا روزالي على سيدتها حتى اندفعت تشهق بالبكاء واخفت بالاغطية وجهها وقد هزها اليأس هزاً عنيفاً .. ومشت اليها جان وانحنت فوقها تحاول تقبيلها الا ان انها قاومت وهي تخفي وجهها .. ولكنها لم تلبث ان استسلمت الى قبلات « اختها » وهي تشهق بالبكاء !

كان البرد شديداً ونار شاحبة تتراقص السنتها في الموقد . وشرع الوليد يبكي .
ولم تشأ جان ان تحدثها عن الصغير خشية ان تسبب لها نوبة اخرى .
وتناولت يد خادمتها وهي تردد : — لا تخشي شيئاً .. لا تخشي شيئاً ..
كانت الفتاة المسكينة تسترق النظر الى القابلة فتنتفض لدى سماعها صرخات الوليد فتندفع بقايا الحزن من صدرها تنهدات تشنجية بينما تروح تشرق بدموعها المنسكبة في حنجرتها انسكاباً ... انها ترزح تحت آلام ثقال .. نفسية وجسدية ..
وعانقتها جان من جديد وتمتمت في اذنها بصوت خفيض :
— لا تبتئسي يا بنيتي . سنعتني بالوليد كل العناية .
وخرجت من الغرفة عجلى وقد اوشكت الخادم المسكينة ان تغص بالعبرات .
لم يمض يوم لا تصعد فيه جان مراراً الى غرفة النفساء فما تشاهد روزالي سيدتها حتى تنفجر باكية ، واوكل امر الطفل الى جاره مرضعة . اما جوليان فقلما حدث زوجته كانه يحمل لها الحقد الدفين لانها رفضت طرد الخادمة المسكينة . وحاول مرة ثانية الخوض في الموضوع بيد ان جان تناولت رسالة تلقتها من البارونة تقول فيها انها تنتظر ارسال الفتاة اليها اذا كانوا لا يرغبون بالاحتفاظ بها في القصر .
وصرخ جوليان محتداً : ان امك اشد جنوناً منك . الا انه لم يصر .
مضت خمسة عشر يوماً استطاعت النفساء في نهايتها ترك السرير والعودة الى مزاولة عملها
وذات صباح نادتها سيدتها فاجلستها الى قربها وتناولت راحتيها وتأملتها بنظرة وقالت :
ـ اسمعي يا بنيتي .. حدثيني بكل شيء ...
وارتعشت روزالي وجمجمت : ـ عمّ يا سيدتي ..
ـ لمن هذا الطفل ؟
وسرعان اكمدت الفتاة وارتجفت شفتاها كأن يأساً مقيتاً قد دهمها .. وحاولت بجنون تخليص يديها لاخفاء وجهها براحتيها .. بيد ان جان جذبتها الى صدرها

وغانقتها رغماً عنها وغمزتها قائلة :

ـ انه لامر تعيس . ماذا تريدين . كنتِ ضعيفة .. الا انك لست الوحيدة التي انزلقت في هاوية الغواية فاذا كان « الوالد » يرضى الزواج منك فليس لنا ان نشكو .. وبمقدورنا ان نلحقه بخدمتنا معك ..

وعلا أنين روزالي كأن سياطاً لاذعة تثخنها وكانت بين يدي سيدتها ترتقص ارتقاص طائر ذبيح بغية التخلص من قبضتها .

وعادت جان تقول : ـ افهم جيداً انك خجلى .. غير انك تلاحظين اني لم اغضب فانا اشفق عليك واحدثك بكل لطف . فاذا كنت اسألك عن اسم مغويك فما ذلك الا حرصاً مني على مصلحتك فانا اشعر بآلامك اذ تجاهلك رجلك واسعى للحيلولة دون حدوث شيء من هذا . وعندما تصرحين باسمه سيمشي اليه جوليان يحدثه حديثك وسنجبره على الزواج منك ولما كنا سنحتفظ بكما عندنا فسنضطره الى اسعادك في المستقبل .

وما فرغت جان من حديثها حتى كانت روزالي قد تمكنت ، بحركة مباغتة ، من التخلص من قبضتها وانطلقت كأن مساً قد أدركها .

قالت جان لجوليان وهما الى مائدة العشاء : ـ لقد حاولت عبثاً اقناع روزالي بالتصريح باسم الرجل الذي أغواها . حاولت كل أساليب الاقناع فلم أفز بطائل . لم لا تحاول انت من ناحيتك فقد تنجح حيث فشلت فلا بد من ارغام هذا النمس على الزواج من ضحيته المسكينة .

وغضب جوليان : ـ آه . اعلمي اني لا اريد سماع شيء عن هذه القضية . لقد شئت الاحتفاظ بهذه الفتاة . احتفظي بها شريطة الا تصدعي رأسي بحديثها في كل مناسبة ...

كانت اخلاق جوليان قد ساءت منذ حادثة روزالي . وعمد الى عدم توجيه الكلام الى زوجته فاذا اضطر الى ذلك فصراخاً وكانه غاضب باستمرار اما هي ، فعلى عكسه ، كانت خفيفة الصوت ، لطيفة المعشر ، مستسلمة الى قدرها ، كما

تتحاشى كل جدال .. وكثيراً ما كانت تورف الدمع السخين في سريرها عند ما يجن الليل وتنفرد بنفسها .

وبالرغم من ثورته الدائمة ، كان جوليان يعبر الى مخدع زوجته كل ثلاث ليال او اربع ..

وسرعان ما استعادت روزالي صحتها كاملة وفقدت شيئاً من اكتئابها بالرغم من انها قلقة دائماً نهباً لخوف مجهول . وكانت تفر من جان كل مرة تحاول استيضاحها بشأن ابي طفلها .

وبدا جوليان ، بغتة ، اشد لطفاً وايناساً فعادت الزوجة الشابة تتشبث بآمال ذاوية الا انها استعادت بعض مرحها القديم دون ان تتخلص من قلقها نهائياً ، ذلك القلق المبهم الذي لا تعرف كيف تعبر عنه وبم تبرره ...

اقامت جان تترقب ، بشوق متجدد ، هبوب نسائم الربيع ، زاعمة ان الشتاء القاسي سبب لكل ما يهز كيانها من آلام . فهي تارة تفقد شهيتها وطوراً تشعر بسوء هضم او لم في القلب فيعلو وجيب قلبها ، او تدركها ارتعاشة شديدة تتركها تعيش في قلق واضطراب لا يطاقان .

وهبط ميزان الجو ذات مساء . وارتعش جوليان برداً وهما يغادران غرفة المائدة التي لم تعرف النار نتيجة لتقتير جوليان وبخله . وفرك يديه وقال واسنانه تصطك :

ـ انه لمن المستحسن ان نرقد سوية هذه الليلة ... اليس كذلك يا قطتي ؟

وضحك ضحكته الصبيانية كما كان يفعل في الماضي . ووثبت جان الى عنقه وطبعت على شفتيه قبلة مشوقة ... غير انها احست بانها ليست على ما ينبغي فهي متألمة ، ثائرة الاعصاب . ثم راحت ترجوه ان يتركها تنام وحيدة هذه الليلة وشرحت له ببضع كلمات ما يؤلمها :

ـ ارجوك يا عزيزي . اؤكد لك اني لست على حالة حسنة . وسأتماثل للشفاء غداً ولا شك .

ولم يصر : - كما تشائين يا عزيزتي . فاذا كنت مريضة فعليك العناية بنفسك.
ثم انصرفا الى الحديث باشياء اخرى .

واوت الى فراشها مبكرة . وتمت الاعجوبة بأمر جوليان فاشعلت نار في غرفته الخاصة ! وعند ما اخبروه ان النار قد ادفأت الغرفة جيداً قبل زوجته وانصرف الى فراشه .

كانت جان ترتجف في سريرها وقد خيل لها ان البيت برمته غارق في لجة من صقيع .

ونهضت مرتين لتطعم النار مزيداً من حطب او لتأتي بدثر وثياب تثقل بها اغطيتها . واقتنعت ان لا شيء يمكنه بث الدفء في جسدها المقرور .

واصطكت اسنانها وارتعشت يداها وضاق صدرها وشرع قلبها البطيء يجب وجيباً عالياً مخنوقاً وكأنه يتوقف او كأن الهواء قد جمد فلا ينفذ الى رئتيها ..

كان البرد ينفذ حتى عظامها . ودهمها انقباض هائل وضيق مروع ... وخيل اليها انها مهجورة مهملة تكاد تلفظ انفاسها الاخيرة في وحدة باردة مظلمة ..

وفكرت : سأموت .. اني اكاد اموت ...

وسيطر عليها رعب مروع فوثبت من سريرها . وقرعت الجرس تستدعي روزالي...وانتظرت. وعاودت القرع.. وانتظرت ثانية راعشة مثلجة الاطراف

غير ان الخادمة الصغيرة لم تأت . انها ولا ريب غارقة في اول رقادها العميق فلا يقوى شيء على ايقاظها منه ..

وبلغ الرعب واليأس من جان مبلغاً كادت تفقد معه صوابها .. وانطلقت فوق السلم عارية القدمين وتسلقت الدرجات دون ضجيج متلمسة طريقها في الظلمة واهتدت الى باب الوصيفة ففتحته ونادت :

- روزالي ! ..

كانت ما تزال تتقدم في الغرفة فاصطدمت بالسرير وجاست بيديها بين طياته .. انه فارغ .. كان فارغاً .. بارداً .. كأن احداً لم يرقد فيه تلك الليلة .

وقالت مأخوذة مستطارة اللب : - كيف ؟ .. اين هي ! ؟ لعلها ذهبت في مثل هذا الليل المثلج .. والى اين ؟ ..

وكاد قلبها يثب من بين حناياها . ورأت ان تسير الى جوليان فتوقظه ليبحثا عن الفتاة . وبلغت غرفته فولجتها بعنف يدفعها شعورها المبهم بانها ستموت .. ستفقد ادراكها ... فلا بد لها من رؤيته قبل ذلك ..

وعلى وميض اللهب المحشرج في الموقد لمحت ، الى جانب رأس زوجها ، فوق الوسادة ، رأس روزالي ! واطلقت صرخة هائلة وثب لها الاثنان مذعورين وجمدا لحظة لهول المفاجأة ... اما هي فقد لاذت بالفرار كأن مشبحاً مريعاً يمعن في مطاردتها ... وناداها جوليان وهو يكاد يفقد صوابه فشعرت قشعريرة هائلة اذ طرق صوته اذنيها .. انه سيختلق الاكاذيب ليفسر تصرفاته .. انها لا تريد ان تراه ... وعادت تنطلق هابطة السلم ...

وركضت في الظلام بكل قواها معرضة نفسها للسقوط فوق الدرجات ... انطلقت الى الامام تحثها رغبتها في الهرب فهي لا تود رؤية شيء او سماع شيء

وبلغت اسفل القصر فتهالكت فوق احدى الدرجات ، بقميص نومها ، عارية القدمين ، شاردة اللب مضعضعة الحواس ....

ووثب جوليان وارتدى ثيابه بسرعة واندفع يهبط السلم في اثرها وهو يصرخ:

- اصغي الي يا جان ..

كلا انها لا تريد الاصغاء اليه ولن تسمح له بعد اليوم ان يمسها بطرف اصبعه. واسرعت تختبيء في غرفة المائدة كأنها تفر من مجرم قاتل . كانت تبحث عن مكان تتوارى فيه ، عن مخبأ ، عن زاوية مظلمة عن سبيل تتحاشاه فيه . ولم تجد سوى المائدة فانزلقت تحتها . وفتح الباب والمصباح بيده وهو لا ينفك ينادي : - جان .

ووثبت خفيفة كالارنب ولجأت الى المطبخ فدارت فيه مرتين كأنها الحيوان الحبيس الا انها وجدت نفسها ، بغتة ، امامه وجهاً لوجه ... وفتحت باب الحديقة وانطلقت في الارض الفضاء ...

كانت تغوص باقدامها العارية في الثلج حتى ركبتيها . وكان لهذا الاحتكاك بالغ الاثر في بث النشاط اليائس في نفسها . لم تحس برداً بالرغم من انها تكاد تكون عارية فهي ، في استغراق روحي قوي طغى على مشاعرها فبلد احساسانها .. كانت تمدو بيضاء كالثلج .. فوق الثلج الابيض .

وسارت باتجاه الممر العريض فاجتازت الحديقة ثم عبرت المرج ...

لم يكن في السماء قمر . الا ان النجوم كانت تلتمع كأنها جذوات نـــار مبثوثة في صفحة السماء القاتمة والسهل منور بضوء شاحب وصمت عميق يجثم فوقـــه وسكون مطبق يهيم عليه .

وتابعت جان سيرها لا تلوي على شيء ولا تفكر بشيء . ووجدت نفسهـا فجأة على الشاطيء الصخري . وتوقفت بحركة غريزية خالية الذهن من كل فكرة مجردة من كل ارادة .

كان البحر ينبسط امامها من خلال انفراج الصخور غير واضح المعالم ، تفوح منه رائحة ملحة وقد تقلص ماؤه عن اليابسة بفعل الجزر .

اقامت هنالك طويلاً في جمود فكر وسكون جسد . وشرعت ترتعش فجأة.. ارتعشت بجنون كأنها شراع في مهب ريح صرصر . كانت قوة غير منظورة ترجف يديها وساقيها ارتجافات عنيفة مفاجئة . وعاودها الادراك ، بغتة ، واضحاً جلياً ..

وعبرت أمام ناظريها مشاهد قديمة التـــاريخ .. نزهتها معه في زورق الاب لستيك .. حديثها .تعميد السفينة .. وسايرت ذكرياتها حتى بلغت بها تلك الليلة حيث هدهدتها الأحلام اثر نزولها في (بوبل) .. اما الآن .. الآن .. لقد حطم حياتها .. لقد انتهى كل سرور وانقضت كل سعادة .. وكل أمل أضحى مستحيلاً .. بالمستقبل المفعم بالآلام ! انه غد مفعم خيانة ويأساً ! فياليتها ماتت وانقضى بموتها كل هذا الشقاء !

وصك سمعها صوت آت من بعيد : ـ هنا .. هنا .. هذه خطاها .. سريعاً من هنا .. سريعاً . انه جوليان يجد في طلبها ..

آه ! انها لاتود رؤيته .. وطرق سمعها هدير الموج البهيم يصخب تحت الصخور .. ونهضت وتحفزت للوثوب .. شاءت ان تودع الحياة وداع اليائس المظلوم .. فند عن صدرها أنين كأنين المحتضر .. فكأنها جندي تثقب صدره الحراب في المعمعة .. ولم تستطع النبث بسوى كلمة واحدة .. قصيرة .. مقتضبة .. ـ أمي !

وسرعان ماعبرت ذكرى امها في خلدها . فرأتها بعين خيالهـــا تنتحب .. ورأت اباها راكعاً فوق جثتها الغريق .. وادركت حينئذ مبلغ اليأس القتال الذي ستسببه لها .. لهذين الكائنين العزيزين ..

وتراخت كل عضلة فيها . وانهارت فوق الثلج كأنها البناء الواهي الدعائم .. ولم تسعفها قواها بالهرب عندما أدركها جوليان والاب سيمون وماريوس يحملون المصابيح . فبادروا اليها وحملوها بذراعيها ليبتعدوا بها عن الامواج التي كانت منها قيد أنملة ..

واستسلمت اليهم لاتبدي ولا تعيد . فليفعلوا بها مايحلو لهم . وشعرت بهم يسيرون بها ثم يلقون بها فوق سريرها .. ثم راحوا يدلكون جسمها باقمشة حارة .. وامحى بعد ذلك كل شيء من ذهنها .. وفقدت كل ادراك ..

وبزغ النهار .. ولم تستطع جان مغادرة فراشها فهي تحس كابوساً مريعاً يجثم فوق صدرها الواهي يكاد يكتم انفاسهـــا .. مابها ؟ ماذا دهاها ؟ لم تحر جوابا ؟ وعاودتها الغيبوبة .. ورأت فيما يرى النائم فأراً يخرج من جحر في الجدار ويثب فوق سريرها ثم يتلوه ثان فثالث فرابع .. وأخيراً يغطي خيش لجب من الفئران كل مافي غرفتها وينزلق بعضه تحت غطائها فيحتك بجسدها فتعتريها قشعريرة مؤذية وتمد يدها الى الفئران محاولة القبض على بعضها الا ان راحتها تنطبق دائماً على هواء .. انها تكاد تختنق .. ليتها تقوى على الفرار .. وندت عن صدرها صرخة حادة وخالت ان ثمة من يشد بها فيسمرها في سريرها فلا تستطيع حراكاً .. انهـا تشعر باذرع قوية تكبلها وتشل كل حركة من حركاتها .. وتفرست في الفراغ ... ولكنها لم تر أحداً ..

. واستفاقت .. استفاقت محطمة الاعصاب ، مضعضعة الحواس ، رازحة تحت ثقل الم مضن .. وادركها شيء من هدوء بعد ذلك فاستكانت اليه .. وفتحت عينيها ولم تدهشها رؤية امها الى جانب سريرها ... ورأت كذلك ، الى قرب امها، رجلاً ضخم الجثة لم يكن لها به عهد من قبل .

كم كان لها من العمر ؟ ليست تدري !.. وخالت نفسها مازالت طفلة حدثة تحبو .. لقد فرغ رأسها من كل ذكرياتها .. تبخرت .. اضمحلت .. ذهبت مع الريح ..

وتكلم الرجل الضخم : ـ هدئي روعك ياسيدتي البارونة . ها ان بمقدوري اجابتك الآن .. ولكن ينبغي الا يكلمها احد الآن .. يجب ان ترقد .

وحاولت جان ان تفكر فشعرت كأن نعاساً ثقيلاً يبهظ جفنيها .. كأنها قضت شهوراً طويلة غارقة في لجة السبات .. لم تحاول تذكر شيء اطلاقاً .. فكأن خوفاً مبهماً يحيد بها عن مواجهة حقيقة مرة ستعود الى مخيلتها .. وعادت تغرق في عدم ادراك بعيد الغور فاقدة كل حس ..

كم طالت بها هذه الغيبوبة ؟.. ليست تدري .. وفتحت عينيها لتقعا على جوليان .. كان وحده الى قربها .. واستعادت فجأة كل شيء .. لقد انزاح الستار الكثيف الذي كان يحجب عن عيني عقلها كل حياتها الماضية .

وعصف بفؤادها الم هائل عضاض فودت لو تفر من وجه هذا الرجل .. فدفعت باغطيتها بحركة مذعورة ووثبت من سريرها لتسقط فوق الارض لأن ساقيها لم تقويا على حملها ..

واندفع اليها جوليان . فراحت تزمجر وهي تذبه عنها متحاشية مسه فتدحرجت بكل جسمها فوق البلاط .. وفتح الباب .. وخفت اليها الخالة ليزون والارملة دانتو ثم ابوها واخيراً وصلت امها لاهثة الانفاس ضائعة اللب .

واعادوها الى فراشها فاغلقت جفنيها حالاً كيما تفكر على هواها ..

وانهمكت امها وخالتها بالعناية بها . وسألتاها : - او تسمعينا .. ياجان .. ياجان الصغيرة .. ياصغيرتنا العزيزة جان ..

وتظاهرت بالصمم فلم تحر جوابا . وتأكدت من ان النهار يلفظ انفاسه والليل يرخي على الكون سدوله . ولم يغادرها اهلها . فهم الى سريرها كالحرس الشاكي الحراب . وبين الفينة والاخرى كانوا يناولونها ما تشرب .. فكانت تتناول الكأس لاتنبث ولا تختلج فيها جارحة .. وجفاها النوم فلا يعقد اجفانها ابداً .. كانت تفكر بعناء . باحثة عن اشياء اخطأتها ذاكرتها كأن ثقوبا قد حدثت في كيان هذه الذاكرة فظلت بقعاً بيضاء ولم يسجل فوقها شيء ابداً ..

وشيئاً فشيئاً ، وبعد جهود مضنية ، استعادت كل ماحدث لها ..

وشرعت تفكر باستغراق ثابت ..

لقد استقدموا اباها وامها والخالة ليزون .. فلا بد ان يكون مرضها خطيراً .. ولكن جوليان ؟ ماتراه قال لهم ؟ او علم اهلها بحقيقة الموقف ؟ وروزالي ؟ أين تراها الآن ؟ ماعليهـــا هي ، جان ، الزوجة المخدوعة ، ان تفعل الآن ؟ ماذا تفعل يا الله ؟

واستنار عقلها بفكرة برزت من العدم : تعود مع ابويها الى روان كفعلها قبل ان تتزوج ، وستعيش كارملة . هذا كل ما في الامر .

وانتظرت وقد اعارت اذنيها لكل مايتردد حولها ففهمت كل شيء دون ان يبدو عليها انها فعلت . وكتمت خبر عودة ادراكها .. فكانت جلدة مخاتلة !..

ووجدت نفسها ، مساء ذلك اليوم ، منفردة بامها فنادتها بصوت خفيض :- امي الصغيرة !

واستغربت صوتها هي نفسها فقد بلغ اذنيها كأنه صوت انسان آخر .

وتناولت الأم راحة فتاتها وقالت بصوت يذوب حنواً وانعطافاً :

- جان ! يابنيتي العزيزة ! ياصغيرتي جان ! أتعرفينني ؟..

- اجل يا اماه .. ولكن لاتبكي فلدي ما اسره لك .. وهو كثير ..

هل اصدقكم جوليان الخبر ؟ هل قال لكم لماذا فررت الى الثلج ؟

ـ اجل ياجميلتي .. فقد دهمتك حمى خطيرة ..

ـ ليس هذا هو السبب ياأماه . اما الحمى فقد اصبت بها بعد ذلك . ولكن الم يقل لكم من الذي سبب لي تلك الحمى ولماذا فررت وتوغلت في الليل والثلج ؟..

ـ كلا ياحبيبتي .

ـ سأقول لكم بنفسي اذاً : لقد ضبطت روزالي الخادمة في فراش جوليان ... زوجي !..

وخيل للبارونة ان ابنتها جان ماتزال على هذيانها . فعمدت الى مداعبتها قائلة:

ـ هدئي من روعك .. نامي .. نامي ياحبوبتي .. حاولي ان تنامي ..

الا ان جان عادت تقول باصرار :ـ لقد استعدت كل قواي العقلية في هذه اللحظة فانا لا اهرف باقوال جنونية شأني في ايام مرضي الاول :لقد ادركني مرض ذات مساء . فدعوت جوليان . وسرت الى غرفته في صميم الليل فاذ بي أجد روزالي في سريره فاضاعت الصدمة صوابي فانطلقت في الثلج ابغي القاء نفسي من فوق صخور الشاطيء..

وعادت البارونة تقول غير مقتنعة : ـ أجل ياحبيبتي ... لقد كان مرضك شديداً ..

ـ ليس هذا هو السبب يا اماه . اقول لك اني ضبطت روزالي في فراش جوليان .. وانا ارفض العيش مع هذا الخائن المنحط .. ستعودان بي الى روان كما كنا نفعل في الماضي ..

وعملاً بنصيحة الطبيب لم تعارض البارونة : ـ كما تشائين ياحبوبتي ..

وأوشكت المريضة ان تفقد صبرها : ـ أرى جيداً انك لاتريدين تصديقي . ادعي والدي فهو يصدقني اخيراً .

ونهضت الام بتثاقل وتناولت عصويها وخرجت تجر قدميها ولم تلبث ان عادت يصحبها البارون وهي تتوكا عليه .

وما استقر بهما المقام حتى شرعت جان تتكلم : روت لهما كل شيء ، اخلاق جوليان الشرسة ، طباعه الفظة ، خشونته ، بخله .. وانتهت بان وصفت لهم حادث الخيانة الذي زلزل كيانها وافقدها صبرها عليه .

وما فرغت من كلامها حتى كانا قد اقتنعا من انها لاتهزي .. واحتار البارون بامره .. فما تراه فاعلاً ؟ بم يجيب ابنته ؟

وتناول يدها بحنو كما كان يفعل في الماضي اذ يرقدها في سريرهـــا ويروي لها القصص :

- اصغي الي ياحبيبتي . ينبغي لنا ان نتصرف بحكمة فلا نتسرع ، أما انت فعليك ان تتظاهري باحتمال كل شيء حتى نتخذ في المسألة قرارنا .. اتعدينني بذلك؟

وتمتمت : - لابأس برأيك ياابتاه .. ولكني لن اقيم واياه تحت سقف واحد لحظة بعد ابلالي مما انا فيه .. ثم اضافت بصوت خفيض : - أين هي روزالي الآن ؟..

فاجاب البارون : - لن تقع منك عليها عين .

فعادت تقول بلهفة : - ولكن أين هي ، يجب ان اعرف ماحل بها .

واعترف لها ان الخادمة لم تغادر القصر بعد الا انها ستطرد قريباً شر طردة

وما خرجا من غرفة المريضة حتى بدا البارون يحرق الارم غيظاً وحنقـاً وجرح قلبه ، قلب الاب ، ينزو دماً ومشى الى لقاء جوليان وباغته بقوله :- جئت ياسيدي اسألك حساباً عن تصرفاتك حيال ابنتي لقد خنتها مع خادمتها ، انه عمل مزدوج الحقارة .

ومثل جوليان دور البريء المظلوم فانكر واصر على الانـكار واستشهد الله على ذلك . اي دليل لديهم ؟ اولم تكن جان مجنونة ؟ او لم تصب بحمى دماغية ؟ الم تهرب فوق الثلج ذات ليلة اذ دهمتها نوبة صرع وهي في بدء مرضها ؟ واثنــــاء هذه الازمة العصبية العقلية هبت تطوف ارجاء البيت شبه عارية وقد خيل لهــــا جنونها انها رأت خادمتها في أحضان زوجها ! هذا كل ما في الامر ...

وغضب جوليان . وهدد بفتح تحقيق ، وظهر بمظهر البريء المهـان المهدور الكرامة ظلماً وعدواناً . . .

وتراجع البارون امام هجوم صهره المعاكس ، وعمد الى الاعتذار والاستغفار ومد يده لصهره فرفض هذا الاخير تناولها .

ونقل البارون جواب الزوج الى جان فلم تغضب بل اجابت : انه يكذب يا ابتي غير اني سأنتهي باقناعه انه لاجدوى من كذبه .

ومرت عليها ليلتان وهي نهب للقلق والتفكير والتأمل .

وابدت في اليوم الثالث رغبتهـا برؤية روزالي . الا ان البارون رفض استقدام الوصيفة مدعياً انها ذهبت . ولم يقنع زعمه جان فقالت : ـ ليذهب أحد فيأتي بها من حيث تكون .

ودخل الطبيب فاعترى جان اضطراب .. فحدثوه بكل شيء وطلبوا اليه حكمه . وانخرطت جان في البكاء وقد ثارت اعصابها كما لم يحدث لها ذلك من قبل . كانت تردد في شبه صراخ :

ـ اريد رؤية روزالي ، اريد رؤيتها ..

وتناول الطبيب كفها وخاطبها بصوت خفيض النبرات : ـ هدئي روعك ياسيدتي . ان كل ثورة قد تؤدي الى نتائج خطيرة .. فانت .. حامل ..

وجمدت كأن لكمة هائلة صرعتها وخيل اليها ان شيئاً بدأ يضطرب في احشائها فوراً .. ثم لزمت الصمت وانصرفت عن الاصغاء الى مايقال حولها وقد غارت حواسها في لجج افـكارها الجائشة . وجفاها الرقاد ليلتها تلك وقد ارقتها افـكارها .. فهذا الجنين الحي المضطرب في احشائها .. ماهو الا ابن جوليان ! ياللمصير التعس !..

ودعت اباها ذات يوم وقالت : ـ لقد حزمت امري جيداً يا ابتاه ! اريد معرفة كل شيء ! والآن دون اي وقت آخر ! اتسمع ؟! اريد ! وانت لاتجهل ان معاندتي ، وانا على ما أنا عليه ، تجر الوبال .. اصغ الي جيداً . ستذهب وتأتي

بالـكاهن . اني بحاجة اليه كيما احول دون روزالي والكذب ، وما ان يحضر حتى تأتيني بها هي الاخرى وستكون انت وامي حاضرين لتسمعا بآذانكما ، وحذار ان يرتاب جوليان في شيء .

مامضت ساعة حتى كان الـكاهن قد دخل غرفة المريضة لاهث الانفاس ،فهو كالبارونة ، يشكو السمنة. وما استقر به المكان حتى شرع يمازح جان حول موضوع الحدث السعيد المنتظر راجياً ان يكون المولود غلاماً ليسهم بنصيب في الذب عن حياض الوطن .

ولم يلبث الباب ان انفتح ، وبدت على عتبة روزالي ، مضعضعة الحواس ، دامعة العينين ، تقاوم في الدخول متشبثة بحاجز الباب ، وفرغ صبر البارون من مقاومتها فدفعها بجماع يديه دفعة القت بها في وسط الغرفة متدحرجة بين الاقدام.. غير انها استقامت وغطت عينيها براحتيها وشرعت تنشج :

أما جان فما وقعت عيناها على غريمتها حتى انتفضت واقفة ثم عادت فجلست وقد ابيض وجهها حتى حاكي لونه لون اغطية فراشها .. وعلا وجيب قلبها حتى حركت نبضاته القميص الرقيق اللاصق بجسمها . لم تفه بكلمة . فهي تتنفس بصعوبة كلية .. حتى لـكأنها تختنق .. واخيراً استطاعت ان تقول بصوت تقطعه الزفرات :ـ لم تعد بي حاجة لسؤالك .. حسبي خجلك وصغارك وموقفك المهين أمامي ..

وتابعت بعد فترة صمت فرضها عليها اضطرابها المتفاقم : ـ اني اود معرفة كل شيء .. كل شيء .. لقد استقدمت الـكاهن كيما يكون قولك بمثابة اعتراف .. اتسمعين ؟!

كانت روزالي جامدة كأنها سمرت الى الارض ،وبدأت تطلق ، بين راحتيها، صرخات قصاراً وزفرات حارة .

وقبض البارون على ذراعها وقد استبد به الغضب وهزها بعنف ثم القى بها الى الارض فسقطت على ركبتيها أمام سرير سيدتها ، وصاح بها : ـ تكلمي ا.. اجيبي !

واستكانت في جثوها كأنها أمام مذبح .. وكانت قبعتها قد سقطت الى قربها كما طارت مريلتها فوق البلاط .. ثم عادت فغطت محياها بيدها من جديد .

ووجه اليها الكاهن الكلام عندئذ قائلاً : - هيا .. يابنيتي !! اصغي الى مايقال لك واجيبي نحن لانبغي الحاق اي اذى بك انما نود معرفة ماحدث .

وتطاولت جان عبر فراشها وراحت تتأمل الوصيفة المسكينة .. وقالت :

- أصحيح انك كنت في سرير جوليان عندما فاجئتك ؟

وانت روزالي من خلال راحتيها : - صحيح ياسيدتي .

وعلا بكاء البارونة فجأة .. واختنق صوتها بالزفرات حتى فاقت بتنهداتها التشنجية روزالي المسكينة وعادت جان تسأل من جديد وعيناها لاتفارقان الوصيفة :

- الى متى يرجع تاريخ هذه العلاقة ؟

وجمجمت روزالي مجيبة :- الى يوم جاء الى القصر ..

ولم تفهم جان فاستوضحت :- يوم جاء ؟ .. اذاً .. منذ الربيع ؟ ..

- اجل ياسيدتي ..

- منذ ان دخل هذا المنزل ؟

- اجل ياسيدتي ..

ومضت جان تسأل بصوت ملح فكأن الاسئلة تتدافع الى طرف لسانها تدافعاً :

- ولكن .. كيف حدث ذلك ؟ كيف طاب اليك ذلك؟ كيف امتلكك؟ ماذا قال لك ؟ ومتى وكيف استسلمت اليه ؟ كيف استطعت اعطاءه جسدك ؟

وازاحت روزالي راحتيها من فوق وجهها وقد ادركتها هي الاخرى رغبة في الكلام ، في الافضاء بكل شيء ، في الاعتراف .. :- حدث ذلك يوم يوم تعشى هنا للمرة الاولى ، فقد جاء الى غرفتي واختبأ في مستودع المؤونة .. وفاجأني فلم اجرؤ على الصياح كي لا اخلق المتاعب .. وقضى ليلته في فراشي .. لم اكن اعرف تماماً ماينبغي عمله في تلك الساعة .. وقضى مني لبانته .. لم أقل شيئاً لاني استلطفت فعلته تلك ! ..

وندت عن صدر جان صرخة هائلة ..

ـ ولكن .. ولدك .. طفلك .. اهو منه ؟

واجابت روزالي منتحبة : ـ أجل ياسيدتي .

ولاذت المرأتان باذيال الصمت .

ولم يعد يعكر السكون سوى بكاء روزالي ونشيج البارونة ..

وشعرت جان بعينها تقبضان وقد جثم فوق صدرهـا هم مريع .. وسالت الدموع بصمت فوق وجنتيها .

ان لطفلها وطفل خادمتها اباً واحداً .. وانهار فيها غضبها . وحل مكانه يأس قاتم اجتاح كيانها بطيئاً ، عميقاً ، لامتناهياً .

وعادت تقول وقد تغير منها الصوت ، وبللته الدموع : ـ ولما عدنا من هنالك .. من شهر العسل .. متى عاودتما فعلتكما ؟

وتمتمت الخادم الصغيرة وقد تخاذلت وانهارت الى الارض : ـ في الليلة .. الاولى .. جاءني . كانت كل كلمة تقال تثخن قلب جان ..

هكذا اذاً .. في الليلة الاولى .. ليلة عودتهما من شهر العسل ، هجرها الى هذه البغية .. من اجل هذه الخادمة تركها تنام وحيدة تلك الليلة ..

لقد عرفت ما كانت تود معرفته . أجل لقد عرفت ما فيه الكفاية .. لم تعد بها رغبة لمعرفة المزيد وصرخت بالفتاة الذائبة صغاراً : ـ اغربي !! اغربي !

ولم تتحرك روزالي .. كانت منهارة متخاذلة تماماً . فنادت جان اباها :

ـ خذها .. انصرف بها ..

ووجد الكاهن ، الذي كان حتى تلك اللحظة لائذاً بالصمت ، السانحة مناسبة لالقاء موعظة :

ـ ان ما اقدمتي عليه يابنيتي ميء جداً . والله العزيز لن يغفر لك سريعاً ، فكري بالجحيم الذي ينتظرك اذا لم تنتهجي بعد اليوم نهجاً مستقيماً ، اما الآن ، وانت أم لطفل ، فعليك السير على غير هذا السبيل ، وسيدتي البارونة لن تتخلى

عنك وسنتكاتف لايجاد زوج لك . لقد طال به الكلام وازجاء النصح ، وما فرغ حتى تناول البارون روزالي من منكبيها وجرها حتى الباب ثم دفع بها الى الممر كأنها غرارة أو حطام ..

وعاد الكاهن يقول اذ دخل البارون وقد فاق ابنته شحوباً :

- ماذا تريد ، ان اغلب النساء في هذه المنطقة على هذه الشاكلة ، انه تحل من الله ! ولكن ماذا بوسعنا ان نفعل؟ لابد للضعف البشري من بعض المداراة.. وقلما تتزوج فتاة دون أن يسبق لها الحمل والوضع !.. هكذا دائماً ياسيدتي ..

وأضاف باسماً : - حتى ليخيل الى المرء انها عادة متبعة هذه الحالة الذميمة .

ثم تابع بصوت ينضح احتقاراً : - وحتى الاطفال .. يفعلون مثل هذا !.. ألم اعثر ، في السنة الماضية ، بين المقابر ، على طفلين من صف التعليم الديني .. صبي وبنت! واخطرت أهلها ! اتدرون ما كان جوابهم ؟ : - ماذا تريد ياسيدي الكاهن لسنا من لقنها هذه العادة القذرة ! اننا لانستطيع حيالها شيئا .. وهاهي خادمتك، ياسيدتي ، تسير على غرار الآخرين ..

بيد ان البارون قاطعه محتداً : - هي ؟! ماذا يهمني ! لتذهب الى الشيطان ! ان جوليان هو الذي يصمنا بالعـــار ! ان في عمله منتهى الصغار ، لن اترك ابنتي لنذل مثله ...

ثم نهض يذرع الغرفة ناثراً اقواله النارية :

- باللحطة ! بهذا الشكل الفاضح يخدع ابنتي ! انه عاهر هذا الرجل ! انه حقير! سافل ! تعس !.. سأجبهه بهذه الصفات .. سأضربه .. سأصفعه .. سأميته تحت عصاي هذه !..

غير ان الكاهن الذي كان قد انصرف الى عب التبغ بالقرب من البـــارونة المنتحبة ، شاء اتمام مهمته الاصلاحية فقال :

- اصغ الي ياسيدي البارون ، والكلام بيننا ، لم يفعل صهرك الا مايفعله جميع الناس .. او تعرف الكثير من الازواج المخلصين ؟..

واضاف بطيبة خبيثة : - دعنا .. اني اراهن انك انت الآخر ، مثلا ، فعلت يوماً فعلته .. ها أنا ارفع يدي واحلفك بشرفك .. أليس هذا صحيحاً ؟

وتوقف البارون أمام الكاهن ، فتابع هذا الاخير : أجل ، يابني ، لقد فعلت كالآخرين .. من يدري فقد تكون ، انت الآخر ، قد أغويت خادمة صغيرة كهذه .. ان كل الناس يفعلون ذلك اقول لك ، وزوجتك ؟.. أأثر ذلك على سعادتها او حبها ؟.. كلا طبعاً .. اليس كذلك ؟..

كان البارون بالغ الاضطراب فلم يبد حراكاً ..

بالسماء ! ان ماقاله الكاهن صحيح .. لقد حدث له ان فعل فعلة صهره ! ومراراً أيضاً ! وكلما استطاع الى ذلك سبيلاً .. انه لم يحترم مطلقاً الحقوق الزوجية وهو لم يحجم مطلقاً عن اغواء وصيفات زوجته اذا كن جميلات ! أتراه ، بسبب ذلك شقياً ؟ ولم يحكم بمثل هذه القسوة على سلوك جوليان في الوقت الذي لم يحكم أحد عليه ، ولم يحكم هو على نفسه ، مثل هذا الحكم ..

وعبر بشفتي البارونة ظل ابتسامة اذ عادت بها الذكرى الى صبوات زوجها فهي من عرق عاطفي بالسليقة فسرعان ماتحن وتصبو فالمغامرات العاطفية ، في نظرها ، جزء الوجود الحلو ..

كانت جان غارقة في بحران افكارها الواخزة ، منهارة الأعصاب ، بلهاء النظرات ، مستلقية فوق ظهرها ، مصالبة ذراعيها فوق صدرها ، وهي تجتر بعض أقوال روزالي فتخترق صدرها كالنصال الرهيفة وتوغل في سويداء قلبها كالسهام المراشة : « اما أنا فلم اعترض .. لأني استلطفت فعلته تلك » انها هي ، جان ، قد استلطفته ! ومن أجل ذلك فقط ربطت مصيرها بمصيره مدى الحياة ، فكان حبه مهوى فؤادها ومناط أملها دون غيره من الأماني العراض .. فتخلت من اجله ، عن كل ماعقدت على غدها المأمول من آمال .. لقد انزلقت في هذا الزواج ، هذه الهاوية الفاغرة الاشداق لتصل الى مثل هذا الشقاء المقيم .. هذا اليأس المرير .. كل هذا لأن روزالي قد « استلطفت » زوجها !..

وفتح الباب بركلة غاضبة . وظهر جوليان ! كانت هيئته مخوفة . لقد وقع نظره على روزالي في الممشى تئن ففهم ان ثمة اشياء تجري في الخفاء ، وان الفتـــاة قد فضحت السر المكنون . وما وقعت عيناه على الـكاهن حتى سمر في مكانه .

وسأل بصوت راعش الا انه هادىء النبرات :ـ ماذا ؟ ماذا يجري هنا ؟

ولم يجرؤ البارون الثائر منذ لحظة على قول شيء وقد خشي ماقاله الـكاهن والمثل الذي اتخذه حول الحادث وعلا صوت الام اعلى من السابق ، ورفعت جان جذعها فوق ذراعيها ونظرت الى زوجها لاهثة النفس .. أجل لقد واجهته بنظر لايريم .. زوجها ? بل هو مبعث آلامها ومصمي فؤادهـــا بهذا الشقاء الهائل الذي لايطاق .

قالت في شبه صراخ :ـ ماذا يجري !؟ لقد برح الخفاء ! عرفنا كل شيء ! خيانتك وسفالتك .. منذ اليوم الذي وطأت فيه قدماك هذا البيت .. علمنا ان طفل الخادمة ابن السفاح ، هو ابنك .. شأنه في ذلك شأن طفلي انا .. انهما اخوان !..

مابلغت من كلامها هذا الحد حتى غمرتها موجة ألم عاتية كاسحة فانحطت فوق فراشها وراحت تنشج بجنون ..

أما جوليان فقد جمد في مكانه لايدري مايفعل او مايقول ، وتدخل الـكاهن من جديد :

ـ لا ، لا ، ليس لنا ان نجلب لانفسنا كل هذه المتاعب التي لاأرى لها مبرراً، كوني عاقلة ياسيدتي ، ارحمي صباك ، ارحمي جنينك ان لم ترحمي نفسك !

ومشى الى السرير والقى بكفه الفاتر فوق جبهة الزوجة الباكية ، الضائعة الأمل ، وكان لهذه اللمسة من يد رحيمة حانية فعلها السحري فاشاعت في اعصابها المتوترة برداً وسلاماً ..

وعاد الرجل الطيب يقول وقد استمر في وقوفه بالقرب من السرير :

ـ ينبغي ان تسامحي جهد طاقتك ياسيدتي ، انه شقاء عظيم هـذا الذي نزل ساحتك الا ان الله قد عوض عليك آلامك كرماً منه واحساناً ، فها انت ستصبحين

اماً . وسيكون لك بوليدك عزاء وسلوى ، وانا ، باسم العلي القدير ، اطلب اليك ان تغفري ، احلفك ان تسامحي .. ان تتناسي خطيئة السيد جوليان .. سيشدكما ، بطفلكما المرتقب ، رباط لاتنفصم له عرى .. وسيكون منه لزوجك رادع عن الانغماس في الموبقات في آتيات الايام ! لا . لا . ياسيدتي لن تستطيعي الانفصال عن علة وجود هذا المخلوق المضطرب في احشائك ..

ولاذت جان بصمت عميق الغور . كانت مضعضعة الفكر ، مثخنة القلب ، منهارة القوى .. انها لاتقوى على شيء .. حتى على الغضب والحقد والكراهية .. أجل انها لأعجز من ان تغضب أو تحقد أو تكره ..

وخيل اليها ان اعصابها قد استرخت ثم جاء نصل رهيف فقطعها بهدوء .. فهي لاتكاد تشعر بتردد أنفاس الحياة بين جنبيها . اما البارونة ، وقد استنزفت كل قدرة على الاحتمال ، فاكتفت بالقول :

ــ حسنا ياجان .

ودنا الكاهن من جوليان فتناول يده وقاده الى سرير زوجته ووضع اليد في راحتها وربت فوق الراحتين كأنه يربط بينهما برباط جديد لمدى الحياة . ومضى يقول وقد تخلى عن لهجته الواعظة المعلمة :

ــ دعنا لقد انتهى كل شيء .. اؤكد لكما ان هذا خير وابقى ..

وافترقت الراحتان فجأة بعد ان تماستا فترة قصيرة . ولم يجرؤ جوليان على تقبيل زوجته فاكتفي بطبع قبلة على جبهة حماته وقد تركته يفعل دون مقاومة . اما هو فقد اشرق وجهه سعادة بهذه النهـــاية التي تمت بمثل هذه السرعة .. وخرج الرجال سوية لتدخين لفافة ..

ومضت المريضة تجتر آلامها بينما انصرف الكاهن الى الثرثرة مع البـــارونة شارحاً لها افكاراً جالت في خلده اما هي فكانت توافق دائماً على أقواله بانحنـــاء متتابع من رأسها الأشيب .

وخلص الى القول اخيراً : ـ اذاً فانت توافقين . ستمنحي هذه البنية حقل

(بارفيل) وسأهتم انا بايجاد زوج لها وسيكون شابا نشيطا فقيراً ! آه . مع بائنة تبلغ عشرين الفاً من الفرنكات لانعدم هاوياً .. وأؤكد لك ان الحيرة ستدركنا عند الاختيار !

وعادت سيا السعادة ترتسم على محيا البارونة فيبتسم ثغرها وترقص عيناها ولم يبق من آثار أحزانها السابقة سوى دمعتين استقرتا فوق منتصف وجنتيها لاتبرحان وقد جف الخط الرطب فلا تنزلقان فوقه ..

وألح في القول : ـ اتفقنا . ان حقل بارفيل يساوي ، على اقل تقدير ، عشرين الفاً ولكن سيبقى ملكاً للطفل وسيتمتع الابوان بخيراته ما داما على قيد الحياة.

ونهض الكاهن وضغط يد البارونة : ـ لاتنزعجي ياسيدتي البارونة .. لاتنزعجي .. فانا اعرف ماتتطلب كل خطوة من دراية وحنكة .

والتقى ، لدى خروجه بالخالة ليزون ، آتية تعود مريضتها دون ان تفطن الى شيء مما يجري كما ان احداً لم يتكبد عناء اطلاعها على شيء فهي تجهل كل ملابسات القضية شأنها حيال كل مايجري في كل مكان ..

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

الكتاب الثاني

الفصل الأول

غادرت روزالي القصر بينما كانت جان تستكمل ايام حملها بالفة التألم ، متفاقمة الاوجاع ، انها ، اذ تفكر بانها ستصبح اما ، لا تشعر باية لذة او اية راحـة . لقد اثخنت فيها الاحزان الممزقة وانهكتها الآلام المبرحة . فاقامت تنتظر طفلها العتيد لا يهزها اي شوق الى رؤيته فهي ابداً مطوية الجناحين على جراح قلبهـــا التي لا تعرف الاندمال ..

وعاد الربيع الطلق يختال محرراً اذ ياله الفتانة الوشي الاريجة النشر .. فكان نسيمه العبق يهز الاشجار ولما تكتسي بعد زمرده المعطار .. بيد ان السوسن بدأ يتفتح في المنعطفات الكاسية عشباً ندياً فوق جثث اوراق الخريف المنصرم !

وكانت امرأة ضخمة الجرم كأنها البرج المشيد قد حلت مكان روزالي تساعد البارونة على القيام بنزهتها المعتادة في الممشى اياه . وكان البارون يسند بذراعـــه جان المثقلة بحملها الدائمة الشكوى والتألم . اما الخالة ليزون فكان لها ، من الطفل العتيد ، شغل شاغل .. ولشد ما اقلقها هذا السر الغريب ، سرُ الحمل ، المحرم عليها ..

ومضوا في نزهتهم وقد جثم فوقهم صمت ثقيل بينما كان جوليان لاينفك يطوف في المنطقة ممتطياً جواده وكانت عادة هذه النزهات الخلوية قـــد استبدت بـه في الفترة الاخيرة .

ومضت مدة لا يعكر صفو حياتهم الرتيبة تلك معكر . وكان البارون وزوجته وصهرهما قد قاما بزيارة آل « فورفيل » وقد بدا كأن جوليان قد وطد معهم اواصر صداقة متينة دون ان يعني بشرح ذلك لاحد وكذلك قصدوا آل « بريسفيل » في زيارة مجاملة .

وذات مساء دخل الحوش المحيط بالقصر فارسان مهرولان . امرأه ورجل . وخف جوليان ، بالغ الانهاك ، الى زوجته وناداهـا : ــ هيا . هيا . اسرعي بالنزول . ان (آل فورفيل) عنـدنا . لقد كانا يقومان بنزهتهما فاتصل بهما انك مريضة فجاءا يعودانك . قولي لهما اني خرجت ولن البث ان اعود . سأنظم شيئاً من شأني .

ونزلت جان مستغربة هذه الزيارة . وقدمت اليها الضيفة زوجها . اما المرأة ــ مدام فورفيل ــ فشاحبة المحيا ، وسيمة التقاطيع حزينتها ، ذات عينين مكسرتي الاهداب وشعرها على شقرة فاقعة كأنه لم يتعرض للشمس قط . اما الزوج فعملاق ذو شاربين اشقرين كبيرين .

قالت المرأة :ــ لقد اسعدنا الحظ مراراً بلقاء السيد دي لامار . وقد حدثنا بما انت عليه من مرض فلم نشأ ان نتأخر اكثر من ذلك فنأتيك نعودك بصفتنا جيراناً لكم وانت تلاحظين اننا قد تجاوزنا في ذلك حدود الرسميات . ولقد سعدنا ، فضلاً عن ذلك ، بزيارة والدك ووالدتك منذ بضعة ايام .

كانت تتكلم بمنتهى السهولة ، دون كلفة وبلهجة رفيعة التهذيب ، وسرعان ما علقها قلب جان .

وفكرت : ــ انها تصلح لأن تكون صديقة .

اما الكونت دى فورفيل ، زوجها ، فبدا ، على العكس ، كدب يدخلونه ردهة استقبال . فما ان دخل القاعة حتى سارع بالانحطاط فوق كرسي والقى قبعته جانباً واحتار كيف يركز راحتيه وانتهى بان اراحهما فوق ركبتيه ثم صالب اصابعه كأنه في صلاة .

ودخل جوليان فجأة . . . وكادت جان تنكره لشدة مارأت تغيراً في مظهره كان قد حلق لحيته وتأنق في لباسه . . . وبدا لعينيها انيقاً جميلاً كما كان في عهد خطبتها البائد الجميل . وشد يد الكونت المكسوة شعراً فايقظه من استغراقه الابله وهم بيد الكونتس فلثمها فجرت ، لهذه البادرة ،الدماءالى خديها العاجيين فتضرجتا قليلاً . . وعبرت بجفنيها ارتعاشة تدق على الانظار . .

وبدأ جوليان يتحدث . كان لطيفاً كمهدها به في خاليات الايام . . وكانت عيناه اللامعتان حباً قد عادتا ، كشأنهما في الماضي ، مداعبتين مهدهدتين . اما شعره الذي كان منذ لحظة خشناً مغبراً قد انقلب تحت الفرشاة والزيت المعطر لامعــاً متموجاً وعندما نهضا للانصراف التفتت الكونتس الى جوليان وقالت :

– اترغب يا عزيزي الفيكونت بالقيام ، يوم الخميس ، بنزهة ، على الجياد ؟

وعند ما انحنى قائلاً : – بكل تأكيد يا سيدتي .

اخذت الكونتس يد جان وقالت بصوت عميق نفاذ وبابتسامة محببة : ـعندما ستبلين من مرضك سنتريض على الجياد كثيراً نحن الثلاثة في هذه المنطقة . . سيكون ذلك ممتعاً . . الا ترغبين في ذلك . .

ورتبت على ذيل جوادها الامازوني بحركة مرحة وبخفة العصفور وثبت الى السرج بينما تسلق زوجها متن جواده الضخم وحيى بطريقة خشنة واستقر بكل ثقل جرمه فوق الجواد كما يجثم دب فوق فريسته !

وهتف جوليان مأخوذاً وقد اختفيا في المنحنى القريب : ـ يا لهم من اناس محببين ! ان معرفتها ستكون لنا ذات غناء !

واجابت جان وقد شعرت غبطة لم تدر لها سبباً : ـ ان هـذه الكونتس الصغيرة رائعة ! لشد ما مال اليها قلبي ! اما زوجها فيبدو علجاً جلفاً ! اين عرفتها اذاً؟

وفرك يديه فرحاً وقال : ـ لقد التقيت بها صدفة لدى آل بريسفيل . ان زوجها نعلى شيء من الغلظة ولكنه صياد وذو مراس وبأس . الا انـه نبيل القلب هذا المخلوق الضخم !

واوشك العشاء ان يكون مرحاً فكأن الزوجين قد حملا الى البيت سعادة خفية

وتصرمت ايام تموز دون ان يحدث في القصر ما يستحق الذكر .

وذات مساء ، كانوا جلوساً الى مائدة مدت في الحديقة تحمل كؤوسا وزجاجات خمر ، ولم تلبث جان ان اطلقت صرخة حادة وشحب لونها شحوباً شديداً ثم اسندت بطنها براحتيها فقد طاف باحشائها الم خاطف حاد كأنه طعنات المدى الرهاف الا انه لم يلبث ان تبدد واضمحل . .

ولم تمض عشر دقائق حتى عاودها الألم ولفترة اطول ولكنه اخف وطأة . وبصعوبة شديدة تمكن زوجها وابوها من حملها ونقلها الى غرفتها .

لم يكن موعد المخاض قد ازف . فلم يكن قدوم الوليد منتظراً قبل ايلول . .

وطارت مركبة لاستقدام الطبيب . ووصل في منتصف الليل وللنظرة الاولى ادرك ان في الامر ولادة مبكرة .

ودهمتها فترة من آلام هائلة ممزقة . وبدأ المخاض . .

كانت جان ، في غمرة اوجاعها ، لا تفارق بفكرها روزالي . . . وكيف تمت ولادتها بسهولة متناهية فلم ينتبه اليها احد الا والوليد بين ساقيها . . بينها وليدها هي يمزق احشاءها شر ممزق . .

كان الطبيب والقابلة منحنيين فوقها وقد اخذا يهزان جسمها . . ورفعا شيئا . . وسرعان ما جعلتها هذه الضجة الخفيفة تقفز ثم ولجت تلك الصرخة الخفيفة ، ذلك المواء الطري ، فؤادها وتغلغلت حتى اعماق سويدائه فغمرت كل جسدها المسكين المنهوك . وبدرت عنها اشارة لا ارادية فكأنها تحاول مد ذراعيها وضم شيء ما .

وحدث في صميمها ارتعاش غبطة ، ميل نحو سعادة جديدة ولدت لتوهـا بين طوايا كيانها . ووجدت نفسها خلال لحظة واحدة منقذة ، مشبعة الرغبـات ، سعيدة . . سعيدة كما لم تكن قبل ذلك ابداً . وتحرك قلبها . . وجسدهـا . لقد غدت اماً .

وودت لو ترى وليدها ! لم يكن شعره واظفاره قد نبتت بعد فقد ولد مبكراً

غير انها ما ان رأت هذه المضغة تتحرك وتفتح فاها وتطلق مواءها .. وما ان لمست هذا الكيان اللدن الحلزوني الشكل ، الحي ، ما ان فعلت ذلك حتى غمرتها نشوة سرور لا تقاوم فهمت انها انقذت ، انها امنت كل يأس .. انه اصبح لديها من تمحضه حبها وتملكه قلبها فوق كل شيء آخر .

ومنذ تلك اللحظه لم تخالجها سوى فكرة لا ثانية لها : ولدها . وغـدت مرة واحدة اما متفانية ، مندفعة في حنانها بقدر ما كانت خيبتها في حبها عظيمة .. حتى غرقت في لجج من املها وامانيها . وطلبت ان يوضع المهد بالقرب من سريرها . وبعد ان تركت فراشها كانت تقضي معظم وقتها جالسة امام نافذتها وبالقرب منها مهد وليدها تهزه وتهدهده .

وشعرت بالغيرة من مرضعة ابنها ! فاذا ما رأته يندفـع نحو الثدي الضخم الازرق المروق فيلتقم حلمته السمراء بين شفتيه النهمتين كان لونها يشحب وانفاسها تتلاحق ويهز كيانها ارتعاش وهي تدنو الى الفلاحة القوية البنية وبودها لو انتزعت منها الرضيع .. ثم تميل على ذلك الصدر العاري فتمزقه باظافرها شر ممزق ..

ثم انصرفت الى تطريز قطع الثياب لتزينه بها . فكانت تصرف جل اهتمامها لاخراجها آية في الدقة والاناقة . لقد غمرته في لجة من الدنتلا وقبعته بقبعات متناهية في جمالها . ولم تكن لتتكلم في غير هذا الموضوع . فكانت تنقطع عن حديثها لتتأمل قطعة طرزتها فتقلبها بين اناملها قائلة لجلسائها : ـ اتعتقدون انه سيبدو جميلاً في هذه الثياب ؟

كان البارون والام يضحكان من هذا الحنان المشبوب . غير ان جوليان كان قد فقد الكثير من اهميته الشخصية واصبح شخصاً ثانوياً بعد قدوم هذا الملك الصغير القادر على كل شيء . وبلغ به الامر ان بدأ يغار من هذا الرجل الناقص الذي جاء من عالم مجهول فاحتل المكان الاول الذي كان يتربع به هو قبل ذلك في البيت وكثيراً ما كان يردد فارغ الصبر ثائر الغضب :

ـ انها مزعجة مع فرخها هذا .

واندفعت مع هذا الحب بشكل جنوني حتى بلغ بها ذلك ان تقيم طوال الليل لا يرقد لها جفن الى قرب مهد الوليد تتأمله وهو مطبق الاجفان غارق في سباته الهادىء . وكان طبيعياً ان يؤثر هذا التعلق الشديد بصحتها فتفقد وزنها ويشحب لونها ثم اعتراها سعال فما كان من الطبيب الا ان امر بفصلها عن ولدها .

وغضبت وبكت واسترحمت . الا انهم اصموا الاذان عن رجائها . فكان الطفل يحمل كل مساء الى قرب مرضعه وفي كل ليلة كانت جان تنهض حافية القدمين وتسير الى غرفته فتلصق اذنها بالباب كي ترى اذا كان ينام ملء جفنيه ،اذا كان لا يستفيق او ليس به الى شيء حاجة .

وضبطها جوليان في مثل هذا الموقف مرة وكان عائداً متأخراً من سهرة قضاها لدى آل فورفيل . وعمدوا بعد ذلك الى اغلاق باب غرفتها بالمفتاح ليجبروها على النوم .

وتمت مراسيم تنصير الطفل في اواخر آب فكان البارون عرابه والعمة ليزون عرابته . واطلق على الطفل اسم بيير ـ سيمون ـ بول . وحمل اسم بول للاستعمال غير الرسمي .

وفي اوائل ايلول سافرت العمة ليزون كما جاءت دون ان تحدث اية ضجة .

وجاء الكاهن بعد العشاء من احد ايام ايلول . وكان يبدو شديد الاهتمام كأنه يحمل شيئاً يقوله بالغ الخطورة وبعد فترة من المجاملات الفارغة رجى البارون والبارونة ان يصحباه الى خلوة فان لديه ما يقوله لهما . وبقي جوليان بمفرده مع زوجته .. وظهر عليه الارتباك والقلق والاضطراب من هذا السر المبهم .

وشاء ان يرافق الكاهن بعد ان استأذن بالذهاب فاختفيا سوية متجهين نحو الكنيسة التي كانت نواقيسها تدق « البشارة » (١)

كان الجو رطباً بل يكاد يكون بارداً . فدخلو الى الردهة حالاً . وكان الجميع يومون نعاساً عند ما دخل جوليان كأنه العاصفة وصرخ بوجه حميه وحماته : « انكما مجنونان وحق الآله ! اتهبون هذه الفتاة عشرين الف فرنك ؟ !

---

(١) ترجمة : Angélus وهو وقرع النواقيس ساعة الغروب .

ولم يجبه احد لعظم المفاجأة . فعاد يقول وقد استبد به الغضب : ـ لا يمكن للمرء ان يكون مغفلاً الى هذا الحد ! اتريدان اذاً حرماننا من كل فلس ؟

وكان البارون قد تمكن من استجماع شتات فكره فشاء ايقافه عند حده فصاح به : اخرس ! فكر انك تتكلم امام زوجك . ولم يكن قد ابه لوجود جان بين والديها .

غير انه اندفع في ثورته : ـ لا اهتم بذلك مطلقاً . . انها تعرف كل شيء . ان هذا العمل انتهاك لحقها الطبيعي .

واخذت جان بقول زوجها دون ان تفقه مرماه . وتمتمت : ـ ماذا حدث اذاً ؟

فاستدار جوليان نحوها حينئذ واتخذ منها حكماً ومضى يحدثها بالمؤامرة الرامية الى زواج روزالي ، بامهارها الارض في بارفيل وتلك الارض التي تساوي عشرين الفاً على اقل تقدير . وعاد يقول : ولكن ابويك مجنونان يا عزيزتي مجنونان في هبتهما عشرون الفاً ! عشرون الفاً ! عشرون الفاً لهذا الولد السفاح !

ودهشت جان من نفسها فقد لحظت ان اي تأثر او غضب لم يعتورها . كانت هادئة ، غير مبالية لا يثير فيها اي اهتمام كل موضوع لا يمس وليدها مباشرة . فقد غدت الآن ولا هم لها في الدنيا سوى هذا الوليد .

واحتبست انفاس البارون فهو لا يجد ما يقول . وانتهى بان انفجر قائلاً وهو يضرب الارض برجله : ـ فكر بما تقول ! ان هذا مثير اخيراً . على عاتق من تقع تبعة امهار هذه الفتاة الام ؟ لمن هذا الطفل ؟ انك تبغي التخلي عنه الآن !

وثبت جوليان انظاره على البارون وقد اذهله عنفه . فعاد يقول بصوت اكثر هدوءاً :

ـ ولكن الفاً وخمسماية تكفي ! ان معظم الفتيات يلدن قبل ان يتزوجن ليكن الطفل ابن من شاء فليس في هذا ما يغير في الموضوع شيئاً . ان في هبتكم هذا الحقل الرجيع الثمن ، فضلاً عن حرماننا منه ، قولاً صراحاً بما حدث وفضيحة علنية لي . . كان عليكم ان تحسبوا على الاقل حساباً لاسمنا وسمعتنا بين الناس .

كان يتكلم بلهجة صارمة ، لهجة رجل قوي بمنطقه معتد بصواب ما يرمي اليه وظل البارون مشدوهاً امام حججه القوية ومنطقه السليم . وما ان شعر جوليان بسيطرته على الموقف حتى راح يشرح نظريته :

ـ لحسن الحظ ان شيئاً لم يتم حتى الآن . وانا اعرف الفتى الذي ينبغي الزواج منها ، انه شاب طيب ويمكن تدبير كل شيء معه سأهتم بذلك

واندفع الى الخارج فوراً وقد خشي ولا شك الاسترسال في النقاش كما اسعده ان يلقي ذلك الصمت من الجميع وقد اعتبره موافقة وقبولاً

وما ان اختفى حتى عاد البارون يقول بعد ان زالت عنه المفاجأة : ـ آه ! انه لا يطاق ! لا يطاق !

غير ان جان رفعت الى وجه ابيها المضطرب عينيهــــا وانطلقت فجأة تضحك ضحكتها الصافية الماضية عند ما كانت تشهد اشياء غريبة وكانت تردد : ـ ابي ! ابي ! هل لاحظت الطريقة التي كان يلفظ فيها كلمة « عشرين الفاً » ؟ !

وانتقلت عدوى الضحك الى الام التي كانت سريعة الفرح سرعتها في البكاء ، وقد استعادت منظر صهرها وهو يرفض بعنف اعطاء المبلغ الى الفتاة التي اغواهـا بنفسه . . ثم شاركهم البارون نفسه ضحكهم كأن العدوى قد انتقلت اليه هـــو الآخر ، واندفع الثلاثة يضحكون شأنهم في الايام الماضية السعيدة

وما ان هدؤا شيئاً ما حتى قالت جان وكانت دهشتها من نفسها على اشدها : انه لامر عجب ! ان هذه الحادثة لا تعني بالنسبة الي شيئاً . اني انظر اليه نظرتي الى شخص غريب . ليس باستطاعتي الاعتقاد باني زوجة له . . وكم تسرني . . مواقفه غير المهذبة !

وتعانق الثلاثة فرحين دون ان يدركوا حقيقة الدافع الى ذلك

ومضى يومان بعد ذلك . فاذ بهم يلمحون بعد الغداء شاباً يجتاز السور بخطى مترددة وكان جوليان قد خرج على جواده . كان الشاب يناهز الخامسة والعشرين ، يرتدي قميصاً ازرق جديداً كثير الطيات منتفخ الكمين مزرراً . وبعد ان دار

حول الحديقة دنا من البارون والمرأتين الذين كانوا جالسين تحت الخميلة .
ورفع قبعته لدى وقعت عليهم انظاره وتقدم وهو يجبي وقد اعتراه اضطراب عظيم .
وما اصبح على قيد السمع منهم حتى شرع يتمتم : - اني خادمكم يا سيدي البـــارون .
ولما لم يجبه احد اعلن : - وانا ادعى ديزيره ليكوك .
ولم يثر هذا الاسم اي شيء في نفوسهم فسأله البارون : - وماذا تبتغي ؟
وادرك الفتى اضطراب شديد اذ علم الا مناص من شرح واقع حاله .
وشرع يجمجم وهو يرفع ناظريه تارة ويخفضها اخرى :
- انه سيدي الكاهن الذي اسر الي بضع كلمات بخصوص هذه القضية .
وصمت خشية الاسترسال فيما قد يحبط مسعاه . وعاد البارون يقول : - اية قضية تعني ؟ انا لا اعرف شيئاً عن هذا الموضوع
وخفض الشاب صوته وقد عزم على البوح : - قضية . . قضية خادمتكم روزالي . .
وكانت جان قد حدست ذلك فنهضت ومضت تحمل طفلها بين ذراعيها .
قال البارون :
- اقترب . واشار الى الكرسي الذي خلا من ابنته .
- هذا لطف منك فالها الفلاح وهو يقتعد الكرسي ومكث صامتاً منتظراً كأن ليس لديه ما يقول . وبعد صمت طويل حزم امره ورفع ناظريه الى السماء الزرقاء وقال :
- انه طقس جميل بالنسبة للموسم .
وعاد الى صمته المطبق . ونفد صبر البارون فدخل في صلب الموضوع فجأة وقال بلهجة جافة :
- انك اذاً الشاب الذي يبتغي الزواج من روزالى ؟
وسرعان ما بدا الاضطراب والقلق على الريفي واجاب بصوت اعلى نبرة وبشيء من التلكؤ :

- هذا متوقف على .. ربما نعم ... وربما لا .. انه متوقف على .. وصدم هذا الجواب المطاط البارون :

- يا للسماء ! اجب بصراحة : المثل هذا جئت ؟ نعم ام لا ؟

واستمر الرجل ينظر الى قدميه مشتت الفكر :

- اذا كان الامر كما قال سيدي الكاهن فسأتزوجها واما اذا كان كما قال السيد جوليان فلست فاعلاً ..

- وما ذا قال لك السيد جوليان :

- قال انه سيعطيني الفاً وخمسماية من الفرنكات اما سيدي الكاهن فقد حدد المبلغ بعشرين الفاً . وانا ارضى العشرين وارفض الألف والخمساية .

وكانت البارونة منزوية في اعماق مقعدها وهي تقلب في الرجلين انظارها .. ثم انطلقت تضحك ضحكات قصيرة استلفتت نظر الفلاح فراح يحدق فيها محاولاً ادراك سبب طربها المفاجيء .

وقطع البارون الجدل وقد ازعجته هذه المساومة :

- لقد قلت للكاهن اني سأهبك حقل (بارفيل) مادمت على قيد الحياة ثم يؤول الحقل بعدك الى الطفل . انه يساوي عشرين الفاً . وانا لا اقول الا قولاً واحداً . اتوافق ؟ نعم ام لا ؟

وطافت بشفتي الرجل بسمة تواضع واقتناع :

- اما الان فليس لي ما اقوله . لم يكن سوى هذا ما يعوقني ولقد وافقت حالاً عند ما حدثني الكاهن هذا الحديث فقد سرني ان ارضي سيدي البارون الذي شاملي هذا النصيب . الا ان السيد جوليان جاءني وقال ما قاله عن الألف والخمساية فاجبته : اني سأدرس القضية ثم قصدتك . وما جئت لأتأكد فلي ملء الثقة بكم انما جئت مستوضحاً . ليس سوى الوضوح يحفظ الصداقة . اليس صحيحاً هذا يا سيدي البارون ؟

وكان على البارون ايقاف هذا السيل فسأل :

- متى تريد ابرام العقد ؟

وعاود الرجل فجأة خجلة واضطرابه وانتهى بان قال :

- الا ترى ان ننظم قبل ذلك ورقة صغيرة ؟

وغضب البارون هذه المرة : - يا للشيطان الن يكون لديك عقد الزواج ! انه خير من كل اوراق الارض !

واصر الفلاح : - وبانتظار ذلك لا ارى بأساً في تنظيم مثل هذه الورقة فلا خير منها لنا جميعاً .

ونهض البارون . وقال ليحسم القضية : - اجب بنعم او بلا . اجب حالاً لدي طالب آخر .

ووثب قلب النورمندي المحتال خوفاً من المزاحمة فحزم امره ومد للبارون يده كفعله بعد شراء بقرة :

- ضع كفك هنا يا سيدي البارون . لقد تمت الصفقة . وليكن ما يكون .

وصافحه البارون ثم نادى : « لوديفين »

واطلت الطاهية برأسها من النافذة فقال لها .

- احضري زجاجة خمر سنشرب احتفالاً بالاتفاق المبرم وبعد ان فرغوا من تناول كأس مضى الفتى بخطى بحثها الفرح .

لم يحدثوا جوليان بهذه المقابلة فتم تنظيم العقد في سرية كاملة وما ان فرغوا من الشكليات حتى تم الزواج صباح يوم اثنين . وحملت احدى الجارات الطفل وسارت وراء الزوجين الى الكنيسة كضمان للثروة الموعودة !

لم يدهش هذا الزواج احداً في المقاطعة بل ثمة من حسد ليكوك فكانوا يقولون بابتسامة خبيثة لا يشوبها احتقار - لقد ولد هذا الرجل المحظوظ عاري الرأس !

لم يقف جوليان مكتوف اليدين حيال ما حدث بل عمد الى تعكير صفو الحياة على حميه الامر الذي ادى بهما الى اختصار اقامتهما في (بوبل) وكان فراقها شديد الوقع في نفس جان استدر منها الدمع الهمي الا ان عزاءها بطفلها بول كان ينبوعاً ثراً لا ينضب له معين .

الفصل التاسع

كانت جان قد ابلت تماماً من مرضها ومن آثار الولادة فتم قرارهما على رد الزيارة لآل (فورفيل) ثم للمركيز (دي كوتيليه) .

كان جوليان قد ابتاع حديثاً مركبة جديدة من سوق عامة ، مركبة ذات جواد واحد وبها اصبح باستطاعتهما ان يخرجا مرتين في الاسبوع .

وخرجا ذات يوم رائق من شهر كانون الاول . وبعد سير متواصل مدة ساعتين عبر السهول النورمنديه بدءا يهبطان وادياً حرثت اعماقه وكست الغابات جانبيه .

وبعد دورة قصيرة حول الوادي برز للعيان قصر « فريليت » مستنداً من ناحية الى المنحدر المشجر ومن الناحية الاخرى تغوص جدره في بحيرة كبيرة تنتهي الى غابة من شجر الصنوبر السامق تتسلق المنحدر الآخر المقابل .

وشرع جوليان يصف لزوجته كل أقسام القصر وصف عارف مطلع على دقائق الاشياء وبدا متحمساً :

- انظري الى هذا المدخل ! انه فخيم هذا القصر ! ان واجهته الثانية تغمرها مياه البحيرة الضحلة ترسو عند قدمي السلم الزوارق الجميلة . اربعة . اثنان للكونت واثنان للكونتس .. وهناك .. الى اليمين حيث تشاهدين هذا الستار من شجر الحور هناك تنتهي البحيرة وهناك يبدأ النهر الذي يجري حتى (فيكومب) .. ان هذه المنطقة غنية بالطرائد والكونت بالغ الاهتمام بالصيد . انه مسكن نبلاء حقاً !.

وكان المدخل قد انفرج عن الكونتس الشاحبة المحيا جاءت تستقبل الضيفين

باسمة الثغر وقد ارتدت ثوباً ضافي الاعطاف تجر ذيله الطويل القشيب كأنها احدى ساكنات القصور في العصور الخوالي يا الله ! ما اشد شبهها « بسيدة البحيرة » التي لم تخلق هذه القصور الا لامثالها !

وتناولت الكونتس يدي جان الاثنتين كما لو كانت صديقتها منذ عهد الطفولة الاولى ثم اجلستها واستوت الى قربها فوق كرسي خفيض وراح جوليان ، وقد استعاد اناقته الماضية ، يتحدث باسماً ، لطيفاً ، غير متكلف .

حدث الكونتس عن نزهاتها فوق الجياد ، وضحكت مليساً على اسلوبه في الفروسية .. وشاركها ضحكها وقد لقبها « بملكة الامازون » بينما سمته هي « الفارس المتعثر »

ودخل الكونت عائداً من الصيد ، كان ضخماً ، يحتذي نعلين كبيرين يجري أمامه كلبان احمران كلونه هو جثما فوق البساط بالقرب من الباب ، وبدا الكونت اكثر انطلاقاً في بيته وقد سرته رؤية الضيفين ، والقى ببعض الحطب في الموقد ثم قدم لزائريه خمر « مادير » والبسكويت ، وهتف فجأة :

— ولكنكما ستتغديان عندنا أليس كذلك ؟

ورفضت جان لأن افكارها كانت لاتفارق ولدها ، والح المضيف فاصرت ، وبدرت من جوليان اشارة تنم عن فراغ صبره فلم يسع جان الا السكوت والقبول وقد خشيت ان يبدر من زوجها سلوك يفضح سوء خلقه ، سكتت على مضض لأن فكرة بعدها عن وليدها حتى صباح الغد كانت تمزق نياط قلبها تمزيقاً .

وكان يومهم حافلاً : فقد خرجوا بعد الظهر الى الينابيع المتفجرة من صميم الصخور الملس ، ثم ركبوا الزوارق وجالوا في البحيرة وكثيراً ماغمرت جان يدها في الماء المثلج تاركة لنفسها التلذذ بتلك البرودة التي كانت تتمشى من اصابعها الى قلبها .

وجلس في اقصى الزورق جوليان والكونتس وقد التفا بشالين وراحا يبسمان تلك البسمة الخالدة التي تشف عن سعادة وارفة لاتترك هماً من هموم الحياة الا وتذيبه وتنجره .

وهبط المساء بارداً فتمشت في الاوصال رعشة مثلجة كانت الشمس قد افلت وراء أشجار الصنوبر . . وبدت السماء قانية اللون وقد خططت أديمها نتف من غيوم بنفسجية غريبة الاشكال ، كان مجرد رؤيتها يبعث البرد في الجوارح . وآبوا الى الردهة حيث كانت تشتعل نار عظيمة فاسمدهم احساسهم بالدفء واستخف هذا الشعور الكونت فدنا من زوجته وأخذها بين ذراعيه الجبارتين كما يأخذ طفلاً صغيراً ثم رفعها الى فمه وطبع فوق وجنتيها قبلة رجل قانع سعيد .

ورنت جان باسمة الى هذا المارد الطيب وفكرت :

ـ لشد مايخطىء المرء حكمه على الناس اذا اخذهم بظاهرهم ! ونقلت ناظريها الى جوليان بحركة لا ارادية فرأته واقفاً أمام الباب شاحب الوجه شحوباً مخيفاً وعيناه جامدتان على الكونت ، ودنت منه قلقة وقالت : ـ أمريض أنت ؟ فجاء جوابه صراخاً :ـ ليس بي شيء . دعيني وشأني . اني مقرور فحسب .

وهم الضيفان بالذهاب بعد العشاء الا ان الكونت استبقاهما كي يريهما صيد السمك على نور المشاعل ومشوا حتى وقفوا فوق الدرجات المؤدية الى شاطىء البحيرة بينما صعد هو الى الزورق يصحبه خادم يحمل آلة الصيد ومشعلاً منازاً . كان الليل نيراً قارساً تحت سماء بثت فوق صدرها نجوم ذهبية راعشة ، والمشعل يسحب وراءه ذيولاً نارية غريبة الأشكال متحركة متموجة فوق الصفحة الجمدة . . وتوغل الزورق في ظلام البحيرة وقد بدا شبح الكونت بذراعيه الطويلتين ثم اختفى فلم يعد يصل الى الاسماع الا حركة حيزوم الزورق يشق صدر الماء . وعلا صوت الكونت :

ـ جلبرت . لقد اصطدت ثلاث سمكات .

وعاد شبحه يدنو من الدرجات . ثم قفز من زورقه وصعد الى الجماعة وخادمه يتبعه حاملاً الصيد واداته كانت السمكات مازالت تختلج فيها الحياة .

وعادت جان وزوجها الى بوبل وقد اعارهما مضيفاهما معطفين التفا بهما ليدرءا البرد عن نفسيهما .

قالت جان بلهجة لا ارادية : ـ ياهذا العملاق من رجل طيب !

واجاب جوليان وهو يقود العربة بنفسه : ـ أجل ولكنه لا اجتماعي .

وقاما بعد اسبوع بزيارة آل (كوتيليه) الذين يعتبرون رأس نبلاء المقاطعة وهم يسكنون قصراً جديداً بني في عهد لويس الرابع عشر يختبئ في حديقة خلابة محاطة بجدر عالية وبالقرب منه ، على مرتفع ، تقوم خرائب القصر القديم . وقاد الضيفين خادم في ثياب رسمية الى مقصورة فخمة علقت في صدرها لوحة تحمل توقيع الملك مهداة الى صاحب القصر . توقف الزوجان أمامها يتأملان فيها منحة ملكية وقد اشتد اعجابهما . ودخل المركيز والمركيزة .

كانت المرأة مطلية بالمساحيق ، خفيفة الظل ، كثيرة التكلف اذ تحاول الظهور متواضعة ، أما الرجل فضخم اشيب اللمة ، في حركاته وصوته وبدواته ترفع يعلن عن أهمية شخصه ، فهو من ذلك الضرب من الناس الذين يجعلون من كلامهم وتفكيرهم وتصرفاتهم سبيلًا لاظهار رفيع مقامهم وسامق مكانتهم . فاذا تكلما احتكرا الحديث لاينتظران من سامع جواباً ، لاتفارق البسمة الساخرة شفاههما وكأنهما يقومان بما يفرضه عليهما مركزهما الموروث اذ يستقبلان ملاطفين ، صغار نبلاء المقاطعة .

اما جان وجوليان فقد عجزا عن مجاراتهما رغم مابذلا من جهد كيما يظهران بمظهر لائق ، ولشد ماتضايقا من طول الزيارة وقد اعوزتهما لباقة الانسحاب الا ان المركيزة عمدت الى انهاء الزيارة بنفسها وبشكل طبيعي بسيط اذ اوقفت المحـــادثة كفعل ملكة مهذبة تضع حداً لاستقبال شخص ما .

واذ كانا في طريق الأوبة قال جوليان : ـ اذا شئت وضعنا حداً لعلاقتنا بهؤلاء الناس . اما انا فآل فورفيل يكيفونني .

فوافقته جان على رأيه .

ومضى كانون الأول بطيئاً ، هذا الشهر الاسود ، والثقب القاتم في اديم السنة . وعادت حياة الوحدة الى ما كانت عليه في السنة الماضية ومع ذلك فلم تتبرم جان بها فلها من ولدها شغل شاغل اما جوليان فكان لاينفك ينظر ولده شذراً قلقاً منزعجاً ..

وكثيراً ما كانت تأخذ طفلها بين ذراعيها وتشرع تداعبه وتهدهده كما تفعل النساء مع اطفالهن وكانت أحياناً تقدمه لابيه قائلة : ـ مالك لاتقبله .. يخيل الى المرء انك لاتحبه .

وأمر شفتيه فوق جبين الطفل الامرد بقرف ثم ادار جسمه في نصف دائرة كأنه يتحاشى ملامسة يديه المتحركتين الجمدتين . ثم يهب فجأة وينطلق كأن تقززاً ينفره ويطرده .

كان المختار والطبيب والكاهن يأتون احياناً فيتناولون الطعام على مائدتهم .

أما آل فورفيل فقد تطورت معهم أواصر الصداقة اقوى فاقوى .

أما الكونت فكان تعلقه ببول يداني العبادة ، فكان يأخذه فوق ركبتيه طوال وقت الزيارة واحياناً طوال بعد الظهر فكان يداعبه ويقبله كفعل ام بوليدها . انه يتألم بالغ الألم من زواجه العقيم .

وجاء مارس فكان صافي الجو جافاً لطيفاً . وعادت الكونتس جيلبرت تتحدث عن نزهات على صهوات الجياد يقومون بها سوية . وبدت جان سعيدة بهذا المشروع هي التي انهكها الضجر من الليالي الطويلة والسهرات المتشابهة الرتيبة . وخلال اسبوع صرفت اهتمامها الى العناية بجوادها الامازوني .

ثم بدأوا رحلاتهم . كانوا يسيرون دائماً اثنين اثنين . الكونتس وجوليان في الطليعة ووراءهما على مائة خطوة الكونت وجان . وكان هذان الاخيران يتحدثان كصديقين . وقد اصبحا في الواقع صديقين كنتيجة لاتصال روحيهما المستقيمتين وقلبيهما السليمين . اما الاثنان الآخران فكانا يتحدثان عادة بصوت خفيض وينفجران ضاحكين ضحكاً عالياً ثم يتبادلان النظرات كأن في اعينهما مايسران به الواحد للآخر دون ان تنبث منهما شفة ثم ينطلقان راكضين بجواديهما كأن رغبة الى الهرب والابتعاد تتور فيهما ..

وظهر جوليان فيما بعد نزقاً . فكان صوته الحاد يصل الى اذان زوجته والكونت محمولاً مع هبات النسيم . فكان الكونت يبتسم ويقول لجان : ـ ان

زوجتي لاتكون لطيفة كل الايام . وكانوا عائدين ذات مساء واذ بالكونتس تلكز جوادها فيروح يقفذ قفذات قوية وكان صوت جوليان يعلو قائلاً : ـ حذار . حذار .. سينطلق بك حذار .

فاجابت : ـ لابأس . ليس هذا من اختصاصك .

قالتها بصوت واضح النبرات قاس حتى ان كلماتها رنت في الريف رنيناً كانها معلقة في الهواء .

وبدأ الجواد يقفز ويضرب الأرض بسنابكه . وهتف الكونت من رأتيه القويتين وقد خشي مغبة عمل زوجته :

ـ حذار ياجلبرت .

وفي ثورة عصبية ، ثورة امرأة لايقف شيء في وجه ارادتها ، ضربت بسوطها الحيوان بين اذنيه فاستقام على خلفيتيه وضرب الهواء بقائمتيه الاماميتين ثم عاد بهما الى الارض وانطلق في قفزة مريعة وراح يشق السهل بكل ما اوتيت عضلاته من قوة.

وعبر اول الامر مرجاً ثم توغل في الارض المفلوحة فاثار خلفه ضبابة من غبار الارض الكثيفة الرطبة . كان ينطلق خاطفـــاً حتى ليصعب تمييز المطية من الفارس .

وجمد جوليان في مكانه وقد عقلت الدهشة لسانه ثم راح يصرخ : ـ سيدتي !

وندت عن الكونت زمجرة مخنوقة ودفع بجواده الى الامام بكل قوة جسمه وقد انحنى فوق سرجه دفعه منادياً به ملوحاً بذراعه فكأن الفارس يحمل الجواد بين ساقيه ويطير به .

ورأت جان شبح الزوجة والزوج هناك .. بعيداً .. منطلقين .. هاربين .. بعيداً .. بعيداً .. متصاغرين مختفيين اخيراً كما يظهر طائران في الافق يبتعدان ثم يختفيان بين طيات الفضاء الفسيح .

ثم دنا جوليان من جان سائراً بخطى وئيدة وتمتم بلهجة غضبى : اظنها مجنونة هذا النهار .

وسار الاثنان وراء صديقيها عبر السهل المتاوج .

وبعد ربع ساعة لحاهما يعودان فانضما اليها سريعاً .

كان الكونت احمر الوجه متصبباً عرقاً ضاحكاً مبتهجاً منتصراً . وقد امسك بقبضته القوية عنان جواد زوجته البطر .

أما الكونتس فكانت شاحبة ، قد جعد الألم وجهها وقد استندت باحدى يديها الى كتف زوجها كأنها توشك ان تتداعى .

وادركت جان ، هذا اليوم ، ان الكونت يحب زوجته حباً يكاد يكون عبادة وهياماً .

وتغيرت حال الكونتس في الشهر الذي تلا هذه الحادثة فبدت مرحة كما لم تكن من قبل . وكثيراً ما كانت تقصد القصر ، لاتنفك تضحك وتقبل جان معربة عن حبها لها وتعلقها بها . ولقد خيل للجميع ان سعادة مجهولة قد غمرت حياة الزوجة الشابة . اما زوجها فكان سروره لايوصف بهذا التحول المفاجيء لايفارقها بانظاره يسعى دائماً الى لمس يدها او طرف ثوبها في اشتياق متفاقم ملحاح .

وقال ذات مساء لجان : ـ اننا الآن اسعد مانكون فجلبرت لم تكن قط ألطف منها الآن ولا أشد إيناساً . ولقد وثقت الآن من انها تحبني ولم اكن قبل اليوم واثقاً .

وتعدى المرح جلبرت الى جوليان فبدا راضياً هادئ الاعصاب فكأن الصداقة التي ربطت العائلتين كانت عليها برداً وسلاماً .

وجاء الربيع فاتر الانفاس معطار النفحات كما لم يعهد من قبل . فكأن شمسه المانعة قد انبتت ، دفعة واحدة ، كل مافي الارض من بذور واندفع النسغ الجديد في عروق كل نبتة فبعث في موات الطبيعة حياة فياضة بالحركة غنية بالجمال كما لايحدث الا في بعض السنوات المحظوظة التي تجدد شبـــاب الطبيعة الذاوي أشد مايكون التجديد .

واحست جان في اعماقها اضطراباً غامضاً بعيد المدى امام اختيار الحياة في

فصل انبثاق الحياة ! انها تشعر بغبطة مفاجئة امام زهرة تتفتق اكمامها بين التفاف الاعشاب ثم تغمرها كآبة حالمة لذيذة فتعبر بها لحظـات استرخاء ضائع وغيبوبة مدغدغة .

وعاودتها ذكريات حبها الاول الجميل ، ذكريات ذلك العهد العباق بالاماني العذاب والاحلام المجنحة . الا ان عواطفها تلك لم تعد كونها ، على حرارتها ، ذكريات مضت وانقضت .. كانت كل جوارحها تثور لدى ملامسة انامل الربيع الطرية لجسمها فـكأن نداء مجهولاً يحث بها الى البحث عن حبها الضائع لترشف منه نغبة تحيي موات عواطفها الذاوية ..

كانت تستكين الى وحدتها فتجلس تحت وهج الشمس وقد اجتاحها شعور غريب بلذة مبهمة عميقة الغور فيركد تفكيرها وتشل قواها الواعية فلا يطرق خلدها اي ظل لخيال ولا يراود وجدانها خاطر أو مأمل .

وعبرت ذاكرتها ، ذات صباح ، وكانت هائمة في مهامه احلامها ، ذكرى لحظة سعيدة قضتها في مكان ينفذ اليه شعاع من الشمس عبر اوراق الشجر في الغابة الملتفة الايك بالقرب من « اتريتا » .. فهنالك عرف جسدها رعشة الحب الاولى تحت وهج غرام هذا الشاب الذي كان يحمل لها آنذاك هياماً لازيف فيه ولا مراء .. هنالك تترقلها انشودة حبه الاولى . فجاءت خفرة خجلة تتردد محمولة فوق اجنحة سعادة لاتحد ولا توصف .. هنالك خالت نفسها تلج باب مستقبل عباق بالاماني العذاب والرؤى المخملية !

ودت لو تعود فترى تلك البقعة الحبيبة ، لو تحج اليها كما يحج المؤمن الى مهبط الوحي وارض المعجزات .. ياللحمق ! كأن ذلك يغير شيئاً من مجرى حياتها أو يحول شيئاً من سيرها المحتوم !

كان جوليان قد خرج منذ الصباح لاتعلم الى أين .

وركبت جوادها الابيض وانطلقت ..

كان النهار هادئا ماتعاً والسكون العميق يهيمن على الكون فلا تسمع ضجة

ولا تعلو نأمة . وهبطت الوادي المفضي الى الشط وبلغت الغابة وئيداً . كان النور يتساقط من بين خضرة الشجر الفضية تساقط شآبيب مزن هتون .

وبحثت عن البقعة المنشودة دون ان تهتدي اليها فكانت تطوف بين المفاوز دون وجهة .

ولمحت بغتة ، في بعض الجنبات ، جوادين مشدودين الى شجرة ضخمة . وسرعان ماعرفت فيها جوادي جوليان وجيلبرت .

كانت الوحدة قد ارهقتها فشعرت سعادة لهذا اللقاء غير المنتظر ولكزت مطيتها فانطلقت تعدو بها . وبلغت الحيوانين الصابرين كانهما اعتادا مثل هذا الانتظار ونادت فلم تسمع سوى رجع صوتها .

والتفتت فلمحت فوق العشب المشعث قفاز امرأة وسوطين . اذاً فقد كانا جالسين هنا ثم توغلا في الغابة تاركين جواديهما حيث كانا .

وانتظرت . ربع ساعة . عشرين دقيقة . عبثاً . .

ولم تدر ما هي فاعلة . كانت قد غادرت صهوة جوادها فلفت انظارها طائران فوق منحدر معشوشب يتداعبان فاستندت الى جذع شجرة وراحت تتأملها . كان احدهما يقفز ويرتعش بالقرب من صاحبه وقد نشر جناحيه وراح يضرب بها الهواء . . واتحد الطائران فجأة . .

وبحركة لا شعورية نقلت ناظريها الى القفاز والجوادين المتروكين . . ووثبت الى سرجها وانطلقت يحثها ميل عارم الى الهرب . . الى الاختفاء . .

انطلقت تركض بجوادها نحو القصر كأن الوف الاشباح الراعبة تمعن في مطاردتها . كانت الفكر تدور في رأسها كالزوبعة العاتية . . وراحت تجمع شتات الاحداث الماضية . تلك الاحداث التي لم تفقه لها في حينها معنى . . كيف لم تحدس؟ كيف لم تشك بغياب جوليان المتواصل كيف ؟ كيف ؟ يا الله ! وتأنق جوليان المستجد ؟ ودماثة خلقة التي لم تعهدها به ؟ . . يالها من غبية حمقاء !

تذكرت ثورات جلبرت العصبية ثم غنجها المبالغ بة فتلك القناعة السعيدة التي

غمرتها وغمرت الكونت معها فاستحال بها سعيداً راضياً .

كانت بحاجة الى تفكير عميق فخففت من سرعة جوادها تلك السرعة التي كانت تعيق تفكيرها وتعكر صفاء عقلها

وعاد قلبها الى سكينته بعد هذه التأثرات الاولية .. عاد كما كان قاعاً صفصفاً عاطلاً عن كل غيرة او كراهية او حقد . لم يبقَ فيه سوى الاحتقار الذي كان يغص به ويفعمه ايما افعام .

هي لا تفكر بجوليان مطلقاً فليفعل ما يحلو له فلا تهتم بتصرفاته ولا يدهشها كل ما يبدو منه . لقد قابلت خيانة زوجها ببرود شديد الا انها لم يكن هذا شأنها حيال الكونتس : فلشد ما اثارتها خيانتها المزدوجة . ان الناس جميعاً اذاً غادرون منافقون سافلون !

وفاضت بالدمع عيناها ... فالمرء يبكي آماله احياناً كما يبكي موتاه !

وعزمت اخيراً على الا تسعى الى الاطلاع على شيء ، ان تغلق روحها دون التأثرات العابرة ، الا تحب سوى بول واهلها ، وان تتحمل الآخرين بصبر منافق .

ما بلغت البيت حتى انطلقت الى ولدها فاحتملته الى غرفتها وراحت تمطره سيلاً من قبلها المحمومة فترة طويلة دون انقطاع

وعادجوليان وقد ازفت ساعة الغداء بشوشاً راضياً يعلوه ميل محبب . وسأل:

– الن يأتي ابوك وامك هذه السنة ؟

لشد ما قدرت فيه هذا اللطف حتى كاد ينسيها اكتشافها في الغابة وتولد فيها ميل ملحاح لرؤية المخلوقين الذين تحبهما – بعد بول – فوق كل مخلوقات الارض . وامضت السهرة كلها تكتب اليهما تستعجل قدومهما .

وجاءها جوابهما معلناً لها حضورهما في العشرين من ايار وكنا في السابع منه .

واقامت تنتظرهما بصبر متفاقم وكأنها احست حاجة ، فضلاً عن حبها البنوي ، الى الاحتكاك بقلوب نبيلة ، الى التحدث الى ابويها فتفتح لهما نفسها ، اولئك الناس الانقياء الخالصين من كل لؤم والذين لم تشب حياتهم او تصرفاتهم او افكارهم شائبة قط .

ان ما تشعر به جان هو انفراد نفسيتها ذات الخلق القويم بين هذه النفسيات المعوجة المنحطة ·

كانت فكرة احتقارها الرجال تغمر حياتها غمراً . وتعمدت المراوغة والنفاق فكانت تستقبل الكونتس مفتوحة الذراعين كان اكتشافها في الغابة لم يكن .

وكان للاخبار التي تتناقلها الافواه عما يحدث في المقاطعة يد في تفـاقم هذا التقزز العظيم الذي لا ينفي يعظم في نفسها نحو الناس اجمعين :

« ابنة (غيار) ولدت قبل موعد زواجها بفترة قصيرة ، خادمة آل مارتان ، يتيمة ، ظهرت حاملاً · جارة صغيرة في الخامسة عشرة بدت عليها اعراض الحمل . واخيراً تلك الارملة العرجاء القبيحة التي يطلقون عليها الاسماء للسخرية من قذارتها الظاهرة للعيان ، حملت هي الاخرى ! »

كانت امثال هذه الفضائح القذرة تقرع الاسماع في كل لحظة وكذلك قل عن انباء طيش الفتيات او الفلاحات المتزوجات امهات الاطفال وغيرهن من المزارعين الاثرياء · فكأن هذا الربيع الحار قد حرك الغرائز في الناس فعله بالنبات والحيوان .

اما جان ، وقد تبلد فيها كل حس ، فلم يكن لمثل هذه الاخبار ان تحرك فيها جارحة . لقد حطم قلبها وخوى من كل عاطفة ما خلا عاطفة الامومة التي ما برحت ناشطة تتحرك لكل هبة شوق حارة .. كانت تحلم فتفوح من احلامها رغباتها فتزداد بهذه الاحلام تعلقاً وتشبثاً ·· اما النزوات الحسية والعواطف المادية فقد ماتت في شرايينها وعفت عليها الايام ··· ولشد ما ادهشها ان يتولد فيها احتقار شديد وتقزز مقرف من هذه الحيوانية الوضيعة التي يسمونها الحب !

واذا كانت تحمل في صدرها غلاً لجيلبرت فليس حقداً وليس مقتـاً لاقدام هذه الغريبة على اختطاف زوجها ، انما احتقاراً لها وتقززاً منها لسقوطها في وحول تلك الحمأة الانسانية النتنة !

ليست جان ممن تسيطر عليهم غرائزهم · ولذا كان بمقدورها التخلص من هذا الجلف الخشن الخلق زوجها ·

... وتوقفت عربة البريد امام الدرج وظهر في نافذتها وجه البارون الطليق فاحست جان ، لدى رؤيته ، عواطفها تجيش وتتحرك في اعماق سويدائها .. كان ذلك منها مؤثراً بالغ الروعة كما لم تعهد من قبل .

وما تراءت لها امها حتى بدأت مأخوذة خائرة القوى . وبدت البارونة كأن العمر قد خطا بها ، خلال الاشهر الستة الخالية ، سنوات عشراً الى الامام ! ..

كان خداها الضخمان منتفخين قرمزيين كأنهما يحصران دماء صاخبة وكأن عينها مطفأة لا ترى ولم تكن تقوى على الحركة ان لم يعمد اثنان الى اسنادهـــا وهي في كل ما تحاوله ، في تردد مؤلم ..

ولم يفطن البارون الى انهيار صحة زوجته كما فطن الاخرون لأنه كان يلازمها اعظم الوقت فكان يجيب جان اذا ما شكت اليه انحطاط قوى امها قائلاً :

- ولكني اجدها على خير ما يرتجي !

وفي المساء خاطب جوليان زوجته قائلاً :

- ان امك سائرة في سبيل الانحطاط الصحي بخطى حثيثة واخشى ان تكون مصابة بمرض خبيث ما .

وكان جواب جان دموعاً سخينة ذرفتها وشهقات حارة صعدتها .

ومضت ايام ثمانية اعتادت جان خلالها على هيئة امها فاضمحلت وساوسها شيئاً فشيئاً ولم يعد امر صحة البارونة يشغل ابنتها .

وغدت البارونة عاجزة عن المشي لا تخرج الا نصف ساعة كل يوم . اما ما تبقى من وقتها فتقضيه في غرفتها فتطلب (درج الذكريات) وتأخذ في تقليب رسائلها القديمة والدموع تترقرق في مآقيها وكثيراً ما كانت ترفع احدى تلك الرسائل الى شفتيها فتقبلها .

وبعد بضعة ايام ذهب الكونت في عمل يستغرق منه بعض الوقت .

وجاء موسم الحصاد فكان وقتاً رائعاً ، فالليالي ناعمة مرصعة الصدر بقلائد من جمان رواعش والاصائل ساكنة بعد نهار ضاحك السن . وتحسنت صحة الام

فجأة . اما جان فقد تناست حب جوليان وخيانة جلبرت وغرقت في سعادة تكاد تكون كاملة .

كان الريف برمته مزدهراً معطاراً والبحر دائم السجو يلتمع تحت سيل ذوائب الشمس منذ الفجر حتى المغيب .

اخذت جان ولدها بين ذراعيها ، ذات اصيل ، وانطلقت بين الحقول . كانت تنتقل بانظارها بين ولدها والازاهير المزينة حفا في الطريق فثار فيها حنانها قوياً صاخباً .. فكانت ، من حين لاخر ، تضم وليدها بقوة الى صدرها وتمطره قبلاً حارة مشوقة .. ماذا سيكون في مستقبلات ايامه ؟ ما ترى يخبيء له الغد المجهول؟

كم كانت تحلم في ان تراه رجلاً قوياً شهيراً واسع النفوذ وتريد احياناً اخرى ان يظل متواضعاً مغموراً فيبقى الى قربها يمحضها اخلاصه وتغدق عليه حبهـــا .. سيبقى لها حانياً عليها مفتوح الذراعين لأمه ابد الدهر . فاذا ما احبته بقلب الام الاناني شاءته دائماً ابنها ، لا شيء سوى ابنها ، ولكن اذا ما تركت لعقلها المفكر ان يحبه ، ودته شخصاً مرموقاً ذا مكانة سامية في المجتمع عله يرضي بذلك كبرياءها .

وجلست على شفا حفرة وراحت ترنو اليه كأنها لم تكن قد رأته قبل ذلك قط وحيرها ان هذا الطفل اللدن سيصبح يوماً قوياً كبيراً يمشي بخطى ثابته ، تغطي عذاريه لحية كثة يتكلم بصوت خشن رنان .

وناداها صوت بعيد فرفعت رأسها . وظهر ماريوس يعدو . وظنت ان بعض الضيفان بانتظارها وما دنا منها وصاح : — سيدتي . سيدتي . لست ادري ما اصاب سيدتي البارونة .. انها تشكو شيئاً خطيراً ! ..

وأحست كأن قطرة من ماء مثلج قد سالت على طول عمودها الفقري وانطلقت مسرعة وصوابها يكاد يطير شعاعاً ... ولمحت عن بعد اناساً متجمهرين تحت الخيله . وافسحوا لها مكاناً فرأت امها ممددة فوق الارض ورأسها مستندة الى وسادتين . كان وجهها قاتماً كله وعيناها مغمضتين وصدرها ، الذي كان دائم الاضطراب خلال السنوات العشرين الاخيرة ، بدا ساكناً لاحراك فيه ! وتناولت

المرضع الطفل من على ذراعي جان وسارت به بعيداً عن زحمة الخلق .

وسألت جان وهي تكاد تفقد ادراكها : . ماذا حدث لها ؟ كيف سقطت؟ ليذهب احدكم فيحضر الطبيب . وحاولوا حملها كي ينقلوها الى غرفتها فتمزق ثوبها تحت ثقل جسمها الضخم المترهل . ونصحهم الكاهن الذي حضر بنزع ثيابها عنها ونقلها الى غرفتها ولم يتوصلوا الى ذلك الا بشق النفس وبعد ان استعانوا باريكة حملوها فوقها وساروا بها خطوة خطوة حتى بلغوا بها سريرها .

وحضرت الارملة دانتو وقد تنسمت رائحة الموت .

وانطلق الخادم ليأتي بالطبيب بينما تطوع الكاهن لاحضار الزيت المقدس الا ان الارملة دانتو دنت منه وامرت اليه :

ـ لا تتعب نفسك يا سيدي الكاهن . لقد مضت ! وشرعت جان تستغيث وقد افقدها المصاب صوابها .

لم تدر ما ينبغي لها ان تفعل ، اي شيء تحاول ، اي دواء تستعمل ..

وتمتم الكاهن بصلاة غفران الخطايا ...

اقاموا ساعتين كاملتين امام الجسد البنفسجي اللون الخالي من كل حركة وحياة ... كانت جان جاثية فوق ركبتيها وهي نهب لالام ممزقة جاشت لها بالدموع عيناها واختنق بالزفرات حلقها ..

وما فتح الباب واطل الطبيب حتى احست جان سلاماً وعزاءً واملاً ...

واندفعت تروي له كل ما عرفت عن الحادث :

ـ لم يكن بها شيء قط ... لقد قامت بنزهتها كالمعتاد .. صحتها جيدة .. لا تشكو شيئاً .. وقد اكلت حساءً وبيضتين ساعة الفطور .. ثم سقطت فجأة .. واسود لونها كما ترى ... واستكانت لا تبدي حراكاً .. ابداً ! .

وبدرت من الممرضة اشارة تعني ان كل شيء قد انتهى ! . . انتهى تماما فجمدت جان فترة ثم انتفضت ترتعش هلعا وفرقا ! . الا انها لم تشأ تصديق ذلك فعادت تسأل الطبيب ملحفة عظيمة القلق : ـ اتظن ان حالها خطيره ؟ اتجدها على خطر ؟ قل . بربك ايها الطبيب ..

وبعد برهة فتح الطبيب فاه بوقار العلم وقال :

ـ لشد ما اخشى ان تكون ... ان تكون . . قد قضت . . تشجعي يا سيدتي .. لوذي بكل ما تملكين من صبر وجلد ..

وكمن يلقي بنفسه يائسا في منزلق مخوف ، فتحت جان ذراعيها والقت بنفسها فوق جثمان امها المسجى امامها .

ودخل جوليان فصعقه المشهد ، ثم اربد وجهـه بشكل واضح دون ان تبدر منه صرخة الم او يأس فقد كانت المفاجأة صاعقة لم تتح له اتخـاذ الموقف المناسب لواقع الحال . وتمتم :

ـ كنت انتظر حدوث شيء كهذا . لقد حدست بقرب نهايتها . ثم استخرج منديله فمسح مقلتيه ولا دمع فيها ومشى الى الفقيدة فجثا امام الجثمان وجمجم بضع كلمات ثم نهض وحاول انهاض زوجه التي كانت تحيط الجثة بذراعيها وتمطرها بقبلات لاعديد لها وهي تـكاد تضطجع فوقها بـكل جسمها .. كان لابد من حملهـا خارج الغرفة ولو قسراً ذلك انها تراءت لهم تـكاد تفقد صوابها .

وهبط الليل . ومشى الـكاهن الى جان وراح يقرع اذنيها بعبارات التعزية: حدثها عن خداع الحياة وبطلان زخرفها معبراً عن كل ذلك تعبيراً قوياً حزينـــاً كاذباً ... فقلما يسؤ الـكاهن نزول الموت ساحة الناس ! ..

وعرض عليها ان يجي الليل بالقرب من جثـة الفقيدة يقطعه بالصلات الا ان جان ابت عليه عرضه الكريم من خلال دموع تشنجية كانت لا تنفك تذرفها . انها تبغي قضاء ليلتها وحيدة ، وحيدة تماما ، مع امها الفقيدة . فهذه ليلة الوداع الابدي .

ودنا منها جوليان وقال :ـ ولكن هذا مستحيل ! سأبقى معك . وهزت رأسها بالنفي اذ لم يعد لها على الكلام جلد .

وبجهد استطاعت ان تقول : ـ انها امي ! امي ! وسأسهر عليها بمفردي ..

وتدخل الطبيب قائلاً : ـ دعوها تفعل مايحلو لهـــا وستقيم الممرضة في الغرفة المجاورة .

لم يعترض على رأي الطبيب احد فقد كان جوليان والكاهن يحلمان كل بسريره .. وبعد ذلك دنا الكاهن من الجثة وركع وصلى ثم نهض وخرج وهو يردد :ـ كانت قديسة . كانت قديسة ! قال ذلك بنفس اللهجة التي قال بها :
Dominus Vobiscum (١)

قضت جان ليلتها بطولها امام الجثمان المسجي لاتنضب لها عين ولا يقر لها فكر . تذكرت كل ماوعته عن حياة فقيدتها الغالية : اقوالها ، حركاتها ، زياراتها .. كل شيء .. كل شيء وكانت كل ذكرى تستدر من مقلتيها الدمع الغزير السخين وتدفع بالتنهدات الخانقة تمزق صدرها ايما تمزيق ... بكت .. بكت حتى نضب معين عينيها فهي تبكي الان دون دموع فتحس ناراً اكولة ترعي جفونها .. وتنبهت فاذا الساعة لم تجاوز العاشرة فهزها خوف مريع . خافت هذا الليل الطويل تقضيه مع الموت وجهاً لوجه !..

وحملتها ذكرياتها الى حياتها الخاصة : روزالي . جيلبرت . عذاب قلبها المعنى .. آلامها الممضة.. انوثتها المعفرة في الرغام .. حبها المصوح كالواحة تحت لفح السموم .. وخلصت الى ان كل حياتها لم تكن سوى تعاسة وشقاء وآلام وموت !..حياتها؟.. ياما من حياة صاخبة ! صاخبة بالخداع ، بالنفاق ! ياما سراباً خادعاً في الم ، كاذباً في يأس ...

وتساءلت والزفرات تقطع من قلبها النياط :

ـ ترى أين يمكن للمرء ان يلقى شيئاً ولو يسيراً من الراحة والسعادة ؟ أنى يتاح للانسان التعس ان يحيي بنجوة من هذا الشقاء المقيم ؟ في وجود آخر ولا ريب ! في عالم سحري موعود جسره الموت وسبيله تحرر الروح من قيود المادة الفانية ! الروح ؟! ماهو جوهر الروح وكيف يمكن لهذا الشيء غير الملموس ، اللامادي، ان يحس ويشعر ويدرك وينعم ؟ لا . لا . لابد من سعادة في عالم الارواح غير مانعرف في عالم التراب هذا !..

(١) تعبير لاتيني يستعمل في الشعائر الدينية ومعناه : « الرب معكم »

واستمرت في مثل هذه التأملات الشعرية فترة لاتدري اطالت أم قصرت :ـ ترى أين هي روح أمها الآن ؟ روح هذا الجسد المستكين البارد ؟ بعيداً... بعيداً جداً ولا ريب في مكان ما من هذا الفضاء الفسيح .. الا انها لاترى ولا تلمس ولا تسمع كانها الطائر افلت من قفصه بعد طول الاسر فحلق وغار في اجواز الفضاء!.. ام تراها عادت الى بارئها ؟ ام لعلها ذهبت الى مكان مجهول حيث تمتزج ببذور حياة تتهيأ للتكون ؟ بل ربما كانت دانية جداً .. لم تغادر بعد هذه الحجرة تطوف حول هذا الجسد الساكن الذي هجرته فهجره كل معنى من معاني الحياة !

وشعرت جان اذ بلغت هذه الدرجة من التفكير ، نفساً يلفحها كأن روح امها تلامسها .. وعصف في اعماقها رعب هائل فظيع لم تجرؤ ، لشدة وطأته ، على تحريك ساكن ...

ورفعت اخيراً عينيها المكسورتي الاهداب فوقعتا على « درج الذكريات » . ذلك الدرج العزيز الذي طالما تمتعت فقيدتها بتقليب ماضيم من صفحات طفولتها الذاهبة وشبابها المنصرم . وخطرت لجان خاطرة لاقت من نفسها قبولا حسناً : ان تأتي ببعض تلك الرسائل فتتلوها أمام الفقيدة فمثل هذا العمل ، ولا ريب ،سيجلب لروحها ، في العالم الآخر ، برداً وسلاماً .

وفتحت الدرج فتناولت حزمة من الرسائل حال لونها ونصل وقد ضمها خيط حريري رقيق . انها رسائل جدها الى ابنته . شاءت ان تقرأ بعضها على مسمعي المائتة لتزودها بآخر ذكرياتها فوق هذه الارض ولتقارب بين روحها وارواح من سبقها الى العالم الآخر المجهول .

وتلت من هذه الرسائل ماتيسر : كانت جميعا تحمل حنواً متناهياً وحباً وعطفاً . انها بحق رسائل والد الى ولده . ما أجمل ماحملت من توافه الاخبـــار العائلية الصغيرة !

وغمر التأثر قلب جان غمراً .. فلقد اوغلت في صميم الحياة المـــاضية العذبة الجميلة ... حياة قلب امها . تلك الحياة الخاصة السرية ..

ورنت الى الجثة الهامدة فخيل اليها انها ترى فوق محياها الابيض الجامد لطياف السعادة والرضى ..

القت بالرسائل فوق قدمي السرير وقالت لنفسها :

– سأضع هذه الاوراق في النعش كما توضع الازهار . وتناولت حزمة ثانية وفصمت رباطها : انها بخط مختلف عن خط جدها .

وقرأت : « ليس لي عن مداعباتك غنىً . احبك بجنون » لاشيء سوى هذه الكلمات .. اما العنوان فكان شديد الوضوح لامرية فيه : « البارونة لي برتوي دي فود » وتناولت ورقة اخرى : « تعالي هذا المساء فور خروجه . ستكون لنا ساعة حب عارمة . اعبدك » .

وفي الرسالة الثالثة قرأت : « لقد صرمت ليلة عذاب اليم وانا مقيم بانتظارك عبثاً . الم تكوني لي بالامس ؟ الم يكن جسدك بين ذراعي لاهصر مفاتنه ولاعب رحيقه ؟ وثغرك المغري الم يكن على مرمى قبلاتي المجنونة ؟ كم غصت في زرقة عينيك عبني !.. فكرت ، اذ اخلفت موعدك ، انك الآن ممددة الى قربه .. يستطيع امتلاكك ساعة يشاء .. فعصف بي ألم جنوني ويأس قاتل اوشكت معهما ان القي بنفسي من النافذة . »

وجمدت جان لاتفقه لما تقرأ معنى !

ماهذا ؟ ولمن ؟ اجل لمن هذه الكلمات المشوقة اللاهبة ؟ لمن ؟ وممن ؟

وتابعت القراءة .. انها عين اللهجة المستعرة .. مواعيد غرام .. خلوات حب .. قبل .. استسلام .. دعوة الى أخذ الحيطة والحذر .. واخيراً العبارة التي لاتتغير : « المهم ان تحرقي هذه الرسالة بعد تلاوتها .. »

وعثرت اخيراً على بطاقة دعوة الى وليمة تحمل ذات الخط والبطاقة باسم « بول دينيار » انه اذاً من كانت تذكره البارونة اذ تقول : صديقي الهرم المسكين بول ! ... وزوجته ؟ الم تكن صديقة امها المفضلة ؟..

ونبت في نفس جان شك مالبث ان استحال حقيقة دامغة لامراء فيها : كان

بول لامها عشيقاً !   وبحركة عنيفة القت هذه الاوراق جانباً كما تنفض حشرة سامة دبت فوق جسمها .. وانخرطت في بكاء خفيف كاد يمزق حنجرتها .. ثم تداعت الى جوار الحائط وغطت وجهها بكلتا راحتيها كي لايسمع صوت نشيجها الى الخارج ..

ولربما كانت ستبقى على هذا الوضع طوال الهزيع الاخير لو لم يطرق اذنيها وقع خطى في الغرفة المجاورة جعلها تثب فجأة . لعل أبوها قد آب من سفره. كانت كل الرسائل مازالت راقدة فوق السرير او على الارض ! حسبه لو تناول واحدة منها اذاً لعرف كل شيء !

وهبت كالمجنونة تجمع تلك الاوراق المتناثرة المصفرة ، رسائل الاب ورسائل العشيق ، ما كان منها منشوراً وما بقي منها محزوماً وحتى تلك التي كانت ترقد في الدرج .. تناولتها جميعاً وحملتها الى الموقد .. واخذت احدى الشموع المشتعلة فوق المنضدة واضرمت فيها النار فملا لهب عظيم انار الغرفة برمتها بألق متراقص راسماً فوق السجف البيض خيال الوجه المغضن والجسم الضخم المسجى تحت الاغطية ولما لم يبق في الموقد سوى كومة من رماد أسود عادت جان فجلست بالقرب من النافذة كانها باتت تخشى دنوها من الجثة وعاودها البكاء فاخذت رأسها بين راحتيها مجهشة بصوت عصبي متقطع : آه ! ياوالدتي المسكينة . ياوالدتي المسكينة !

ودهمتها فكرة مريعة : هب ان امها لم تكن قد ماتت بل غارقة في سبات كالموت وانها ستنهض فجأة وتعود اليها الحياة والنطق ! الن يؤثر عليها ، هي جان ، ادراكها لسر امها ، في حبها البنوي نحو هذه الأم ؟ استقبلها تلك القبلات الطاهرة كما تعودت ان تفعل ؟ كلا هذا لايعقل !

لشد ماحملت فيها هذه الفكرة اثخاناً وتمزيقاً !

امحي سواد الليل شيئاً فشيئاً .. وشحبت النجوم قليلاً قليلاً ... وزحف الفجر رويداً رويداً ... وهبط القمر من على سدته ليختفي وراء البحر وقد اسبغ عليه لونه الصدفي المتألق .

وعادت بجان الذكرى الى تلك الليلة التي قضتها الى النافذة يوم قدومها الى (بوبل) .. ما ابعده من عهد !.. لقد تغير كل شيء .. ما اغرب هذا المستقبل !

واخذت السماء تصطبغ بلون البنفسج والورد كما تضرجت وجنتا عذراء خفرة عاشقة ..

هاهي ذي جان تتأمل ولادة النهار مأخوذة مسحورة والح عليها هذا السؤال: لمَ لاتكون السعادة مركباً وطيئاً فوق هذه الكرة حيث يبزغ مثل هـــذا الفجر الخلاب ؟

وانتفضت اذ فتح باب الحجرة . انه جوليان جاء يستفسر عن حالها وعما اذا كان قد الم بها تعب وارهاق .

وكان جوابها مقتضباً نافياً .

لقد أسعدها دخول جوليان فهي لم تعد وحيدة . قال :

– اذهبي وخذي قسطاً من راحة .

ومشت الى امها فقبلتها قبلة منبهلة مؤلمة حزينة ثم انصرفت الى مخدعها .

وتصرم النهـــار في تلك الاستعدادات التعيسة التي يتطلبها الموت . ووصل البارون مساءً فبكى مرير البكاء .

وفي الغد واروها الثرى حيث انتهت حياة شأن الالوف من مثيلاتها في هذا العالم الكذوب ..

وانسحبت جان بعد ان ودعت امها الوداع الاخير لتستقبل المعزين .

ووصلت جيلبرت اول من وصل فالقت بنفسها فوق صدر صديقتهـــا شاهقة بالبكاء .

وتوافدت المركبات زرافات زرافات . ودخلت نساء غارقات في السواد وادهش جان انها لاتكاد تعرفهن . ولاحظت على حين غرة الخالة ليزون تنزلق الى قربها فعانقتها بحنو كاد يؤدي الى انهيار اعصاب العانس المسكينة . ودخل

جوليان غـــارقاً في سواده . كان شديد الاناقة ، منهمكاً ، راضياً عن وجود هذا الجمع . وحدث زوجه بصوت خفيض قائلاً : ـ هاقد توافد كل النبلاء . انه لشيء جميل .

ولم يلبث ان غادر المكان بعد ان حيى السيدات برزانة .

أقامت الخالة ليزون وجلبرت الى قرب جان بعد استكمال مراسيم المأتم وكانت الكونتس لاتنفك تعانق جان هاتفة : ـ ياعزيزتي المسكينة ! ياعزيزتي المسكينة !

وعندما حضر الكونت دي فورفيل ليصحب زوجته اثناء عودتها بكى بكاءً مراً وكأن الفقيدة من لحمه ودمه .

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

الفصل الثالث

تتابعت الايام حزينة كئيبة مرهقة فلدى كل خطوة يبرز مايذكر جان بفقيدتها العزيزة وكثيراً ماخيل لها انها تسمع صوتها يتردد ويعلو فتحاول الهرب الى مكان آخر .

كان لابد لها من البقاء حيث هي لأن الكل مقيم هناك لايبرح .

وكان الاكتشاف الذي وقعت عليه جان ، فضلاً عن ذلك ، يرهق منها الوجدان ويثقل الضمير فلم يجدها شيء في ضمد جراح فؤادها المحطم الممزق .. ولشد ما ارهق هذا السر الهائل وحدتها فاحالها خانقة مقبضة لاتطاق .. لقد اطاح هذا السر الفضوح آخر ماحملت من ايمان بصلاح الناس ونقاوة ضمائرهم وسلامة سرائرهم .

ولم يطل الامر بابيها فغادر القصر الى روان فقد كانت به حاجة الى الترويح عن النفس وتبديل الجو بعد ان افقدته المنية رفيقة حياته ..

وعاد المنزل الكبير الى حياته الرتيبة المتمادة فكأنه لم يفقد أحد اصحابه .

والمّ ببول مرض فطار صواب جان شعاعاً وامضت اثنتي عشرة ليلة لايغمض لها جفن ولا تكتحل لها عين بكرى ولا تكاد تذوق طعاماً .

ولطف الله بهذه الأم المنكودة الطالع فأبل طفلها من مرضه الا انها لم تستعد قواها النفسية ففكرة موت ابنها كانت مسيطرة عليها ايما سيطرة . لو حدث ذلك ماتراها فاعلة ؟ ماذا يحل بها ؟.. وبهدوء تولدت فيها رغبة بان يكون لها ولد آخر . وسرعان ماراحت تحلم به وقد بعثت في صدرها رغبتها القديمة في ان

يكون لها ولدان : صبي وبنت . ولم تبرح هذه الفكرة خلدها بعد ذلك قط .

كانت تعيش منفصلة عن جوليان منذ حادثة روزالي وانه ليبدو لها مستحيلاً دنوها منه ولا سيما في الوضع الذي هي فيه فجوليان قد علق امرأة اخرى في مكان آخر . انها لاتجهل هذه الحقيقة الصارخة .

ووجدت نفسها تنتفض احتقاراً وتقززاً لمجرد التفكير بالاستسلام الى مداعبات هذا الرجل الممقوت .

ولكن قد ترضى ذلك منه وتحتمله في سبيل اشباع تلك الرغبة التي اصبحت ترهق تفكيرها ايما ارهاق . وتساءلت كيف يمكنها تبادل القبلات من جديد بعد ان صدفا عن ذلك عهداً طويلا . وخير لها الف مرة ان تموت غماً من ان تترك يحدس برغبتها هو الذي لم تكن بوادره تدل على انه يفكر فيها .

ربما كان بميسورها الانصراف عن فكرتها تلك لو لم تكن لاتنفك تحلم بها ليلها ونهارها . هاهي ذي ترى ابنتها تلهو مع بول تحت الخميلة . وكثيراً ما كانت تثور فيها رغباتها فتود لو تنهض وتذهب الى زوجها في غرفته ولقد فعلت ذلك مرتين الا ان خفرها وكرامتها منعاها من ولوج الباب فعادت ادراجها وقلبها يجب وجيباً عالياً .

كان أبوها قد غادر القصر وامها قد ثوت في جدثها فلم يعد لها ثمّ من تميط له اللثام عن أسرار قلبها الحميمة .

وقررت اخيراً ان تمشي الى الاب بيكو فتفضي اليه ، اثناء الاعتراف ، برغبات قلبها المكبوتة .

وبلغت مسكنه فوجدته يقرأ في كتاب الصلوات تحت أشجار حديقته الوارفة الدانية القطوف .

وبعد ان تجاذبا أطراف احاديث شتى تمتمت وقد اندفعت دماؤها فضرجت وجنتيها البلوريتين :

— بودي لو اعترف ياسيدي الاب .

وجمد الـكاهن فترة ثم رفع نظارتيه ليتأملها جيداً وانفجر ضاحكاً ...

- لا اظن ذنوباً كثيرة ترهق منك الضمير ..

واضطربت واجابت : - كلا . انما ابتغي ان اسألك نصيحة حـول امر خطير .. شائك بشكل لا اجرؤ معه على الافضاء به حتى اليك انت .

وبلهجة كهنوتية قال : - حسناً ياولدي . سأسمعك هيا الى حجرة الاعتراف بيد انها ترددت وتلكأت فليس لها الجرأة الـكافية للافضاء بسرها المخجل تحت قبة الكنيسة .

قالت : - اليس افضل .. ياسيدي الاب .. اعني .. أأستطيع .. اذا شئت .. ان احدثك هنا بما دفعني الى المجيء اليك . هيا . سنجلس هنـاك تحت عريشتك الصغيرة تلك .

وسارا بخطى وئيدة . كانت تفكر كيف ستبدأ . كيف تعبر . وجلسا .

وبعد ان فرغت من الاعتراف بدأت : - يا ابتاه ... وصمتت وقد استبد بها الاضطراب .

اما الـكاهن فـكان ينتظر ويداه فوق بطنه متصالبتان . ولمس فيهـا الاضطراب فشجعها :

- حسناً يابنيتي . يخيل الي انك لاتجرؤين على الافضاء هيا . تشجعي .

وحزمت امرها بغتة كما يثب الجبان لمواجهة الخطر الداهم .

- ان بي ، يا ابتاه ، رغبة في ان الد ولداً آخر .

لم يجب بشيء لأنه لم يفقه من كلامها شيئاً . ولم تر مندوحة عن الافصاح وقد كادت ، لشدة انفعالها ، تفقد القدرة على التعبير :

- اني وحيدة في الحياة الآن يا ابتاه . فوالدي وزوجي على نفور وقطيعة .. وامي .. امي المسكينة قد قضت .. و .. و ..

وخنقتها العبرات ثم استجمعت فلول قواها وتابعت بلهجة مخنوقة : - وذات

يوم اوشكت ان افقد وحيدي ! ماذا يحل بي لو حصل مثل هذا الشيء المريع لاسمح الله ؟

ولاذت باذيال الصمت . كان الكاهن ينظر اليها فاغراً فاه : ـ حسناً . النتيجة ؟

فرددت بلهجة لا ارادية : ـ اريد ولداً آخر .

وابتسم . لقد اعتاد دعاب القرويين السمج .

واجاب وقد ارفق قولته باشارة من يديه :

ـ حسناً . لا ارى في الامر مايتعلق بي فهو يخصك دون سواك ..

ورفعت اليه عينين مكسرتي الاهداب وغمغمت بلهجة بالغة التأثر : ـ ولكن .. انت تعرف انه ... منذ .. تعرف ماحدث ... مع تلك الخادمة .. منذ ذلك الوقت ونحن .. زوجي وانا .. نعيش منفصلين تماماً !

لقد ادهشه هذا الاعتراف هو الذي تعود سماع احط الاشياء من القرويين وخيل اليه فجأة انه حدس مارمت اليه المرأة الشابة . وتأملها بزاوية عينه وقد فاض قلبه شفقة على آلامها الجسام .

ـ أجل لقد ادركت ماتقصدين .. فهمت ان .. حالة الترمل التي انت فيها تثقل كاهلك . انك شابة حسنة الصحة . مكتملة العافية .. انه أمر طبيعي، طبيعي جداً يابنيتي .

وعاد يبتسم بطلاقة طبعه المرح هو الكاهن الريفي وربت بلطف ظاهر يد جان :

ـ ان ماتطلبين حق لك . بل من اقدس الحقوق . فالشريعة قد وهبتك اياه . فالزواج هو المتنفس الوحيد للغرائز كما نصت الكتب . وانت متزوجة ؟ أليس كذلك ؟ وانت لم تتزوجي « لسواد عيني الزواج فقط » ؟

وبدورها عجزت عن فهم هذه المعميات . وما ادركت مقصده حتى تضرج خداها واضطربت بعنف وهطلت الدموع من مآقيها !

ـ آه ياسيدي الكاهن ! ماذا تقول ؟ بمَ تفكر ؟

اقسم الك . اقسم لك ..

وخنقتها الغصص .

وادهشه منها مابدر فراح يخفف عنها :

ـ دعينا . لم اشأ ان اسبب لك عناء . اني امزح قليلا . هذا ليس مستهجناً عندما يكون القصد شريفاً . لك ان تعتمدي علي . تستطيعين الاعتماد علي . سأرى السيد جوليان .

لم تدر ماتقول . شاءت ان ترفض هذا التدخل الذي لمست الآن خطره وبعده عن الحكمة :

ـ اشكرك ياسيدي الكاهن .

مرت ايام ثمانية وجان تعيش في ألم وقلق .

ولحظت ، ذات مساء ، ان جوليان ينظر اليها وهما الى المائدة بشكل غريب . وقد طافت بشفتيه ابتسامة .. كانت نظرته اليها أشبه بما كان يفعل ايام صبوته . ثم راح يبدي حيالها شيئاً من التحبب الخالي من كل سخرية . وهمس في اذنها ، اثناء نزهتهما في الممشى : يبدو اننا قد اصطلحنا .

لم تجب اذ ان افكارها كانت شاردة مع انظارهـا الملقة بخط مستقيم رسمته خطى البارونة امها واوشك الآن ان يمحي وقد نبتت فيه الحشائش . كما تمحي الذكريات .. واحست جان قبضاً من التعاسة يغمر فؤادها فينقبض .. لقد ادركت الآن انها مضيعة في هذه الحياة .. قد تخلى عنها الجميع

وعاد جوليان يقول : ـ ارجو ان اظفر برضاك ..

كانت الشمس قد غربت واضحى الهواء عليلاً . وادركت جان رغبة ملحة في البكاء .. ففتحت ذراعيها والقت بنفسها فوق صدر جوليان ..

بكت .. بكت بدموع سخينة . وادهشت فعلتها جوليان فراح ينظر الى شعرها دون ان يرى وجهها المختبيء بين طيات صدره . وفكر : انها لا تزال تحبه . طبع فوق شعرها قبلة مركزة ..

ونهضا لا يفوهان بكلمة . وسار بها الى غرفتها حيث قضي الليل معها .

وعادت علاقاتها على ما كانت عليه قبلا الامر الذي كان يرهق جان اشد ارهاق فهي ما تزال تحمل لزوجها احتقاراً وتقززاً الا انها ارتضت معاشرته كيما تصل الى مبتغاها فما ان تحمل حتى تعود الى الانفصال عنه .

بيد انها لم تلبث ان وجدت في مداعبات زوجها سمة لم تعهدها فيها من قبل . كان يتصرف حيالها تصرف عشيق لا زوج مطمئن الى ممارسه حقه .

ومكثت مشدوهة ازاء ما كان يعمد اليه من اساليب تحول دون اخصاب علاقتها وإثمارهما .

وسألته ذات يوم ايضاحاً فاجاب : ـ ولكن .. كي لا تحملي .. وانتفضت صارخة : ـ لم لا تريد اطفالاً .

وعقدت الدهشة لسانه : ـ ماذا تقولين ؟ لاريب في انك جننت ؟ آه ! ولكن كلا ، مثلاً ، ولد آخر ! ان لنا في ولدنا كفاية ! ولماذا تريدين جيشاً من الاطفال ؟ لاشغال الناس وانفاق المال ؟ ولد آخر ! شكراً لك ..

وقبضت على ذراعه وقبلته ، وغمرته بحنانها ورجته بصوت خفيض : ـ آه . اتوسل اليك دعني اصبح اما مرة ثانية .

واستشاط غيظاً كأنها جرحته :

ـ حقاً انك تفقدين الصواب ! دعينا من حماقاتك ! ارجوك !

ولاذت بالصمت وقد عزمت على بلوغ مأربها بالحيلة

غير انه كان دائماً حذراً مسيطراً على اعصابه ففشلت كل محاولاتها فلم تر بداً من العودة الى الاب بيكو .

وما لمحها قادمة حتى هتف : ـ حسناً يا سيدتي الجميلة !

وكانت به رغبة الى معرفة ما آل اليه حالها :

وجاءه جوابها فوراً وقد تخلت من حيائها الملازم :

ـ ان زوجي راغب عن الاولاد !

واستدار اليها الكاهن : — وكيف كان ذلك ؟

كان شديد الاهتمام ، متأهباً للخوض في الموضوع بتطفل الكهنه وحب استطلاعهم شؤون المضجع ، هذه الشؤون التي تعطي للاعتراف متعة خاصة .

وبالرغم من حزمها ، تلجلج صوتها وهي تشرح :

— ولكنه .. يرفض .. يرفض باصرار ان يجعلني اما .

وفهم الكاهن . ان مثل هذه الاسرار لا تدق عن ادراكه . وشرع يسأل المرأة عن التفاصيل الدقيقة السرية بنهم رجل طال به الصيام ! ..

وفكر دقائق قليلة ، وبصوت بالغ الهدوء كما لو كان يتحدث عن الموسم المرتقب ، رسم لها خطة بارعة مستوفية شروط الدقـــة والحذر : — ليس لديك ، يا بنيتي العزيزة ، سوى وسيلة واحدة . وهي ان توهميه انك حامل . وليس له ان يتأكد من كذب زعمك حتى تكوني قد حملتي حقاً !

وتضرجت حتي منبت شعرها . بيد انها اعترضت :

— وهب انه لم يصدقني .

لم يكن بالكاهن جهل بالاساليب التي يقتاد بها الرجال ويمتلكون : — اعلني عن ذلك في كل مكان . قولي لكل الناس انك حامل . وسينتهي به الامر الى الاعتقاد وهو نفسه بصحة مزعمك .

واضاف مبرراً فعلته : — انه حق من حقوقك . فلولا انجاب الذرية لما سمحت الكنيسة بالاتصال بين الرجال والنساء !

وطبقت خطة الكاهن البارعة بحذافيرها . ولم يمض اسبوعان حتى جاءت تعلن لجوليان انها تنتظر حدثاً سعيداً !

وقفز مذعوراً : — هذا غير ممكن . غير صحيح !

واوضحت له دلائل ذلك . فلم يلبث ان افرخ روعه وقال

— بخ ! انتظري قليلاً وسترين !

كان كل صباح يتوجه اليها بالسؤال : — ماذا ؟

فيأتيه جوابها : ... لم يطرأ شيء بعد . اني واثقة بما ذهبت اليه .

وبدأ يقلق ، ثم يغضب ، وأخيراً ادركه اليأس فكان يردد : — لا اكاد افهم ! لا اكاد افهم . اني ادفع حياتي ثمناً لمعرفة كيفية حدوث هذا الشيء .

وخلال شهر كان الخبر قد ذاع في كل مكان فعرفه القاصي والداني ما خلا الكونتس جيلبرت .

وانقطع جوليان عن زوجته وكان يردد غاضباً مشيراً الى الجنين : — هو ذا من لم نكن راغبين في قدومه !

وعاد يائساً يقضي لياليه في غرفة زوجته .

وتحقق ما حدسه الكاهن تماماً . وحملت جان !

وغمرتها من جراء ذلك موجة غبطة مقعدة مقيمة فكانت تسرح في الآفاق ناظريها شاكرة للعناية صنيعها مقرة بجميلها عليها . وكانت ، كل مساء ، توصد باب مخدعها وقد عزمت واقسمت لتحتفظن بطهارتها حتى آخر نسمة من حياتها

وشعرت بالسعادة . وقد ادهشها كيف استطاعت، بعد فقدان امها ، التخلص من آلامها بمثل هذا الحزم وكان قد خيل اليها ، اول الامر ، انها لن تجد عن فراق امها عزاء ولا سلوى .

ولكن ها هو جرحها الناغر يندمل اندمالاً في فترة لا تتجاوز الشهرين عداً . لم يبق من احزانها الماضية سوى ستار خفيف لطيف يجلبب حياتها كما القناع وجه الحسناء . سيشب ولداها بدعة . وتأخذ هي طريقها الى الهرم فالشيخوخة وسيمحضانها حبهما .. فلا تهتم بزوجها ولا تأبه له .

وفي نهاية ايلول زارهم الاب بيكو مرتدياً جبة جديدة لا تحمل الا بقع اسبوع واحد وكان برفقته كاهن شاب نحيل ، بالغ القصر ، فخم الكلام ، ذو عينين محاطتين بهالتين سوداوين غائرتين في وقبيهما مشعتين بروح عنيف وخلق وعر

وقدمه اليهم : — انه خلفه الاب تولبياك .

اما الاب بيكو فقد نقل راعياً لبلدة كودرفيل .

احست جان حزناً حقيقياً لفراق كاهنها الشيخ . فوجه هذا الرجل الطيب كان قوي الصلة بذكرياتها كزوجة شابة فهو الذي عقد قرانها وهو الذي نصر ولدها بول وهو الذي دفن امها البارونة . انها تحبه لأنه صريح مرح .

بالرغم من رفعة المرتبة التي ظفر به الاب بيكو لم يبد مرحاً قال : ــ ان هذا الامر ارهاق لي يا سيدتي الفيكونتس ها ثمانية عشر عاماً قد صرمتها في هذا المكان . آه . صحيح ان هذه المقاطعة لا تغل شيئاً كثيراً . . والرجال . . رجالها لم يعدلهم كبير اهتمام بقضايا الدين . . والنساء . . كما ترين ليس سلوكهن على ما ينبغي . . والفتيات لا يتزوجن الا بعد ان يرتكبن حماقات تذهب بعفافهن . ان زهور البرتقال قليلة الخطورة في هذه المقاطعة . . مع ذلك فانا احبها . . .

وبدرت من الكاهن الجديد اشارات نمت عن صبر يكاد يفرغ وتضرج خداه وهو يقول : ــ سيتغير كل ذلك في عهدي !

كان ، في مسوحه الرثة النظيفة ، كطفل غر حانق !

واستمر النقاش بين رجلي الدين فترة اخرى كان يسدي اليه الاب بيكو نصائح غالية : « ينبغي له ان يعمل على تزويج كل فتاة تأتيه متضخمة البطن قليلا . . اما ان يحاول منعها عن فعل ما يؤدي الى تضخم البطن فامر لا سبيل اليه وخير ما يعمله سعيه لاقناع مرتكب الفعلة برتق الفتق بالزواج من الام العازبة .

واستئذنا بالذهاب . وعانق الكاهن الشيخ جان فاجهشت بالبكاء .

وزارهم الكاهن الجديد في الاسبوع القادم ثم عاد بعد ذلك عند ما لاحظ ان جان لا تذهب الى الاحتفال الديني ايام الآحاد . واقنعها بسهولة بوجهة نظره مبرهناً لها انهما ، هو وهي ، رأس المنطقة وعليها ان يتكاتفا كيما يستطيع هو اداء رسالته الدينية . كان يكلمها بحماسة وايمان عميقين ما لبث ان جذبها بهما اليه فاضحت تقوم بشعائر دينها خير قيام .

كان هذا الكاهن الصارم لا ينفك يقوم ، في مواعظه ، بحملات حامية الوطيس ، شديدة الوطأة ، على الشبان والشابات الذين ينقادون الى مزالق الطيش والغواية .

.كان شديداً في حكمه على الفتيات الخاطئات فارضاً عليهن اشد القصاص بغية ردعهن عن حماقتهن والعودة بهن الى حظيرة التقوى والصلاح والعفاف . ولم يكن ليتورع عن اعلان اسماء من يلحظ منهم سيراً معوجاً او انحرافاً عن الصراط القويم.

واستمر في خطته العنيفة تلك حتى امتنع اكثر الشبان والشابات عن ارتياد كنيسته . اما جان فقد توثقت عرى الالفة بينها وبين هذا الكاهن الشاب الذي لا يخشى في الحق لومة لائم فكان يأتي كل خميس فيتغدى في القصر ثم ينهضان بعد الغداء فيسيران في الممشى الذي كان للبارونة متنزهاً يأخذان باطراف احاديث دينية تذهلها عن كل ما عداها فيحدثها عن المسيح والرسل والانبياء وكأنهما يتحدثان عن اشخاص يشدهما اليهم رباط معرفة وثيق .

لقد استطاع هذا الكاهن المتحمس ان يعود بجان الي حظيرة الدين بعد طول الضلال .

اما جان فكان يعامل الكاهن باحترام عظيم مردداً دون انقطاع : - لشد ما يعجبني هذا الأب .

وكان لا يألو جهداً في الاعتراف والمناولة .

ولم يكن جوليان ، في هذه الايام ، لينقطع يوماً عن زيارة آل فورفيل فهو يخرج الى الصيد برفقة الزوج الذي لم يعد له عن رفقته غنى ، او يرافق الزوجة في نزهة على الجياد رغم رداءة الجو . اما الكونت فكان يعلق على هذه النزهات قائلاً :

ـ انهما مجنونان بجواديهما . ولكن هذا العمل مما يجلب السرور الى قلب امرأتي .

وعاد البارون الى القصر حوالي منتصف تشرين الثاني كان الهرم قد ظهر على سمات وجهه فتغيرت وخبت جذوة الشباب فيها ، وهو الغارق ابداً في حزن اربد قاتم بلغ منه اعماق وجدانه . وكأن الحب الذي كان يحمله لابنة قد ضؤل وكاد يضمحل فكأن تلك الاشهر من الحزن المقيم قد تركت قلبه وقد تبلد شعوره وتحجرت عواطفه .

لم تحدثه جان بافكارها الجديدة وصلاتها الحميمة مع بالاب توليباك وحماستها

الدينية المستجدة غير انه ما ان التقى به المرة الأولى حتى احس نحـوه كراهية لا غبـة .

وعند ما سألته ابنته رأيه في الكاهن ذلك المساء قال : — هذا الرجل؟ كأني به احد رجال (محاكم التفتيش (١) انه خطر هذا الرجل !

ولما اطلعه الفلاحون على قسوة الكاهن وصرامته ومحاربته للغرائز الانسانية الطبيعية لم يسعه الا الانفجار ضده بغضب لاهوادة فيه وكراهية لاقرار لها .

والباررون من اولئك الفلاسفة القدامى ، عباد الطبيعة الذين يذوبون وجداً امام كائنين يتحدان فلا يسجدون الا لاله واحد هو الطبيعة بما فيها ، ويثورون ضد المعتقد الكاثوليكي الذي يصور الله برجوازي النزعات ، منتقماً كالجزويت ، جباراً كأنه الطاغية الغشوم ...

اما الههم فهو تلك القوة التي جمعت العالم في واحد : واجب الوجود، لاحدود تحده ، قادر على كل شيء : الخلق والنور والحياة ، الارض والنباتات والصخور ، الافكار والانسان والحيوان ، النجوم والكواكب والله والحشرات في آن واحد! يخلق لأنه مخلوق ، اقوى من الارادة ، ابعد مدى من الفكر ، منتج دون هدف، دون غاية بكل ما في هذه الكلمات من معان متناهية .. تبعاً لمقتضيات الصدف ، ولدورات الشموس التي تنير العوالم .

ان الله يشمل كل الاجرام ، والفكر والحياة عنه ينبعثان كما تتفتح الزهرة وتبرز الثمرة من الشجر .

الله ! انه هذا النظام الخالق المخلوق الذي يهيمن على الكون المترامي الاطراف الغير المحدود ، انه نظام يحار العقل امام دقته ، وتسجد النفوس أمام خلوده ! انه نظام غير عاقل الا انه يبدع أروع مما تبدع العقول : لأنه هو الذي ابدع تلك

(١) محاكم التفتيش (Tribuual de l' Inquisition) هي هيئة عدلية دينية اشتهر في اسبانيا ، خلال القرون الوسطى . باساليب التعذيب الجهنمية التي ابتدعتها للارهاب اعداء الدين حتى ضرب المثل بقسوتها وفظاعة اساليبها .

— المترجم —

المعقول ! انه علة كل شيء وكل شيء علته . فلولا المنظم لما كان نظام ، ولولا المخلوق لما وجد خالق !

« والانسان ، بنظر هذه الفلسفة ، القاعدة العليا والقانون الاسمى ، انه عمل الله بل أقدس اعماله ، فهو الذي يعبر عن قدرة « الكائن الاسمى » ويتمم ارادته تلك الارادة الخالدة الغير الواضحة المرامي كل حين ، والباقية لاتحول ولا تزول .

وشرع البارون يشن حرباً لاهوادة فيها على هذا الكاهن الصارم ، المحتقر سمو أسرار الطبيعة وروعة قوانين الحياة !

ولكم احزن جان مابدر من ابيها حيال الكاهن فكانت ترجوه كيما يكف عن حملته العنيدة ضد الكاهن الشاب ، كما كانت تصلي ضارعة الى الله ليلهمه التؤدة والهوادة . الا انه كان دائماً يجيبها : ـ لابد من مكافحة مثل هؤلاء الناس . انه حقنا وواجبنا . فهذه الطغمة غير الانسانية لابد من قطع دابرها وسحق عنفوانها .

ويردد وهو يهز رأسه الابيض اللمة : ـ كلا . ليس هؤلاء بشراً . لقد ختم على قلوبهم فهم لا يفقهون شيئاً .. اي شيء . انهم يحيون في حلم واه ـ وهون على انفسهم وعلى الناس . انهم (اعداء الطبيعة) . انهم لمجرمون !

كان متوتر الاعصاب ، يصرخ : اعداء الطبيعة فكأن هذه الصفة اهانة لهم وسبة .

ولم يفت الكاهن ان له في القصر عدواً عنيداً . بيد انه ، رغبة منه في ان يحافظ على سيطرته على ربة القصر ، مال الى القصد في حملته والحد من غلوائه وهو على مثل اليقين من ان النصر الاخير حليفه ولا ريب .

ولزمته فكرة ثابتة : فصم عرى العلاقة الآثمة التي تربط جوليان بجلبرت . وكان قد اطلع على ذلك بطريقة ما .

ومشى الى جان يوماً . وبعد ان امضيا الساعات في حديث ديني فلسفي ، طلب اليها ان يتكاتفاهما الاثنين لقطع دابر الشر واستئصال شأفة الفساد المترعرع في صميم العائلة ، بغية انقاذ نفسين اتبعتا سبل الغواية وشطتا عن النهج القويم وقد اصبحتا على منزلق خطر فاغر الفوهة كاشر الشدق بعيد القرار ! .

لم تفهم جان شيئاً وودت لو يفصح ويبين . فجاءها جوابه مراوغاً مطاطاً :ـ ان الساعة لم تدق بعد . وسأتصل بك مجدداً ، وانطلق الى شأنه لا يزيد على معمياته اي ايضاح .

كان الشتاء القارس المطير يردد آخر انفاسه .

وعاد الكاهن في زيارة ذات يوم . وشرع يردد على مسمعي جان الغازه ومعمياته . الا انها ، هذه المرة ، لم يفتها مرماه وراءها ما قصد اليه . فلم يتردد وشرع يشرح لها بوضوح وصراحة قائلاً : ـ انه لواجب مضن هذا الذي اجد نفسي مضطراً الى الاضطلاع به حيالك . الا انه لا مناص من ذلك . فوظيفتي الدينية تحتم علي ذلك فلا يصح ان اتركك تجهلين شيئاً قد تستطيعين الحيلولة دون استشراء شره . اعلمي يا سيدتي ان لزوجك علاقة آثمة بالسيده دي فورفيل! واحنت رأسها مؤمنة وقد خذلتها قواها .

وعاد الكاهن يقول : ـ ما تراك فاعلة ؟

وتمتمت حينذاك : ـ ما ذا تريديني ان افعل يا سيدي الاب ؟

وألقى جوابه اليها فكان عنيفاً واخزاً :

ـ احمي بنفسك اذاً في أتون هذا الحب المجرم !

وشرعت ، بصوت مخنوق ، تبكي : ـ ولكنه خانني مع خادمتي .. انه لا يصغي الي ، انه لايصغي الي ، انه لم يعد يحبني ، واذا ما ابديت له أشياء من تصرفاته فهو لايتورع عن اساءة معاملتي ، فما الذي استطيع فعله حياله ؟

وصرح الكاهن لايخشى اذناً تسرق السمع :

ـ اذاً فانت تنحنين ! انك تخضعين ! انك تقرينه على مايرتكب من آثام ! فالجريمة تحدث على مشهد منك فتلوين عنها عنقك وتميلين بوجهك ! فكأنها لا تعنيك أأنت زوجة !؟ أمسيحية انت ؟! أولست أماً ؟! سيدتي انك بعرف الدين ، لشريكة في الاثم مقاسمة للخطيئة !

ونشجت : ـ ماذا تريدني ان افعل ؟!

فأرغي : — كل شيء ما خلا الاغضاء عن هـذه القحة ! كل شيء اقول لك ! هجريه .. اهربي من هذا المنزل الرجس ، ابعدي بنفسك عن بؤرة القمامة !

وقالت بانكسار : — ولكني لا املك مالا ياسيدي فضلا عن اني افتقر الى الجرأة .. ومن ثم .. ليس لدي الادلة الكافية الدامغة ضدها ، فكيف استطيع الاقدام على مثل هذه الخطوة دون دليل مادي قوي بين ؟ ليس لي الحق في ذلك .

ونهض الكاهن مزمجراً مزبد الشدق :

— ان الجبن والتخاذل يسديان اليك هذه النصائح ويمدانك بهـذه الذرائع ياسيدتي العزيزة ! خلتك غير ما عرفت الآن ! انت خليقة بنعمة الله وغفرانه !

وسقطت فوق ركبتيها : — آه ! ارجوك ! لاتدعني ! قف بجانبي وخذ بيدي !

ولفظ باقتضاب وقسوة : — افتحي عيني السيد دي فورفيل الزوج المخدوع فعليه تقع تبعة استمرار هذه العلاقة الاثيمة .

وتركتها قولة الكاهن ترتجف . — ولكنه يقتلها ياسيدي الكاهن وأكون قد سببت بفعلتي تلك جريمة قتل مزدوجة ! آه ، لا أقوى لا استطيع !

ورفع الى السماء راحتيه كأنه يستمطر عليها لعنة السماء . واستطرد وقد عصفت به غضبة رعناء :

— ظلي اذاً في الوحل تتمرغين وفي الجريمة تلغين ! انك اشد اجراماً منهما . انك الزوجة المتغاضية عن خلق زوجها ! انك تمهدين له سبل الاثم ! لم يعد لي ما افعله هنا !

وانطلق متفاقم الغضب حتى ان جسده كان ينتفض انتفاض المقرور .

ولحقته تكاد تضيع صوابها ، مستعدة للتسليم ، للعمل بما يشير ، متأهبة لقطع الوعود على العمل باشارته الا انه استمر في سيره الحثيث فائض التقاطيع بالتقزز والاحتقار ملوحاً بمظلته الزرقاء التي تناهز قامته طولاً .

ولمح جوليان واقفاً وراء السور يدير بعض الاعمال الزراعية فانعطف الكاهن يساراً كي يتحاشى المرور بربِ القصر وكان لايفتأ يردد : — دعيني ياسيدتي ليس لدي ما أقوله لك .

ولمح في طريقه جماعة من الصبية قد تجمهروا ينظرون الى شيء معين بمبالغ من الفضول وكان البارون معهم لا يقل عنهم اهتماما . كانوا متحلقين حول بيت الكلبة «نيرزا» ..

وما ان لمح البارون الكاهن قادماً من بعيد حتى انصرف متحاشياً الالتقاء به وتحيته .

وخاطبت جان الكاهن ضارعة : ـ هبني بضعة ايام ياسيدي الكاهن وعد الى القصر . وسأطلعك على ما اكون قد تمت به وسندرس الموقف سوية على ضوء التطورات .

وكان قد بلغ في عدوه جماعة الصبية المتصايحين . ودنا ونظر : انها الكلبة تلد ! كانت قد القت الى النور بخمسة جراء وما زالت في سبيل وضع آخرين . وتتطاولت بجسمها واذ بها تلقي الى الدنيا بجرو جديد .. وصحب ذلك لغط طروب من الصبية المتحلقين حول الوالدة النفساء !

وتسمر الاب توليباك اول امره مبهوراً دهشاً ثم اجتاحته غضبة عاصفة فتناول مظلته وراح يمعن في الصبية ضربا وصفعاً وانتهاراً فانفرط عقدهم وتفرق شملهم انطلقوا في كل اتجاه متصايحين مولولين .

واندفع ، في ثورة غضبه الجنونية ، نحو الكلبة الوالدة وجرائها حديثي الولادة وراح يثخنها بمظلته حتى تحطم المقبض في يده فعمد الى قدميه يركلها وصغارها بها ركلاً لا هوادة فيه ولا رحمة حتى اهلك الام واثخن في الصغار .

واطلقت جان ساقيها الريح أمام المشهد الوحشي الفظيع ولم يشعر الكاهن الا ويد قوية تقبض خناقه ثم أتته صفعة شديدة اطارت قبعته الثلاثية القرون واحتملته يد البارون الصارمة وجرته حتى السور وقذفت به الى الطريق .

وعندما رجع البارون وجد ابنته قد خفت الى الجراء الصغيرة فركعت امامها وراحت تلتقطها وتضمها في ذيل ثوبها .. واندفع اليها مسرعاً وقال : ـ هذا هو الرجل ذو المسوح .. هل عرفته الآن ؟!

وكان بعض المزارعين قد تجمهروا وقد شدهوا لهذه الوحشية التي بدرت من رجل الله !

ولم يعش من الجراء سوى اصغرها فقد احضروا له هرة والدة القموه ثديها . وأبى البارون الا ان يطلق عليه اسم « ماساكر » ـ مذبحة ـ

ولم يرجع الكاهن الى القصر بعد ذلك ، وفي الاحد التالي اطلق من فوق منبره اتهامات خطيرة وتعريضاً جارحاً بالقصر وسكانه ملمحاً الى علاقات جوليان الآثمة بالخادمة روزالي والكونتس جيلبرت . وثارت ثائرة الفيكونت جوليان الا ان خشية الفضيحة خنقت انفاس هذه القضية .

واستمر الكاهن الغضوب يندد بالقوم في مواعظه معلناً ان يوم الله قد دنا وانه لن يألوا جهداً في انزال ضرباته القواصم باعدائه واعداء كل خلق قويم .

ولم يقف جوليان مكتوف اليدين حيال الكاهن الساخط فعمد الى رسالة سطرها الى المطران بلهجة شديدة ولكن باحترام شديد نال الكاهن على أثرهـــا تكديراً من رئيسه فلم يسعه الا الصمت والاستكانة .

وكان الناس يلتقون به يتنزه منفرداً يسير بخطى واسعة كئيباً شديد الانقباض وكثيراً مالمحه جوليان وجيلبرت اذ كانا يقومان بنزهتهما على جواديهما . فكان يظهر لهما أحياناً في أقصى الحقول كنقطة سوداء أو منهمكاً في مطالعة كتبه الدينية في اعماق الاودية الضيقة . فكانا يلويان عنانيهما تفادياً للقائه .

كان الربيع قد هلّ على الكون فاذكت حميـــاه جذوة الحب في صدري العاشقين فكان الواحد منهما لايتورع عن الالقاء بنفسه بين ذراعي الآخر تارة هنا وطوراً هناك ، في كل نجوة يجدانها أثناء نزهتهما .

ولما كانت اوراق الشجر ماتزال صغيرة غضة ، والاعشاب رطبة فلا يستطيعان التوغل في الادغال او افتراش الارض تحت ستر الاغصان كفعلهما ايام الصيف ، لذا كانا يلجآن معظم الاحيان الى أحد اكواخ الرعاة المهجور منذ الخريف والقائم على رابية « فو كوت » .

وهناك يقيان في نجوة من العيون المتطفلة يعبان كؤوس هواهما الآثم عباً فالرابية تطل على كل ماجاورها ولا يمكن لأحد مفاجئتهما وهما فوقها .

اما جواداهما فكانا مشدودين في منعطف يخفيهما عن الانظار ينتظران بصبر الساعة التي ينهك الحب فيها جسدي صاحبيهما فيثملان ويكتفيان !

وفوجئا ، ذات يوم ، وهما يغادران الكوخ بعد ساعة حب قضياها ، فوجئا بالاب توليباك مختبئاً في نبات (الجونك) البحري العريض الورق .

قال جوليان : ـ علينا ترك جوادينا في الوادي من الآن فصاعداً فهو يستطيع اكتشاف خلوتنا بسببهما . وعمدا بعد ذلك الى شد الجوادين في احد منحنيات الوادي الملتف الاشجار .

وكانا عائدين ذات مساء الى القصر عندما لمحا الكاهن خارجاً منه فافسحا له الطريق وحيياه دون ان يرفعا اليه انظارهما ، ولم يلبث قلقهما لرؤيته ان تبدد .

* * *

كانت جان جالسة الى الموقد تقرأ ذات اصيل عندما لمحت الكونت دي فورفيل يدخل مستحث الخطى ، شديد الاضطراب ، حتى لقد خيل اليها ان كارثة ما قد وقعت او هي موشكة الوقوع .

ومشى اليها شديد القلق وما اقترب منها حتى ظنته قد خولط في عقله . كان يرتدي قبعة عريضة لاتصلح للخروج وبدا بشاربيه الاشقرين شديد شحوب الوجه وكانت نظراته ضائعة وعيناه تدوران في وقبيهما .

وقال متلاحق الكلمات :ـ زوجتي .. اهي هنا ؟ اليس كذلك ؟

واجابت جان وقد اوشكت ان تفقد صوابها :ـ ولكن .. كلا فانا لم ارها اليوم اطلاقاً ..

وانحط بجسمه عندئذ كأن ساقيه قد حطمتا ورفع قبعته ومسح جبهته بمنديله مرات عدة بحركة آلية ...

ونهض فجأة كما جلس ودنا من المرأة الشابة وقد مد ذراعيه نحوها وفغر فاه فكأنه يوشك ان يسر اليها بآلام مبرحة .. بيد انه سمر في مكانه فجأة وحدجها بنظرة جامدة ولاك كلمات كأنها الحشرجة :

ـ ولكنه زوجك .. انت الاخرى ..

وانطلق نحو البحر لايلوي على شيء ..

وعدت جان وراءه كيما توقفه وناداته ، ورجته وقد سحق الهلع قلبها .

وفكرت . ـ انه يعلم كل شيء ! ماتراه فاعلاً ؟ آه ينبغي الا يجدهما !..

وعجزت عن اللحاق به وكان لايفتأ منطلقاً بكل قواه وقد أصم اذنيه عن توسلها ورجائها . كان مندفعاً غير هياب واثقاً من الهدف الذي اليه يسير .

واجتاز الخندق وعبر بالنباتات البحرية قافزاً بخطى مارد جبـــار حتى بلغ الشاطيء الصخري .

ووقفت جان فوق الرابية تتبعه بانظارهـا حتى اختفى فعادت ادراجها الى البيت وقد جثم فوق صدرها قلق مريع .

وانعطف يمناً وراح يعدو ، كان البحر الزاخر يهدر بامواجه والغيوم السود العريضة تتلاحق متراكضة بجنون فتعبر فوق الرؤوس ثم تتلوها غيرها فتغدق فوق الشاطيء مزنها الهتون .. وكانت الريح الزعزع العـــاتية تعصف فتحني النباتات الغضة السوق وتحمل عصابات الطيور البيض كأنها الموج الدافق .

وبلغ وادي فوكوت الفاغر الشدق . لم يكن ثمة سوى كوخ الرعاة بالقرب من حظيرة خراف خاوية . ولمح جوادين مشدودين الى حاجز البيت .ـ ماتراهما يخشيان في هذا الاعصار ؟

وما ان وقع ناظراه على الجوادين حتى استلقى فوق الارض وشرع يزحف على يديه وركبتيه كأنه مارد اسطوري بجسمه الملطخ وحلاً وقبعته المصنوعة من وبر الحيوان . واستمر يزحف حتى بلغ الكوخ المنفرد واختفى تحته كي لايتمكنا من اكتشافه من فرجات الخشب .

واضطرب الجوادان لدى رؤيته ، وعمد الى رباطهما فقطعه بمدية كانت مسلولة بيده . وعصفت الريح فذعر الحيوانان وانطلقا والبرد يجلدهما كأنه السياط اللاذعة كما كان يقرع سطح الكوخ النقال الذي يشبه العربات فكان يهتز فوق عجلاته .

ورفع الكونت جسمه فوق ركبتيه والصق عينه في أسفل البـــاب ونظر الى الداخل .

لم يبد حراكاً . كان كأنه ينتظر . ومرة فترة ليست بالقصيرة وهو جامد كأنه التمثال قد من صخر اصم ! ونهض فجأة على قدميه وبحركة جبارة اوصد القفل الذي يغلق باب الكوخ من الخارج ثم تناول هذا العش من جانبيه بقبضتين فولاذيتين وراح يهزه هزاً عنيفاً كأنه يروم تحطيمه واحنى قامته المتينة البنيان وبجهد يفوق طاقة البشر دفع بالكوخ ومن فيه نحو المنحنى السريع .. ودفع .. ودفع كأنه ثور هائج اعمى الدم بصره ..

وعلا صراخ العاشقين من الداخل وشرعا يضربان الجدران بقبضاتهما وهما لايدركان حقيقة مايحدث لهما .

. وما بلغ بالكوخ اعلى المنحنى حتى افلته ودفعه دفعه اخيرة بجماع قواه فاندفع متدحرجاً فوق الصخور المتلاحقة حتى الشاطيء . وكانت سرعته في هويه تزداد بازدياد تدحرجه فكان يضرب الصخر بجوانبه فيقفز ويثب ويتعثر .

. وطارت إحدى عجلاته فانحط على احد جوانبه ثم عاد الى تدحرجه كأنه كتلة ضخمة او بيت قد اقتلعته عاصفة هوجاء والقت به من عل ... واستمر في تدحرجه حتى بلغ اخـــيراً نهاية المنحنى فوثب من فوق حافته الصخرية وهوى الى الاعماق فانسحق انسحاق بيضة هشة !

وكان ثمة متشرد فقير رآه في انحداره القاتل فلاحقه بانظاره حتى استقر في اعماق الهاوية . ولم يجرؤ المتشرد على الدنو منه مدفوعاً بخيطة اهل الريف ولكنه خف الى بعض المزارع المجاورة وأعلن عن الحادثة .

وأسرع جمع من الناس . ورفعوا الحطام وجدوا امام الجثتين . كانتا مهشمتين تهشيماً مريعاً وقد جللتهما الدماء . اما الرجل فكانت جمجمته مفلوقة ووجهه محطماً أروع تحطيم . أما المرأة فقد تدلى فكها لصدمة كسرته كما كانت أعضاء الاثنين مهشمة رخوة كأنها خالية من العظام .

وتعرف عليها الناس رغم كل ما لحقها من تشويه وراحوا يتساءلون عما أدى الى هذه الجريمة النكراء . قالت امرأة :ـ من تراه سبب هذه السقطة القاتلة؟ وتكلم المتشرد :ـ لقد احتميا بهذا الكوخ هرباً من العاصفة فما كان من الاعصار الا ان دفع بالكوخ فتردى في الهاوية كما ترون ..

ثم زعم انه هو نفسه كان ينوي الاحتماء بالكوخ الا ان رؤية الجوادين المشدودين الى حاجزه افهمته ان المكان غير شاغر ثم أردف بلهجة راضية :ـ ولولا ذلك لكنت انا الضحية ... واجاب صوت :ـ لو تم ذلك لكانت المصيبة أخف وطأة .. واحتدم المتشرد غيظاً : لماذا ؟ ألأني فقير وهما غنيان ؟ وأشار الى الجثتين المزقتين بطرف عكازه الاعوج :

ـ اننا جميعاً متساوون أمام الموت .

وكان فريق آخر من الفلاحين قد خف الى مكان الفاجعة وراحوا ينظرون بطرف أعينهم بجبن وقلق ثم تشاوروا فيما يفعلون وقرروا حمل الجثتين الى القصر طمعاً بالمكافأة . وشدت عربتان حملتا الجثتين وانطلقتا مسرعتين تهتزان اهتزازاً عنيفاً تضطرب له الجثتان المهشمتان .. ماتبقى من هذين المخلوقين الذين جمعهما حب آثم محرم ثم جاء الموت ففرق بينهما الى الابد فلا يلتقيان ...

أما الزوج المنتقم اروع انتقام وافساه فما ان رأى الكوخ الخشبي يتدحرج منقضاً فوق المنحدر الصخري حتى أطلق للريح ساقيه بكل ما أوتي من قوة لايعبأ بسياط المطر وهبات الاعصار . وبلغ بيته من غروب الشمس لايدري كيف تمكن من بلوغه .

وكان الخدم المذعورون بانتظاره فاخبروه ان الجوادين قد عادا دون فارسيهما وقد تبع جواد جوليان الجواد الآخر .

وبصوت متقطع النبرات اصدر الكونت أوامر مشددة الى الخدم للاسراع والبحث عن الفارسين الضالين فقد يكون حادث ما قد دهمهما في مثل هذا الجو المخيف .

وذرا الرماد في العيون انطلق هو الآخر للبحث عنهما الا انه لم يلبث ان اختبأ تحت اكمة راح يشرف منها على الطريق التي ستصل منها جثة هامدة او في نزعها الاخير او على الاقل مشوهة الوجه الى الابد .. انه يرقب هذا المصير للمرأة التي مايزال يحبها بوحشية !

وسرعان مامرت على مرمى ناظريه عربة تحمل شيئاً غريباً . وتوقفت أمام القصر ، ثم دخلت . انها هي . وسمرته في مكانه غصة مخيفة ، خوف هائل من الوقوف على الحقيقة . وجمد لايحرك ساكناً ، ولبث ملتصقاً بالارض كأنه أرنب رعديد يرتجف لاقل نأمة ..

ولعله أقام على مثل هذه الحال ساعة او ساعتين . ولم تخرج العربة ، فقال في نفسه ان زوجته تلفظ أنفاسها الاخيرة وملأته فكرة رؤيتها من جديد رعباً جعله يخشى اكتشاف مخبئه فيجبر على الدخول ورؤية وجهها المحتضر . وخطر له ان ينطلق في قلب الغابة هارباً .

وفكر على حين غرة انها قد تكون بحاجة الى مساعدة ما وليس لها من يقوم لها بذلك فعاد راكضاً يكاد يفقد صوابه .

وصادف وهو داخل البستاني فهتف به :- ماذا ؟ فلم يجرؤ الرجل على الجواب.

وزجر السيد دي فورفيل :- أماتت ؟

وغمغم الرجل واجفاً : - أجل ياسيدي !

واحس راحة قصوى ، وعبر عروقه وعضلاته هدوء مفاجئ وتسلق بخطى ثابتة درجات السلم العريض . وبلغت العربة الثانية قصر (بوبل) ولحتها جان عن بعد ورأت الفراش وادركت انجثة زوجها ترقد فوقه . وفهمت كل شيء . وكان تأثرها بالغاً درجة جعلتها تنحط فاقدة وعيها .

وعادت الى صوابها بعد فترة لاتدري أطالت أم قصرت والفت اباها يمسك برأسها بين راحتيه ماسحاً بالخل جبينها وصدغيها . وتردد في سؤاله :- أعلمت ؟ فغمغمت :- أجل يا ابتاه .

ولم تقو على النهوض . لشد ما كانت منهوكة متألمة .

وفي المساء ذاته اجهضت ... طفلاً ميتاً ... بنية كما كانت تود . لم تشهد دفن جوليان ولم تدر عن ذلك شيئاً . ولحظت بعد يوم أو يومين ان الخالة ليزون في القصر . وتذكرت ان الخالة العانس قد حضرت يوم وفاة البارونة ثم اختفت وهاهي الآن تظهر من جديد .

الفَصلُ الرابعُ

أقامت جان معتكفة في غرفتها ثلاثة أشهر . ولقد اصبحت من الضعف والشحوب بحيث تنكرها العين . غير انها مالبثت ان استعادت حيويتها شيئاً فشيئاً وكان والدها والخالة ليزون قد لزماها في القصر لايبرحان .

واورثتها الصدمة مرضاً عصبياً . ولم تسأل ابداً عن الملابسات التي رافقت وقوع الفاجعة . ولماذا تسأل ؟ ان كل الناس يرون في الحادث قضاءً وقدراً . اما هي فتعرف الحقيقة القاصمة . وهي تحتفظ في أعماق صدرها بهذا السر الهائل الذي مازال يعذبها مرير العذاب : لقد نقشت في أعماق نفسها تلك الساعات بحروف من نار : زيارة الكونت . خروجه . العربة المتراقصة بالجثة المهشمة !

يالغرابة ! ان ذكريات لطيفة تعاودها ... ذكريات سويعات حلوة ، على قصرها ، قضتها بين ذراعي جوليان .. وأوشكت ان تغفر له كل ما ارتكب من اثام وكل ماسبب لها من عذاب مضن وألم مبرح . وحتى خيانته ، ضعته ، انحطاط خلقه ، كادت تمحوها له من صفحة ذكراه .

ولم تدم طويلاً في اجترار هذه الذكريات الاليمة بل سرعان ما انصرفت بجماع عواطفها الطعينة الى ولدها فمحضته حباً يوشك ان يكون عبادة وحذا كل من في البيت حذوها ، فالاب والخالة ليزون وجان غدوا لبول الصغير عبيداً اقناناً يملك منهم الرقاب ويتصرف بهم حسب أهوائه . وجاء وقت شعرت فيه جان ، لشدة تعلقها بوليدها ، غيرة من جده والخالة ليزون . أما هذه الاخيرة فلم يكن الطفل يأبه بها شأن كل الناس وربما لم تختلف تصرفاته معها عن تصرفاته مع بقية الخدم . فكانت تختلي في غرفتها لتنخرط في بكاء يائس لايكترث به أحد .

سنتان تصرمتا على هذا المنوال لم يعكرهما معكر . وقرروا في مطلع الشتاء الثالث ان يقصدوا روان ليقيموا بها حتى مطلع الربيع . وانتقلت العائلة جميعها الى هذه المدينة بعد أسابيع قلائل .

غير ان اقامتهم في بيتهم الرطب المهجور كانت سيئة الاثر على صحة الطفل فاصيب بنزلة صدرية اشتدت عليه وطأتها حتى حسبوه اصيب بذات الجنب فأدركوا ان لاغنى لهم عن هواء القصر المنعش فقفلوا اليه راجعين ادراجهم فور ابلال بول من مرضه .

وبدأت سلسلة من السنوات الهادئة الحلوة .

كانو يمضون معظم أوقاتهم مع الصغير المعبود ، في غرفته تارة وفي الردهة الكبيرة طوراً وفي الحديقة مرة ثالثة مروحين عن انفسهم بالاصغاء الى الفوة المحبب ومشاهدة حركاته الغريبة .

وكانت امه تدعوه (بوليه (١)) تحبباً ولما لم يكن يستطيع اخراج الاحرف واضحة فكان يدعو نفسه (بوليه (٢)) الامر الذي كان يثير فيهم عاصفة من الضحك لاتنتهي .

ولزمته هذه التسمية دهراً طويلاً .

ولما كان نمو قامته مضطرداً فقد غدا همهم قياس قوامه . وكان البارون يطلق عليهم هم الثلاثة : « امهاته الثلاثة »

وجاء شخص جديد يلعب دوره في العائلة : انه الكلب ماساكر وكانت جان قد اهملته في انصرافها الكلي الى بول . وغدا هذا الكلب صديق بول لايفارقه في ليل أو نهار وكثيراً مايرقد معه في فراش واحد . وشكت جان شدة تعلق ولدها برفيقه وقد خشيت انتقال الحشرات من الحيوان اليه . اما الخالة ليزون فقد اساءها ان يحرمها ماساكر من نصيبها الضئيل من اهتمام بول .

(١) تصغير لكلمة Paulc يقصد منه التدليل (Paulet)

(٢) Poulet وتعني دجاجة صغيرة

وندرت الزيارات بينهم وبين جيرانهم . اما المختار والطبيب فلم ينفكا يعكران صفو القصر القديم بزياراتهما الرتيبة . وقد انقطعت جان عن ارتياد الكنيسة منذ مصرع الكلبة تحت ركلات قدمي الكاهن السفاح . ثم جاءت تلك الاشاعات التي لم يتورع الاب توليباك عن اثارتها عن الكارثة التي أودت بحياة العاشقين . ولشد ما أحنق جان من الله اتخاذه مثل هذا الرجل المشؤوم ممثلا له على الارض !

وكثيراً ما كان الاب توليباك يلمح الى ان القصر قد غدا مسرحاً لارواح شريرة ترود فيه ليل نهار .

وكانت كنيسته قد خوت من المصلين فقد نفرت الجميع أعماله المتناهية فظاظة وقسوة . وكان اذا ماسار في الحقول حيث يحرث الفلاحون لووا عنه اعناقهم فلا يحييه احد ولا يأبه له أحد . ولربما نظروا اليه نظرتهم الى ساحر تطيعه الارواح الشريرة وتأتمر بامره قوى ابليس . الم يطرد الشياطين من قلب امرأة غاوية ؟

ولقد انصرف عقله المتعصب المتزمت فعلاً الى مطالعة كتب تبحث في السحر واستحضار الأرواح ومناجاة الشياطين .

وطافت بالناس فكرة الخوف منه وتجنب رؤيته لمـــا يكن فيه من قوى سحرية شريرة ولم يقتصر ذلك على العوام من الناس بل تعداه الى زملائه من كهنة الريف الذين باتوا يخشون فيه هذه الظاهرة الغريبة واذا كانوا يتظاهرون أمامه بشيء من الاحترام فما ذلك الا لتمكن هذه الفكرة من نفوسهم .

وكان اذا ما التقى بجان ازور عنها فلا يحييها . ولقد اشاع هذا الوضع الشاذ نحو الكاهن القلق في نفس الخالة ليزون التي لم تستطع ان تفهم ،بعقلية العانس الجامدة كيف لايذهب المرء الى الكنيسة كل احد او عيد .

وكانت اذا ماخلت الى بول عمدت الى تلقينه شيئاً عن الدين فكان لايصغي اليها باهتمام الا عندما تروي له قصصاً عجائبية عن الجنة والنار والقديسين المغامرين .

وبلغ الطفل عامه العاشر . وحبت امه الى الاربعين . كان قوياً ،شديد الجلبة كثير الصخب ، شجاعاً يتسلق الاشجار غير هياب . الا ان عقله ظل فارغاً .

فالدروس تبعث فيه مللاً فلا يلبث ان ينصرف عنها . واذا ما احتجزه جده فترة امام كتاب تدخلت جان قائلة : – دعه يلعب الآن . ليس لنا ان نرهقه . انه مايزال حدثاً .

انه ، بنظرها ، لم يتجاوز شهره السادس أو عامه الاول على أبعد تقدير !

وبرزت صعوبة كبرى اذ بلغ عامه الثاني عشر : قضية (مناولته الاولى)(١) وقد جاءت الخالة ليزون جان يوماً وافهمتها انه ليس من اصالة الرأي في شيء ترك الغلام دون أية معارف دينية . واوشكت جان تقتنع بما قدمت لها خالتها من أدلة الا انها ارجأت البت في الامر الى مابعد .

وعاد بوليه ذات مساء وقد اصابه سعال من جراء وقوفه في مجرى الهواء اذ عاقبه الكاهن أثناء الدرس الديني ومنذ هذا اليوم رفضت جان ارساله الى هذه الدروس وشرعت تلقنه بنفسها مبادىء الدين فكان رد الاب توليباك على هـــذا التدبير ان رفض قبوله في عداد المتناولين ، رغم رجاء ليزون ، محتجاً ان تعليمه الديني غير كاف .

ولم تكن النتيجة في السنة التالية افضل منها هذه السنة وثار البارون اثر ذلك وقرر ان حفيده ليس بحاجة الى معرفة هذه الحماقات ، هذا الرمز الصبياني الذي يزعمون في استحالة الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه !..

فليست مثل هذه الاشياء ، بنظره ، ضرورية كيما يصبح الطفل رجلاً فاضلاً وعزم على تنشأته مسيحياً ولكن ليس كاثوليكياً متعبداً وسيترك له الحرية ، بعد بلوغه الرشد ، لاختيار المذهب الذي يحلو له .

وقامت جان بزيارة لآل بريسفيل الا انهم لم يردوا لها الزيارة الامر الذي أدهشها غير ان المركيزة دي كوتيليه أعربت لها بكثير من الترفع عن السبب الذي حجبهم عنها .

---

(١) ترجمة Première Communion وتعني تقديم الطفل الى الكنيسة ليتلقى أسرار الدين لاول مرة . – المترجم –

كانت هذه السيدة شديدة الاعتداد باسم زوجها ومركزه المالي ، تنظر الى نفسها كما لو كانت ملكة النبلاء النورمنديين وكانت جان تزورها ذات يوم فوجهت اليها الكلام بلهجة جافة متعالية قائلة :

- إن المجتمع يقسم إلى قسمين . قسم يؤمن بالله وآخر يشرك به . ان القسم الاول هم أصدقاؤنا المساوون لنا أما الآخرون فليسو منا ولسنا منهم .

فاجابت جان وقد أدركت مرمى كلامها :- ولكن اليس بمقدور المرء ان يؤمن بالله دون ان يرتاد الكنائس ؟

- كلا ياسيدتي . ان المؤمنين يقصدون بيت الله للصلاة كما يفعل المرء اذا كان بحاجة الى انسان فيأتيه في بيته .

وجرحت قولتها جان فاردفت تقول :- ان الله موجود في كل مكان ياسيدتي . فانا مثلاً اؤمن بالله ايمانا عميقا واشد مايبدو لي بعيداً عندما يكون بعض الكهنة واسطة بيني وبينه !

ونهضت المركيزة قائلة :- ان الكهنة يحملون لواء الكنيسة ياسيدتي وكل من لايسير تحت اللواء فهو حرب عليه وعلينا !

ونهضت جان بدورها راعشة الاوصال غضباً :

- انك ياسيدتي تؤمنين بإله متحيزا لحزب دون آخر .

أما أنا فأومن بإله لجميع الناس على حد سواء .

وحيت وخرجت .

وجعل البارون شغله الشاغل تعليم بول فبدأ يدرسه اللاتينية وكانت جان لاتنفك توصي اباها :- المهم الا ترهقه . وهي لاتفتأ تطوف بالغرفة التي يجلس فيها تسأله تارة اثر اخرى :

- ألا تشعر ببرد في قدميك ؟ - او - الم يصبك صداع يابوليه ؟ او توقف الدرس لتقول : - لاتدعه يتكلم بهذا المقدار فستتعب حنجرته .

وما ان يفرغ من الدرس حتى يهبط الى الحديقة مع امه وخالته فيمضي وقته

في غرس النباتات وحفر الاحواض فان له ميلاً خاصاً الى مثل هذه الاعمال وحباً شديداً لجني الازهار وتنظيم الاضاميم .

وكبر بوليه وبلغ الخامسة عشرة غير انه ظل طفلاً بتفكيره جاهلاً ،مائعاً، محصور العقل بين هاتين المرأتين وهذا الرجل وليسو جميعاً من اولاد العصر .

وتحدث البارون ذات مساء عن ارساله الى الكلية وفاضت الدموع لهذه الفكرة من عيني جان كما هلعت الخالة ليزون فانتبذت مكانا قصياً تشرق بدموعها.

وقالت جان :ـ ماحاجته الى كل هذه المعارف . سنجعل منه رجلا ريفيا ، نبيلا مزارعا . سيهتم بارضه كما يفعل العديد من نبلاء الريف . سيعيش ويهرم سعيداً في هذا البيت حيث عشنا قبله وحيث سنموت . وهل نطمع له في خير من ذلك ؟

وهز البارون رأسه منكراً : ـ بم ستجيبينه اذا مابلغ الخامسة والعشرين وجاءك يقول : انا لست شيئا مذكوراً لأني لا اعرف شيئا ! انها خطيئتك اخطيئة امومتك الانانية ! انا لست خليقا باي عمل كيما أصبح شيئا مذكوراً ! ومع ذلك لم اخلق لمثل هذه الحياة التافهة المظلمة ، الكئيبة حتى الموت التي أوصلني اليها حنانك القصير النظر .

واستمرت تبكي شاكية أمرها ـ قل يابوليه . انك لن تلومني لأني محضتك كل هذا الحب ! اليس كذلك ؟ ووعدها الطفل الكبير مشدوها ـ كلا بالتأكيد يا أميمتي !

ـ أتقسم ؟ ـ أجل يا اماه !

ـ اتريد ان تبقى بالقرب من امك المسكينة ، أليس كذلك ؟

ـ اجل يا اماه !

وعندئذ تكلم البارون بصوت عال ولهجة صارمة .

ـ جان . ليس من حقك ان تتصرف بحياته مثل هذا التصرف الاخرق . ان ما تقدمين عليه الآن جبن واجرام . انك تضحين بولدك على مذبح سعادتك الشخصية !

واخفت براحتيها وجهها مطلقة زفرات حرى .

وعادت تقول: - لشد ما كنت تعيسة !.. والآن وقد عرفت السعادة بولدي.. يأخذونه مني، ماذا سيحل بي.. وانا وحيدة.. مفردة ؟!

ومشى اليها ابوها واخذها بين ذراعيه: - وانا ياجان؟ وتناولته فجأة من عنقه وقبلته بعنف: وعادت تقول والزفرات تقطع كلامها: - لك الحق.. ربما.. يا ابتاه.. اني مجنونة.. لشد ما قاسيت فليذهب الى الكلية..

وشرع بوليه يبكي دون ان يعرف ما يراد به تماماً.

وعانقته (امهاته الثلاث) وهدهدنه وشجعنه وعندما أووا الى غرفهم كانت قلوبهم معتصرة ونفوسهم منقبضة وحتى البارون لم يكن أسعد حظاً من المرأتين.

وحزموا امرهم على ادخال بول كلية الهافر في مطلع العام الدراسي وبدأوا يدللونه مدة الصيف اكثر من المعتاد وكثيراً ما استسلمت جان الى البكاء اذ تفكر بهذا الفراق المرتقب. وراحت تعد له احتياجاته كما لو كان راحلاً ليتغيب السنين الطوال.

وأخيراً، بعد ليلة مؤرقة، من اوائل تشرين الاول، أقلتهم عربة انطلقت صوب الهافر.

وبعد جولة في ارجاء المدينة اتجهوا نحو الكلية، كان اطفال من كل الاسنان وكافة الجهات يسير بهم آباؤهم او بعض الخدم وكان اكثرهم يذرفون الدموع فتتجاوب اصوات نشيجهم في الباحة الواسعة الضئيلة النور.

وعانقت جان بوليه طويلا، وجمدت الخالة ليزون وراءهما وقد أخفت كل وجهها في منديلها وما كان من البارون، وقد اهتاجت عواطفه هو الآخر، الا ان عمد الى اختصار ساعة الوداع فجر ابنته وخرج بها الى العربة التي عادت بهم الى القصر وقد هبط الليل، وكان الركب لايفتأ يصعد الزفرات في الظلام المخيم في العربة.

وأمضت جان يومها في بكاء لاينقطع، ولم تطق صبراً فاتجهت في اليوم الثالث نحو الهافر ووجدت بوليه قد اعتاد حياته الجديدة بعيداً عن امه، وللمرة الاولى في حياته اتخذ لنفسه اصدقاء، كانت شدة رغبته في اللهو تتركه مرتجفاً وهو بين اهله في قاعة الانتظار.

ودأبت جان على الحضور الى المدينة كل يومين كما كانت لا تخلف ميعادها أيام الاحاد لتخرج ببول من اسر الكلية ، وكانت تقيم بانتظاره وهو في قاعة الدرس فلا تدري ما تعمل فتمكث في غرفة الانتظار لا تجرؤ على الابتعاد عن الكلية ، ورجاها الناظر كي تقلل من زياراتها ، غير انها لم تأبه لهذا الرجاء . وأنذرها اخيراً بانه ؛ ان استمرت في الهاء ولدها عن دروسه وألعابه ، فسيجد نفسه مضطراً الى اعادته اليها كما وجه الى البارون رسالة بهذا المعنى ، فاضطر هذا الاخير الى حجزهـــا في القصر كأنها سجينة .

كانت ترقب ايام العطل بشوق أقوى من شوق ابنها اليها وأشد ، واستبد بها قلق لاهوادة فيه ، وكثيراً ما كانت تخرج مطوقة بالمقاطعة يرافقها الكلب ماسا كر فتهيم تحلم في فراغ ... واحياناً كثيرة كانت تمضي كل بعد الظهر فوق صخور الشاطىء عالقة الانظار في اليم ببله .. او تقصد إيور في نزهات كفعلها في ماضيات ايامها .. فكانت ذكرياتها القديمة لا تنفك تلاحقها بضراوة . ما أبعده من عهد !.. أيام كانت تطوف بهذه الاماكن اذ كانت فتاة عذراء غضة الاهاب ريانة الصبا مفعمة الخيال باحلام مذهبة الحواشي فتانة الرؤى رائعة الخطرات !.. كانت في كل مرة تشاهد ابنها يخيل للناظر ان فراقها عمر عشر سنين . اما هو فكان يزداد رجولة شهراً بعد شهر بينما كانت هي تمشي الى الكهولة بخطى حثيثة . وبدا ابوها الى قربها كأنه أخ لها كما بدت الخالة ليزون اختاً لها هي الاخرى .

ولم يسجل بوليه أي تقدم في دراسته . واعاد الصف الرابع . اما الثالث فاجتازه بين بين . وبلغ الصف الثاني فكان عليه ان يعيده ايضاً . وكان في العشرين من عمره عند ما بلغ صف البكالوريا .

وغدا شاباً طويل القوام أشقر البشرة وقد طر شارباه واخضل عذاراه وهو الان يأتي الى القصر كل احد على جواد يستأجره فيقطع به المسافة في ساعتين .

كانت جان والخالة ليزون تذهبان منذ الصباح الباكر الى لقائه .. وربمـــا رافقها البارون محني الظهر قليلاً يسير كأنه شيخ هم وقد صالب ذراعيه وراء ظهره

كأنه يعتمدها في سيره فلا تتعثر قدماه وبالرغم من ان بول قد بلغ سن الرجـــال ما انفكت امه تنظر اليه كأنه مازال طفلاً يحبو ، وكثيراً ما كانت تقول له :

– الا تحس برداً في قدميك ؟ .

وكانت اذا ما رأته يتنزه امام القصر مدخناً سيكارته تفتح نافذتها وتهيب به :

– لا تخرج عاري الرأس يا صغيري بوليه فقد يصيبك رشح دماغي .

واذا مارأته يركب جواده ليسافر ليلاً كانت تهتز فرقاً وتقول : – لا تسرع يا حبيبي . فكر بامك المسكينة فاذا حدث لك مكدر مت يا ولدي .

وتلقت صباح يوم السبت رسالة من بول يعلن فيها انه لن يأتي يوم الاحد لثمة احتفال يقيمه بعض الرفاق وقد دعي اليه

وقضت يوم الاحد على اسوأ حال . ولم تقو على الصبر فقصدت يوم الخميس مدينة الهافر .

ورأت تغيراً قد اعترى ولدها دون ان تعنى بمعرفة السبب . بدا لهـا اكثر حيوية وقد غدا صوته اشد رجولة من السابق قال لها بلهجة جد عادية : – بما انك جئت اليوم يا اماه فلن اذهب الاحد القادم الى القصر لأنه سيكون لدينا حفلة اخرى .

وخنقتها الغصص فلم تحر جوباً . واستطاعت ان تتكلم اخيراً : – آه ! ما ذا بك يا بوليه ؟ قل لي . ماذا يحدث لك ؟ .

وانطلق يضحك قائلاً : – ولكن .. ليس ثمة شيء يا اماه .. كل ما في الامر اني اود الترويح عن النفس مع اترابي . اننا في سن اللهو كما ترين . .

ولم تجد ما تقول . وما ان انفردت بنفسهـا في المركبة حتى دهمتهـا فكر سوداوية . لشد ما تغير ابنها حتى انها تكاد لا تعرفه لقد لاحظت انه كبر كثيراً انه لم يعد لها وحدها . انه لن يهتم بعد اليوم باشخاص هرمين مثل اهله . لقد خيل اليها انه قد تغير في يوم واحد تغيراً كبيراً . ماذا ؟ هذا هو طفلها ؟ طفلها الصغير الضعيف الذي كان يلعب في الحديقة في الايام الخوالي ؟ .. اهذا هو ؟ هذا الشاب الملتحي ذو الارادة الصارمة ؟

ومرت أشهر ثلاثة لم يات خلالها بول لزيارة اهله الا لماماً . واذا ما جاء فكان يسرع بالعودة متعجلاً كي يكسب ساعة يقضيها في المدينة . وادرك جان نخوف مقيم . وكان البارون لا ينفك يهون عليها قائلاً : ـ دعيه يفعل .. انه في العشرين ! هذا الغلام !

وجاء القصر ذات صباح رجل خلق الثياب يسأل بفرنسية المانية اللكنة عن السيدة الفيكونتس وبعد دفق من التحيات الرسمية اخرج ورقة من محفظة قذرة ممزقة : ـ لدي ورقة صغيرة لك .

وقدم لها ورقة قذرة قرأتها واعادت قراءتها ثم نظرت الى اليهودي وسألته :

ـ وماذا تعني هذه ؟

واوضح الرجل القذر : ـ كان بابنك حاجة الى قليل من المال . ولما كنت اعرفك اما طيبة لم اتردد في اقراضه حاجته منه .

وارتجفت وقالت : ـ ولكن لم لم يطلب ذلك الي انا ؟

وعاد اليهودي يقدم ايضاحاته قائلاً ان الامر يتعلق بدين للمقامرة ينبغي ان يسدد قبل ظهر اليوم الثاني ولما لم يكن بول قد بلغ سن الرشد لم يجد من يقرضه المبلغ وانه لولا هذه الخدمة التي اداها له لكان شرفه يتعرض لما لا يسر .

ودعت جان اباها فما ان دخل حتى إدرك واقع الحال فوراً . وكان السند بالف وخمسماية فرنك . فدفع للرجل الفاً من اصلها وقال له . شرط الا تعود بعد هذا ابـــداً .

فحيى اليهودي وشكر وانصرف .

وسرعان ما سافر الجد والام الى الهافر . وبلغا الكلية فعلما ان بول قـــد غادرها منذ شهر ولم يعد اليها بعد ذلك وان الادارة قد تلقت اربع رسائل من جان تعلن فيها ان ابنها مريض . كانت الرسائل الاربع مزورة طبعاً وغم ان كل واحدة كانت تنطوي على شهادة طبية .

وجما . ومكثا وقد شخصت اعينهما .

وقادهما المدير الى مفتش الشرطة . وقضيا ليلتهما تلك في الفندق .

وفي اليوم التالي عثروا على الشاب مقيماً لدى فتاة من بنات الهوى في المدينة وصحبه جده وامه الى القصر دون ان ينبث احدهم بكلمة اثناء الطريق . وكانت جان تبكي ووجهها في منديلها . اما بول فكانت عيناه تجولان في الريف بعدم اكتراث .

وعرفوا بعد ثمانية ايام انه قد استدان خلال الاشهر الثلاثة الاخيرة خمسة عشر الفاً من الفرنكات ولم يكن المرابون قد تقدموا بطلب سداد ديونهم منتظرين بلوغه سن الرشد .

ولم يقدم عن ذلك اي ايضاح . وقد شاؤوا اصلاحه باللين . فكانت اطيب الاطعمة تقدم اليه والكل يحيطه بالتدليل والمدهدة واستأجروا له زورقاً في ايبور رغم تخوف جان ليقوم بنزهات في البحر ذلك الربيع .

وكانوا قد عمدوا الى اخفاء الجياد عنه خشية ذهابه الى الهافر .

واقام لا يعمل شيئاً . ضجراً . برماً سيء الخلق متوحشاً احياناً . وقد اقلق البارون انقطاعه عن دراسته وكان اخشى ما تخشاه جان فراق جديد ! ومع ذلك فقد شغلت تفكيرها بامر مستقبله .

وخرج ذات مساء ولم يعد . وعلموا انه ذهب في نزهة بحرية مع احد النوتية . وكادت امه تجن وخفت عارية الرأس الى ايبور وكان الليل قد ارخى سدوله .

واقامت مع بعض الرجال على الشاطئ بانتظار اوبة الزورق .

وظهر في عرض البحر نور ضئيل راح يدنو متأرجحاً . الا ان بول لم يكن في الزورق العائد . لقد ذهب الى الهافر وبقي فيها .

وبحثت عنه الشرطة طويلاً دون طائل . وكذلك كانت الفتاة التي اخفته في المرة الاولى قد اختفت معه دون ان تترك اثراً يدل عليها . وفي غرفة بول في القصر عثروا على رسالتين من هذه المخلوقة التي بدت مجنونة في حبه . كانت رسالتاهـــا

تتحدثان عن فكرة السفر الى انكلترا وقد تدبرت قضية المصاريف الضرورية كما زعمت .

واقام سكان القصر الثلاثة غارقين في بحران من عذاب معنوي اليم . لقد ابيض شعر جان الذي كان اغبر حتى ذلك الوقت . وكانت تتساءل بسذاجة لماذا يوجه اليها القدر مثل هذه النوازل الفاقرة .

وتلقت من الاب توليباك رسالة تقول : -

« سيدتي . ان يد الله قد حطت فوق كاهلك . لقد منعت ولدك عنه فأخذه منك بدوره ليلقي به الى امرأة بها روح نجس . هلا فتحت عينيك على هذا الانذار توجيهه اليك السماء ؟ ان لطف الله واحسانه غير متناهيين . فقد يغفر لك اذا جثوت امامه . وانا خادمه الحقير افتح لك بيته عند ما تاتين ضارعة تقرعين . »

واقامت طويلاً وهذه الرسالة فوق ركبتيها . لعل ما قاله هذا الكاهن هو الحق الصراح . وشرعت كل شكوكها الماضية تمزق ضميرها شر ممزق . ولكن ايكون الله منتقماً غيوراً كالبشر . اذا لم يكن غيوراً فمن يخشاه ومن يعبده ؟ ولا ريب في انه يظهر للناس ، كيما يدركوه جيداً ، من خلال افكارهم وعواطفهم وداخلها الشك الجبان الذي يدفع بالمؤمن الى الكنيسة ويقض مضجعه ، فانطلقت ذات ليلة حتى بلغت المذبح فسقطت فوق ركبتيها امام الكاهن الهزيل وانطلقت ترجو منه العفو والغفران .

غير انه لم يمنحها الغفران الكامل فالله لا يستطيع ان يغمر بنعمته بيتاً يظل سقفه رجلاً كالبارون .

وقال لها مؤكداً : - ستستقرين قريباً بالسلام الذي سيفيض على حياتك بنعمة الله .

وتلقت بعد يومين رسالة من ولدها اعتبرتها بداية السلام الذي وعدها الكاهن به .

« امي العزيزة . لا تقلقي علي فانا في لندن . صحتي جيدة الا ان بي حاجة ملحة

الى المال . لسنا نملك درهماً واحداً ولا نجد ما نأكله طوال يومنا . نبيت ليالينـــا على الطوى . ان المرأة التي ترافقني والتي احبها بجماع نفسي قد انفقت كل ما تملك فى سبيل الاحتفاظ بي : خمسة الآف فرنك . وانت تعرفين اني قد تعهدت لهـا بشرفي ان اعيد اليها هذا المبلغ قبل كل شيء . انك تسدين الي يداً مشكورة لو ارسلتي الي حوالي خمسة عشر الفاً من الفرنكات كسلفة على ميراث ابى اذ اني سأصبح عمـــا قريب راشداً . وانك بعملك هذا تجنبينني مصاعب جمة وتخرجينني من مآزق لاتحصى

وداعاً يا امي العزيزة . اقبلك بحرارة مع جدي العزيز والخالة ليزون . آمل ان اراك قريباً .

ولدك : الفيكونت بول لا مار . »

لقد كتب اليها اذاً . انه لم ينسها . ولم تفكر ابداً انه انما كتب ليطلب مالاً اجل سيترسل اليه لأنه لا يملك شيئاً . ما هي قيمة المال ؟ ! لقد كتب اليهـا وهـذا حسبهـــا !

وحملت هذه الرسالة وخفت الى البارون باكية . ودعيت الخـالة ليزون . واعادوا قراءتها كلمة كلمة .. هذه الورقة التي تتحدث عنه . وناقشوا كل عبـارة من عباراتها .

وانتقلت جان من اليأس المطبق الى الأمل الباسم . وراحت تدافع عن بول :- سيعود . لا بد ان يعود . فقد كتب .

وقال البارون بهدؤ اكثر : ـ لا قيمة لهذا . لقد هجرنا من اجل هذه المخلوقة . انه يحبها اذاً اكثر مما يحبنا فهو لم يتردد في تفضيلها علينا .

وعبر روح جان الم مفاجيء هائل . وسرعان ما اشتعلت في نفسها كراهيـة لهذه الخليلة التي سرقت منها ابنها ، كراهية عنيفة ، وحشية ، كراهيـه ام غيور ! فحتى تلك اللحظة كانت كل افـكارها منصرفة لبول . وقلما فكرت في الداعي الى هجر الى انه الغريب ذاك . ولكن قولة البـارون ولدت فيها هـــذا الحقد السام وادركت ان صراعاً قد نشب بينها وبين هذه المرأة . وادركت ايضاً انها تفضل

فقدان ابنها على مقاسمة هذه المرأة لها في قلبه .

وانهار كل سرورها .

وارسلوا المال المطلوب . ومضت خمسة اشهر لم يصلهم فيها نبأ عنه .

ثم حضر رجل رسمي . لتصفية ميراث جوليان .

وبعد ان تمت التصفية وكان بول قد عاد الى باريس ، استلم نصيبه البالغ عشرين الفاً من الفرنكات . وكتب بعد ذلك اربع رسائل خلال ستة اشهر معلناً انه يعمل في البورصة وانه يأمل ان يحضر يوماً لعناق اهله في القصر . ولم يذكر كلمة واحدة عن خليلته . وكان هذا الصمت ابلغ من تحدثه عنها ملء اربع صفحات .

وشعرت جان ، من خلال برود اقواله ، بقوة تلك المرأة وسلطانها عليه ..

وتناقش الثلاثة فيما يستطيعون عمله من اجل انقاذ بول غير انهم باءوا بالفشل ايسافرون الى باريس ؟ ولماذا ؟ وقال البارون : ينبغي ان نتركه يشبع . سفهه . ولا بد من عودته الينا وحيداً .

وغدت حياته مفجعة . وكانت جان وليزون تذهبان الى الكنيسة خفية عن البارون .

ومضت مدة طويلة لا يتلقون من بول اي نبأ . وذات صباح بلغتهم هذه الرسالة البائسة فكادت تسحقهم : « امي المسكينة : اني رجل مضيع ! لم يعد امامي الا الهاب دماغي برصاصة ان لم تخفي الي نجدتي . ان المحاولة التي كان مفروضاً ان تجلب الي الحظ والثروة قد آبت الي بخفي حنين وانا الآن مدين باربعة وعشرين الف فرنك . فان لم اقض هذا الدين فمعنى ذلك الدمار وضياع الشرف واحباط كل مشروع في المستقبل .

اني رجل مضيع ! اكرر لك . واني مستعد للانتحار فاتخلص من هذا العيش المهين الذي سأحياه . ولعلي كنت اقدم على ما اقول لولا تشجيع امرأة قلما اتكلم عنها وهي لي بمثابة « العناية »

اقبلك من اعماق قلبي يا امي العزيزة وقد تكون هذه هي قبلتي الاخيرة .
وداعـــاً . .   « بول »

وكان طي هذه الرسالة اوراق رسمية تفسر الكارثة المالية التي مني بها بول .

واعلن البارون دون مواربة ان لا بد لهم من مجابهة الموقف ، وقصد الهافر فرهن بعض الارض ليحصل على المال الكافي فيرسله الى بول .

وقرؤوا بعد ذلك ثلاث رسائل شكر من الشاب الطائش معلناً فيها عزمه الاكيد على الحضور لمعانقة اهله الابرار . ولكنه لم يأت .

ومرت سنة كاملة .

وعزمت جان والبارون على السفر الى باريس لمقابلته والقيام بمحـــاولة اخيرة لردعه عن غيه الا انهما علما انه عاد ثانية الى لندن وقد اسس شركة تجارية تحت اسم « بول دي لامار وشركاه » وكتب :

« لقد ضمنت الثروة لنفسي هذه المرة . وانا لا اخشى شيئاً ، وعند مـا سآتي اليكم سيكون لي المركز الاجتماعي المرموق . ليس سوى العمل يخرج الانسان من متاعبه في هذه الايام . »

ومضت ثلاثة اشهر فاذا بالشركة تعلن افلاسها وبالسلطات تطارد مديرهــــا لتلاعبه في القيود التجارية .

وادركت جان نوبة عصبية حادة دامت ساعات طويلة طرحتها في الفراش اخيراً .

وقصد البارون الهافر واستقصى الاخبار . قابل محامين ورجال اعمال وغيرهم ممن يعنيهم الامر . وقد علم ان الافلاس كان على مبلغ مائتين وثـلاثين الفاً من الفرنكات ، ورهن القصر ومزرعتين على مبلغ طائل .

وذات مساء بينما كان ينهي المعاملة في مكتب رجل من رجال الاعمـال سقط وتدحرج فوق الارض وقد دهمته السكتة القلبية .

وانفذوا فارساً يعلم جان ولما وصلت كان البارون قد لفظ آخر انفاسه .

ونقلت الجثة الى القصر . وكأن جان ، لفداحة الخطب ، قد تحجرت فيهـــا

عواطفها فلم تظهر يأساً بقدر ما بدت في استغراق مؤلم .

ورفض توليباك ادخال الجثمان الى الكنيسة بالرغم من رجاء المرأتين الحار واسترحامهما الباكي . ودفن البارون لدى هبوط الليل دون اي احتفال .

وعلم بول بالفاجعة من قبل احد الرجال المهتمين بتصفية طابق افلاسه . وكان ما يزال متخفياً في انكلترا . وكتب يعتذر عن عدم مجيئه بتأخر معرفته بالنازلة . ووعد امه بالعودة الى فرنسا والحضور لرؤيتها بعد ان انقذته من ورطته .

وعاشت جان في عدم ادراك فظيع بدت معه كأنها غائبة عن هذا العالم .

وحوالي اواخر الشتاء اصيبت الخالة ليزون بزيحه صدرية حادة وكانت قد بلغت الثامنة والستين .

وانقلبت الذبحة الى التهاب رئوي . ولفظت انفاسها وهي تردد : ـ سأطلب الى الله ، يا جان المسكينة ، ان يشفق عليك »

تبعتها جان الى القبر . ورأت التراب ينهال على نعشها ، وكم تمنت لو ادركها الموت هي الاخرى فلا تعود تحس ولا تتألم . وانهارت فوق القبر لا تستطيع حراكاً ودنت منها فلاحة قوية وتناولتها من ذراعيها ثم حملتها كما تحمل طفلاً صغيراً .

ولدى نقلها الى القصر تركت هذه الفلاحه المجهولة تضعها في سريرهـا وكانت الليالي الخمس التي قضتها تحت قدمي العانس الفقيدة قد انهكتها ايما انهاك . وقامت الفلاحة على خدمتها بالكثير من الرقة والتسلط .

واستفاقت جان وقد مضى من الليل هزيعه الاول . فرأت على نور المصباح الليلي الضئيل المثبت فوق المدفأة امرأة تغط فوق مقعد . من هي هذه المرأة ؟ انهـا لا تعرفها وراحت تبحث في اعماق ذاكرتها وقد انحنت فوق فراشهـا . وتفرست فيها جيداً على نور الفتيل المضطرب فوق الزيت في اناء زجاجي .

وخيل اليها مع ذلك انها رأت هذا الوجه قبل الآن . ولكن اين ؟ وكيف؟ كانت المرأة تغط بدعة . ان لها من العمر اربعين او خمساً واربعين . وهي قويـة البنية موردة الخدين .

واستمرت جان تنظر اليها تلك النظرة الضائعة التي تعقب الاستفاقة من النوم المحموم الذي يلي الآلام المبرحة والتعاسة القصوى .

لاريب في انها قد رأت هذا الوجه . لعل ذلك في الماضي ؟ أم تراهـــا رأته حديثاً ؟ ونهضت ودنت من النائمة لتتحقق منها عن كثب . انها المرأة التي حملتها من المقبرة ورقدت هنا . ولماذا هي في غرفتها الآن ؟

وفتحت المرأة عينيها ونظرت الى جان وهبت فجأة . وتمتمت المرأةالمجهولة : « كيف ! ها أنت واقفة ! سيصيبك سوء في هذه الساعة ! اتريدين ان تعودي الى سريرك ! »

وسألت جان :ـ من أنت ؟

غير ان المرأة فتحت ذراعيها واحتوتها بها واعادتها الى سريرها بقوة كقوة الرجال . وبعد ان مددتها في فراشها بحنو انحنت فوقها واندفعت تقبلها باكيةفوق خديها وشعرها وعينيها باندفاع وحرارة متمتمة :ـ ياسيدتي المسكينة ، يآآنسةجان ياسيدتي المسكينة . انك لم تعرفيني اذاً ؟

وهتفت جان : روزالي ! يابنيتي !

والقت بذراعيها حول عنقها وجذبتها اليها واندفعت تطبع على وجهها قبلها . وامتزجت دموعها . وهدأت روزالي اولا : ـ

ـ هيا كوني عاقلة . حذار من البرد .

وسألتها جان :ـ كيف عدت يابنيتي المسكينة ؟

فاجابت روزالي : ـ بالله ! اواستطيع تركك هكذا وحيدة كئيبة .

وقالت جان :ـ اشعلي شمعة اذاً لاراك بوضوح .

وما ان غمر النور الغرفة حتى راحت تتأمل احداهمــــا الاخرى مدة طويلة لاتنبثان . واخيراً مدت جان يدها لخادمتها القديمة وتمتمت :ـ لم اكن لاعرفك ابداً يابنيتي . كم تغيرت ! اتعرفين هذا ؟ ولكن ليس بمقدار ماتغيرت انا .

وتأملت جان هذه المرأة البيضاء الشعر المذيلة الذابلة والتي كانت قد غادرتها

جميلة غضة شابة .. واجابت :ـ صحيح .. لشد ماتغيرت ياسيدة جان . اكثر مما يجب . ولكن فكري ان اربعاً وعشرين سنة قد مرت على فراقنا .

وصمتنا واستغرقنا في التفكير مجدداً . وسألتها جان :ـ وهل كنت سعيدة على الاقل ؟

وترددت روزالي خشية ان تبعث بعض الذكريات الراقدة المؤلمة :ـ ولكن ـ اجل .. اجل .. ياسيدتي. ليس لي الحق في الشكوى . لقد كنت اسعد منك .. ولا ريب .. ولم يكن لي ماأسف عليه سوى شيء واحد .. اني لم أبق هنا .

ثم لزمت الصمت فجأة .

وعادت جان تقول بلطف : ـ ماذا تريدين يابنيتي ! لايبلغ المرء دائماً مشتهاه . انك أرملة انت الاخرى . اليس كذلك ؟

وحشرج صوتها بغصة وتابعت :

ـ الك اولاد آخرون .. غيره ؟

ـ كلا ياسيدتي !

ـ وهو ؟.. ولدك ؟ ماذا غدا ؟ أهو سعيد ؟

ـ أجل ياسيدتي . انه ولد طيب يعمل دون ملل . لقد تزوج منذ ستة أشهر خلت وقد اعطيته الحقل لأني عدت اليك .

واضطربت جان بالتأثر وقالت :ـ اذاً فلن تتركيني ابداً يابنيتي ؟

واجابت بلهجة قوية :ـ لك ان تثقي بي ياسيدتي وقد رتبت كل شيء في سبيل هذه الغاية .

وعادتا الى صمتها بعض الوقت .

شرعت جان بالرغم عنها تقارن بين وجوديهما ، ولكن دون مرارة في القلب وقد خضعت لقسوة القدر الغشوم . وقالت : ـ وزوجك ؟ كيف كان معك ؟

ـ آه انه رجل شهم ياسيدتي . ولم يكن خاملاً وقد استطاع ان يجمع شيئاً . وقد قضى بعلة الصدر .

وجلست جان في سريرها وقد اجتاحها حب الاستطلاع : ـ هيا . حدثيني بكل شيء يابنيتي . بكل حياتك ان هذا لما يجلب لي السرور .

ودنت روزالي بكرسيها منها وراحت تحدثها بتفاصيل حياتها الماضية وانتهت قائلة ان كل مالقيت من خير وهناء يرجع الى سيدتها وانها ستخدمها حتى آخر نسمة من حياتها دون أي اجر .

وعادت جان تقول : ـ انك تنوين خدمتي اذاً دون أي اجر ؟

ـ آه . بكل تأكيد ياسيدتي . مال ؟ ستعطينني مالاً ؟ ولكني املك منه اكثر مما تملكين دون ريب .

أتعلمين ان كل ماتبقى لك من المال لايتجاوز عشرة آلاف من الليرات؟ غير اني سأنظم لك كل شيء . وبدأت تتكلم بصوت قوي متحمسة ، متأثرة لاهمال هذه الثروة ، لهذا الدمار الداهم . ولمـــا طافت بوجه سيدتها ابتسامة شاحبة ثارت ثائرتها :ـ لاينبغي لك ان تضحكي من هذا ياسيدتي لأنه لايضيع ماله هكذا سوى كل اخرق معتوه .

وتناولت جان يديها واحتفظت بهما في راحتيهـــا . ثم قالت بهدوء مسيرة بالفكرة المسيطرة عليها :ـ

ـ آه . لم اكن مجدودة . كل شيء كان يسير بما لا اشتهي . لقد عاندتني الاقدار وتحالفت على اذلالي .

واستمرتا تتحدثان هكذا كأنهما صديقتان قديمتان .

وبزغت الشمس وهما ماتزالان غارقتين في ذكرياتهما المريرة .

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

الفصل الخامس

لم تمض ثمانية ايام حتى كانت روزالي قد تسلمت دفة ادارة القصر بكل مافيه وقد استسلمت اليها جان دون أدنى مقاومة . كانت ضعيفة منهوكة القوى تجر قدميها جراً كما كانت تفعل امها في ماضيات الايام . واذا ماخرجت فمتوكئة على ذراع وصيفتها التي كانت تعني بها عنايتها بطفل مريض .

وكان حديثهما يدور دائماً حول الماضي . وكثيراًما كانت الخادم العجوز تعود الى حديث الاقتصاديات بتألم وكانت تصر على ضرورة تسليمها الاوراق التي كانت جان تخفيها خجلاً بابنها ، هي الجاهلة بالامور الادارية . وعندئذ بدأت روزالي تقوم بزيارات اسبوعية الى (فيكومب) لتستوضح بعض المعميات الدى كاتب عدل تعرفه .

وذات مساء ، بعد ان ارقدت سيدتها ، قالت فجأة :ـ الآن . وقد رقدت ياسيدتي سنتحدث قليلا : وعرضت حقيقة وضعها المالي .فاذا تم دفع كل شيء فسيبقى لهم سبعة او ثمانية آلاف فرنك دخلاً ثابتاً . لاشيء اكثر .

واجابت جان :ـ وماذا تريدين يابنيتي ؟ اني اشعر شعوراً عميقاً بانني لن اهرم كثيراً وما تبقى يكفيني .

وغضبت جان : ـ لك انت ياسيدتي هذا معقول ؟

واما السيد بول ! الن تتركي له شيئاً ؟

وانتفضت جان : ـ ارجوك لاتحدثيني عنه . فكلما فكرت فيه اعترتني نوبة حزن قاتلة .

ـ اريد ، بالعكس ، ان احدثك عنه كثيراً ، انك لاتتحلين بالشجاعة ياسيدة

جان . لقد ارتكب حماقات . حسناً . انه لن يعود اليها دائماً . ومن ثم فسيتزوج وسينجب اولاداً . وسيحتاج مالا لتربيتهم . اصغي الي جيداً . ستبيعين القصر! . .

وجلست جان في سريرها بقفزة : ـ ابيع القصر ! او تتكرين بهذا ؟ آه ! مثلا ! هذا لن يحدث ابداً ! غير ان روزالي لم تضطرب :ـ اقول لك انك ستبيعينه ياسيدتي . لأن هذا ضروري وواجب .

وشرحت لها الموقف بالارقام واوضحت مشروعها والدوافع اليه . واعلنت لها انها هي التي ستأخذ بمقاليد الامور واذا طلب السيد بول شيئاً فلن يحصل على دانق واحد والا فسيحرمها من آخر فلس .

وتمتمت جان وهي تبكي بصمت : ـ ولكن . . اذا لم يكن له مايتبلغ به ؟

ـ سيعود ليأكل عندنا عندما يعضه الجوع . وسيجد دائماً سريره ومائدته . او تعتقدين انه كان يقدم على ارتكاب كل حماقاته لو لم ترسلي اليه المال اللازم عندما طلبه المرة الاولى ؟

ـ ولكنه كان مديناً وقد هدد بالتشهير .

ـ وعندما لايعود لك شيء امنعه هذا من الاستدانة ؟ لقد دفعت . هذا حسن غير انك لن تدفعي في المستقبل ابداً . أنا اقول لك ذلك . والآن عمي مساءً ياسيدتي . وانصرفت .

ولم يغمض لجان جفن تلك الليلة فقد ارقتها فكرة بيع القصر والانصراف عنه . . عن هذا البيت الوثيق الارتباط بكل حياتها .

وما ان لمحت روزالي تدخل غرفتها في صباح الغد حتى بادرتها :ـ لن استطيع ابداً ان ابتعد عن هذا البيت يابنيتي المسكينة .

وغضبت الوصيفة وقالت : ـ ولكن منطق الاشياء يستدعي ذلك ياسيدتي . وسيحضر كاتب العدل مصحوباً بالراغب الشراء . وبدون ذلك فلن يبقى لك خلال أربع سنوات قرش واحد .

وبعد ساعة تلقت رسالة من بول يطلب فيها عشرة آلاف فرنك . ماذاتفعل؟ . .

واستشارت روزالي وقد أوشكت ان تفقد صوابها فرفعت هذه ذراعيها : - ماذا قلت لك ؟ آه ! لو لم اكن هنا لغدوتما انتما الاثنين خاويي الوفاض قريباً !

وانحنت جان امام ارادة خادمتها وكتبت الى بول : « ياولدي العزيز . لم اعد استطيع شيئاً في سبيلك . واني لاجد نفسي مضطرة لبيع القصر . ولكن لاتنسى ابداً انه سيكون لدي دائماً سقفاً يظلك عندما تحب ان تلجأ الى امك العجوز التي جرعتها الغصص أشكالاً . « جان »

وحضر الكاتب العدل وتمت الصفقة وبعد شهر واحد وقعت اوراق البيع واشترت في نفس الوقت بيتاً صغيراً يطل على الطريق العامة المفضية الى (مونتفيليه).

وامضت المساء الاخير سائرة في ممشى البارونة وقلبها مفعم بالغصص . وكأنها تودع بانظارها الاشجار والمقاعد والخمائل وكل شيء يذكرها بآمالها الذاوية وآلامها المبرحة في ماضيها الخالي ..

وجاءت روزالي فقادتها من ذراعها واضطرتها الى الدخول .

وكان فلاح طويل القامة في الخامسة والعشرين ينتظر بالباب فحياها بلهجة غير متكلفة وقال . - جئت لألقي نظرة على الاشياء التي تودون نقلها فانا لن استطيع التفرغ الى هذا العمل مرة واحدة ولا بد من القيام به على دفعات .

انه ابن خادمتها . ابن جوليان زوجها . اخو بول ابنها .

وشعرت كأن قلبها يقف عن النبض ومع ذلك ودت لو تعانق هذا الشاب.

وتمعنت فيه محاولة ان تكتشف شبهاً بينه وبين جوليان . وادركت انه بمجموع ملامحه يذكر بابيه وان كانت تقاطيعها مختلفة .

ولشد ماشغلها انتقالها في الايام التالية فحمل الى حياتها الرتيبة الكئيبة نوعاً من الترويح الحزين . فكانت تطوف في غرف القصر واحدة واحدة تجمع مافيها من الاشياء الصغيرة القديمة التي تحمل الكثير من الذكريات .

وحضر الفلاح الشاب ، دنيس ليكوك بن جوليان ، ذات صباح مصحوباً بعربته ليقوم بالنقلة الاولى . ورافقته روزالي لتهتم بوضع الاثاث وترتيب المسكن

الجديد . وعادت روزالي شديدة الاغتباط بالمنزل الصغير معلنة أنه اشد بهجة من هذا البناء الهرم المقبض .

وبكت جان طوال السهرة .

وجاء اليوم الاخير وكانت جان قد قضت ليلتها في غرفة جوليان القديمة لان غرفتها كانت قد عريت من اثاثها . ونهضت من فراشها لاهثة كانها قامت بعدو شديد . وكانت المركبة بالانتظار لتقل السيدة والخادمة . واقام الاب سيمون ولوديفين حتى قدوم المالك الجديد . ثم انسحبا ليعيشا لدى بعض انسبائهما وقد استغنت عنهما جان وخصصت لهما دخلاً صغيراً يستعينان به على تصريم ماتبقى من حياتهما بعد ان بلغا ارذل العمر واصبحا خادمين لافائدة منهما . اما ماريوس فكان قد غادر القصر منذ زمن غير قصير مصطحباً زوجته معه .

وبدأ المطر يتساقط حوالي الساعة الثامنة . مطر دقيق مثلج يحمله ريح البحر الخفيف . وكان عليهم ان يغطوا العربات كي لاتبتل الامتعة ... وكانت الاوراق تتطاير من الاشجار .. انه الخريف .. وما ابتعدت بهما المركبة حتى احست جان بمثل الاغماء يدهمها . ثم انتفضت وقالت :ـ اتذكرين يابنيتي كم امطرت يوم غادرنا روان لنأتي الى القصر ..

وعاودها الاغماء فضغطت صدرها براحتيها ثم استلقت على ظهرها وفقدت الحس .

ومضت ساعة وهي لاحراك بها كأنها قد قضت . وأخيراً فتحت عينيهـــا الغارقتين بالدموع .

وعندما هدأ روعها قليلاً ادركت انها من الضعف بحيث لن تستطيع حراكاً .

ولدى مرورهما في طرف القرية بصرا بشخص يسير ذاهباً غاديا فوق الطريق . انه الاب توليباك وكأنه يرقب هذا النزوح . ومرت به العربة فغضت جان من باصرتيها كي لاتراه الا ان روزالي التي تعرف عنه كل شيء اهابت بابنها ان اضربه بسوطك وانت تمر به . غير ان الشاب ما ان حاذى الكاهن حتى عبر بعربتـــه

المندفعة باقصى سرعتها في منخفض موحل فاثارت رشاشاً كثيفاً من الطين غطى الكاهن من رأسه الى اخمصيه .

واستدارت روزالي وقد استخفها الطرب ملوحة له بقبضتها بينما كان ينظف نفسه بمنديله المريض وهتفت جان بعد خمس دقائق :— الكلب « ماساكر » لقد نسيناه .

وكان عليهم ان يتوقفوا وهبط دنيس وعدا ليجلب الكلب بينما امسكت روزالي بالاعنة .

وعاد الشاب اخيراً يحمل بين ذراعيه الحيوان الضخم المشلول فالقاه بين أقدام المرأتين .

الفصل السابع

وتوقفت العربة بعد ساعتين امام بيت من القرميد يقوم وسط حديقة بسقت فيها اشجار الاجاص كأنها المنازل الماثلة على اطراف الطريق .

واذا جال البصر حوله ابصر سهول منطقة (كو) وقد بثت فيها المزارع بين صفوف طويلة من الاشجار الباسقات المثمرة .

وشاءت جان فور وصولها ان تعتكف لتستريح الا ان زوزالي لم تسمح لها خشية ان تعود الى احلامها الحزينة .

وجاء النجارون لاصلاح ما يحتاج الى اصلاح من الاثاث .

وعند ما هبط المساء كان البيت في فوضى عظيمة فالرياش ملقاة هنا وهناك دون اي نظام ولم تلبث جان ان استسلمت للسبات ما ان اضطجعت في سريرها نتيجة لما لقيت يومها من عناء .

ولم تجد لديها وقتا ، في الايام التالية ، لتستسلم الى احزانها ، لشدة ما كانت منشغلة باعمال الترتيب .

وشعرت بشيء من السرور في تجميل بيتها الجديد وتنسيقه . وكان املها بحضور ابنها اليه لا يفارقها .

وعنت عناية خاصة بترتيب احدى الغرفتين في الطابق الاول وقد اطلقت عليها بينها وبين نفسها اسم « شقة بول » .

وقد بدا المنزل الصغير لطيفاً بعد ان امتدت اليه يد التنسيق والتزيين وقد رضيت عنه جان في الايام الاول .

وتلقت ذات صباح مبلغ ثلاثة الآف وستمائة فرنكاً لقاء الاثاث المتروك في القصر وقد ابتاعه احد التجار . وسرت سروراً عظيماً بهذا المبلغ وسرعان ما ارتدت قبعتها وشاءت ان تذهب الى غودرفيل باسرع ما يمكن كيما توصل المبلغ الى بول .

غير انها صادفت روزالي عائدة من السوق في الطريق العام . وشكت الخادم في امرها . ولما اكتشفت الحقيقة ، اذ ان جان لا تعرف كيف تخفي عنهـا امراً ، القت بسلتها جانباً واندفعت في غضبة شعواء .

واخيراً تناولت ذراع جان بيدها اليمين وحملت سلتها باليسرى وعادت بها الى البيت والغضب يجيش في صدرها . وما ان ضمها البيت حتى اجبرت الخـادم سيدتها على تسليمها كل المبلغ بعد ان حاولت اخفاء ستمائة فرنكاً الا ان حيلتها لم تنجح .

واقتنعت روزالي بعد بضعة ايام بضرورة ارسال شيء الى الشاب . وكتب يشكر بعد ايام .

ولم تعتدجان على (بانفيل) وقد خيل اليها دون انقطاع انها لا تتنفس بالسهولة التي كانت تفعل بها هناك في (بوبل) والشيء الذي كان يضايقها فقده اكثر مما عداه هو البحر ، هذا الجار الجبار الذي اقامت في جيرته خمساً وعشرين سنة البحر بروائحه المالحه ، وغضبة الجياش ، واصواته المريعة ، وانفاسه الجبارة .. البحر الذي كانت تشاهده كل صباح من نافذتها في القصر .. الذي كانت تتنفسه ليلاً ونهاراً .. الذي كانت تحسه دانياً منها .. البحر الذي كانت تحبه كما تحب شخصاً حياً لا لبس فيـه ولا ريب .

وتقدم الشتاء واحست جان بأساً لا يقهر يغزو قلبها .. ولم تكن آلامها من النوع الحاد الذي يمزق النفس انما كانت كآبة عميقة وتعاسة بعيدة القرار .

لم يكن لديها اي ترويح او تسلية . لا احد يأبه بها . والطريق العريضة تمتد امام بيتها يميناً ويساراً خالية معظم الوقت ..

كانت جان تحلم كل ليلة انها ما تزال تسكن القصر . وانها فيه كما في الماضي مع ابيها وامها وحتى احياناً مع الخالة ليزون .

وهي تقوم باشياء منسية ماضية فتتصور انها تسند امها في نزهاتها عبر ممـا شي البستان .. وما ان تستيقظ حتى تنخرط في بكاء مرير .

كانت تفكر دون انقطاع ببول وتتساءل : — ماذا يعمل ؟ كيف هو الآن او يفكر في احياناً »

كانت تتنزه في الحقول بينما تدور هذه الفكر في رأسها فتسبب لها آلاماً مبرحة الا ان ما كان يؤلمها فوق كل شيء هي تلك الغيرة التي تحسها من هـــذه المرأة التي سرقت منها وحيدها . ان هذا المقت هو الذي امسك بها فلا تذهب اليه لتأتي بـه اليها . فهي تتخيل عشيقته واقفة على الباب تسألها بجفاء : — ما ذا تبتغين يا سيدة ؟

فكانت كبرياؤها كأم تثور امام هذا التخيل ... فهي لاترتضي لكرامتها ان تداس هي المرأة التي عاشت شبابها انقى من ندى الصباح .. تحمل دائماً احتقاراً عميقاً لدناءة الرجال الذين يجتذبهم الحب القذر فيتردون في اسفل الدركات ... ان البشرية لتبدو في عينها قذرة شديدة القذارة عند ما تفكر بسلطان الحواس هذا .. بتلك الملامسات التي توقظ في النفس والجسم احط الغرائز الحيوانيـة فينصاع اليها الرجال انصياعاً مجرداً من الكرامة والاباء والترفع !

ومضى الربيع وانقضى الصيف .

ودهم الخريف الكون بامطاره المتواصلة وسمائه الدكنـاء وغيومه العريضة القاتمة .. واحست الحياة تسترخي في جسمها المنهوك .. فعزمت على محـاولة يائسة لاسترجاع وحيدها وضمه تحت جناحيها ، ومما لا ريب فيه ان وجد الشاب بخليلته قد خبت جذوته وبرد سعيره .

ووجهت اليه رسالة رجاء واسترحام .

« ولدي الحبيب . جئت ارجوك ان تعود الي . فكر اني هرمـة مريضة .

وحيدة طوال السنة مع خادمتي . وانا اسكن بيتا صغيراً مطلاً على الطريق . أن حياتي كئيبة كما تستطيع ان تتصور . فاذا جئت تغير كل شيء بنظري . ليس لي سواك في هذا العالم وانا لم ارك منذ سنوات سبع ! انك لا تستطيع ان تدرك كم كنت تعيسة وكم سيريح قلبي لو كوّي عليك . كنت لي بمثابة الحياة والامل . انك حبي الوحيد ... ولم يمنعك كل ذلك من هجراني ..

آه . عد الى يا بوليه الصغير . عد وعانقني . عد الى قرب امك العجوز التي تمد اليك ذراعيها بيأس قاتل ! » «جان»

واجابها بعد ايام قلائل : « امي العزيزة . ليس احب الى من القدوم اليك لمعانقك . الا اني لا املك شروى نقير . ارسلي الي بعض المال وسآتيك . وفضلاً عن ذلك اني اود المجيء اليك لاحدثك عن مشروع يتيح لي ان احصل كل ماترغبين به .

ان حب وتعلق المرأة التي صحبتني في ايامي السود الماضية مازال يحيطني ويضفي على حياتي معاني السعادة والجدة .

وليس بمقدوري ان تغاضى طويلاً عن اقامة علاقة رسمية بيني وبين المرأة التي اخلصت الي في اسوء الاوقات والتي تملك فضلاً عن ذلك كل الصفات الممتازة التي ستختبرينها بنفسك . انها ذات ثقافة عالية . وهي دائمة المطالعة . واخيراً ليس بمقدورك ادراك الدور الذي لعبته في حياتي . وانه لمن الظلم بل الوحشية الا اكافئها على احسانها الى . أني اطلب اليك السماح لنا بالزواج . وستغفرين لي طيشي الماضي وسنأتي لنسكن سوية في بيتك الجديد .

واني لواثق من انك ستوافقين على مشروعنا بمجرد معرفتك لهذه الفتاة . اؤكد لك انها كاملة الصفات . عالية التهذيب . وستحبينها دون ريب . اما انا فليس بمقدوري العيش بعيداً عنها ساعة واحدة .

انتظر جوابك بفراغ صبر . ونحن نقبلك يا امي العزيزة من اعماق قلبينا .

ولدك

« الفيكونت بول دي لامار »

وذعرت جان . فاقامت لاحراك بها ،والرسالة فوق ركبتها ، وقد حدست تلك الحيلة التي اتبعتها الفتاة للاحتفاظ بولدها الى ما لانهاية له . فهي لم تتركه يأتي مرة واحدة لرؤية امه منتظرة ساعة معينة . الساعة التي لا تعود تقوي فيها هي المرأة الشيخة على احتمال فراق وحيدها فتوافق في ضعفها على كل شيء .

ان تفضيل هذه المرأة عليها هي امه قد مزق قلبها بألم هائل لا يطاق ورددت :- انه لا يحبني انه لا يحبني !

ودخلت روزالي فتمتمت جان : — انه يبغي الزواج منها الآن .

وانتفضت الخادم : آه ! يا سيدتي . انك لا تسمحين بذلك طبعاً . ان السيد بول لن يلتقط هذه القاذورة

واجابت جان محطمة ولكنها ثائرة : — ابداً . ابداً يا بنيتي . وبما انه لا يريد المجي، فسأذهب بنفسي للعودة به وسنرى من منا نحن الاثنتين تكون لها الغلبة اخيراً .

وكتبت لبول رأساً انها آتية لتراه ولكن في مكان غير البيت الذي تسكنه تلك البغي .

وبانتظار جوابه اخذت تعد امتعتها .

وقالت روزالي : — ولكن ليس لديك ما ترتدين . وانا لن اسمح لك بالسفر هكذا . انه لأمر مخجل وستنظر اليك سيدات باريس نظرهن الى خادمة .

وتركتها جان تفعل ما تشاء . وذهبت المرأتان الى (كودرفيـل) فاختارتا قماشاً ذا مربعات خضراء سلمتاه الى خياطة القرية . ثم مرتا بالكاتب العـدل السيد (روسيل) الذي يقوم كل سنة برحلة الى العاصمة تستغرق اسبوعين . وطلبتا اليه التعليمات اللازمة ذلك ان جان منذ ثمانية وعشرين عاماً لم ترَ العاصمة .

واعطاهما كل ما تحتاجانه من تعليمات . وقد اشار عليها بنزول فندق ينزل به هو وباستطاعتها ان تعلن انها قادمة من قبل الكاتب بالعدل .

منذ ست سنوات وهذا القطار الذي يتحدثون عنه في كل مـــكان يسير بين

باريس والهافر : الا ان جان العارفة في آلامها لم تكن قد رأت تلك المركبات البخارية التي احدثت ثورة في طول البلاد وعرضها .

ولم يكن بول قد اجابها .

وانتظرت ثمانية ايام . ثم اسبوعين . فكانت كل يوم تسير على الطريق لملاقاة الموزع موجهة اليه سؤالها الخالد : — أليس لديك شيء لي ايها الاب (مالاندان) فكان جوابه دائماً : — لا شيء يا سيدتي الطيبة .

انها تلك المرأة ولا ريب التي تمنع بول عن الاجابة .

وعزمت جان على السفر فوراً . وشاءت اصطحاب روزالي معها . الا ان الخادم رفضت اجابتها الى طلبها كيلا تضاعف تكاليف السفر .

وذات صباح من كانون الاول صعدتا في عربة دنيس ليكوك فقاومها الى المحطة .

واستدارتا برأسيها لدى سماعها صفيراً حاداً آتياً من بعيد . ولحتا آلة سوداء آخذة بالتضخم . ووصلت بضجيج هائل ومرت امامها تجر وراءها سلسلة من البيوت الصغيرة المتحركة وفتح موظف باباً وعانقت جان روزالي باكية وصعدت الى المركبة .

وصرخت روزالي متأثرة : — الى اللقـــاء يا سيدتي . سفراً سعيداً . الى الى اللقاء القريب .

— الى اللقاء يا بنيتي .

وبصفرة ثانية عادت سلسلة العربات الى الحركة ببطء اول الامر ثم اسرع فاسرع .. واخيراً بسرعة هائلة خاطفة .

واستمرت في جلوسها وعيناها عالقتان في الريف والاشجار والحقول والقرى وقد اخافتها هذه السرعة واحست انها اندفعت في مضمار حياة جديدة ، محمولة الى عالم جديد لا يمت الى عالمها بنسب .. عالم شبابها الهادىء وحياتها الرتيبة .

وبلغ القطار باريس مع هبوط الليل .

وسارت الى الفندق تواً . وسألت ملهوفة : - اني قادمة من قبل السيد روسيل .

وسألتها صاحبة الفندق وهي امرأة ضخمة جدبة السمات جالسة الى مكتبها :- من هو السيد روسيل ؟

ودهشت جان واجابت : انه كاتب العدل في كود رفيل وهو ينزل فندقكم كل سنة .

واعلنت المرأة الضخمة : - ممكن . انا لا اعرفه . أو تريدين غرفة ؟

- اجل يا سيدتي .

وحمل خادم متاعها وصعد الدرج امامها .

وادركتها غصة . وجلست الى مائدة صغيرة وطلبت شيئاً من الحساء الساخن فلم تكن حتى تلك الساعة قد طعمت شيئاً .

واكلت بكآبة على نور شمعة مفكرة بالف شيء . تذكرت مرورها بهذه المدينة لدي عودتها من شهر العسل واول اشارة فتحت عينيها على طباع جوليان . الا انها كانت شابة واثقة به مستسلمة اليه . وهي الآن تحس المرم يتمشى في كيانها . انها مرتبكة ، وقد تكون خائفة ، ضعيفة حتى ان اقل شيء يعكر صفوها . وما فرغت من طعامها حتى جلست الي نافذتها وراحت تنظر الى الشارع الغاص بالناس كانت تحس ميلاً الى الخروج دون ان تجرؤ على ذلك . انها ستضل الطريق دون شك . واضطجعت واطفأت النور .

ولم تنم ليلتها الا غراراً . وما تنفس الفجر حتى ارتدت ثيابها .

انه يسكن شارع (سوفاج) في (السيتي) وشاءت الذهاب ماشية انصياعاً منها لتعليمات روزالى الاقتصادية كان الجو جميلاً والهواء البارد يحز الجلد . وسارت باسرع ما تطيق . وانعطفت يميناً ثم شمالاً وبلغت ساحة وكان عليها ان تستفسر من جديد . وسألت خبازاً فاعطاها معلومات مختلفة . وعـــادت تنطلق . وضلت

السبيل ، وطوفت في الشوارع طويلاً ... وذعرت فهي الآن تسير دون وجهة معينة . وعزمت على دعوة عربة عند ما لمحت السين فسارت على محازاته .
ودخلت شارع (سوفاج) بعد ساعة من تطواف حثيث . وتوقفت امام الباب شديدة التأثر عاجزة عن الاتيان بحركة واحدة .

انه هنا . في هذا البيت . بوليه !

واحست ركبتيها ويديها ترتجف . وأخيراً ولجت . وسارت في ممشى . ورأت غرفة البواب وسألت وهي تقدم قطعة نقود له : - انستطيع ان تصعد فتقول لبول لامار ان سيدة عجوزاً ، صديقة لامه ، تنتظره في الاسفل .

واجاب البواب : - انه لا يسكن هنا يا سيدتي .

وغشت فيها رجفة عنيفة . وتمتمت : - آه ! اين ... يسكن الآن ؟

لست ادري .

واحست بنفسها زائغة العينين توشك على السقوط وظلت وقتاً ما عاجزة عن الكلام . واخيراً ، وبجهد عنيف ،استعادت ادراكها وغمغمت : - منذ متى ذهب؟

واستفاض الرجل في شرحه : - منذ اسبوعين . لقد ذهبا بغتة ذات مساء ولم يعودا . انهما مدينان في كل مكان بهذا الحي . وتدركين من هذا انهما لم يتركا عنـــونهما .

ورأت جان كأن شرارات من نار تلتمع امام عينيها كما لو كانت طلقات من نار قد دوت في اتجاهها الا ان فكرة ثابتة لمسكتها . فهي تريـد ان تعرف كيف تجـــد بول .

- اذاً انهما لم يقولا شيئاً عند ما ذهبا !

- آه . لا شيء مطلقاً لقد فرا فراراً كيلا يدفعا ما عليهما من ديون

- ولكن الا يرسلان احداً ليأخذ رسائلهما ؟

- كنت اغلب الاحيان اسلمها لهما . ومن ثم فهما لا يستلمان اكثر من عشر رسائل في السنة - وقد اعطيتهما واحدة قبل ذهابهما بيومين .

انها رسالتها ولا شك . وقالت بغتة : ـ اصغ الي . انا امه . وقد جئت لابحث عنه . هذه عشر فرنكات لك . فاذا كان لديك خبر او معلومات عنها احملها اليّ الى فندق نورمندي بشارع الدافر وسأكافئك بمبلغ رجيح .

واجاب : ـ اعتمدي علي يا سيدتي .

وانطلقت . وسارت دون ان تعنى بالوجهة التي اليها تسير وكانت تسرع كانها في سباق هام . كانت تسير على محاذاة الجدران فتصدم السابلة وتعبر بالشوارع دون ان تأبه بالعربات فيشتمها الحوذيون وكانت تتعثر بدرجات الارصفة دون ان تنتبه اليها .

انها تعدو الى الامام مضعضعة الحواس .

ووجدت نفسها بغتة في احدى الحدائق . وكان التعب قد هدّ ركنها فاقتعدت مقعداً وجدته امامها . واستمرت في جلوسها وقتاً لا تدري اطال بها ام قصر . كانت تبكي بدون دموع . وشعرت اخيراً ان برداً ينفذ الى عظامها فنهضت لتمضي لطيتها . وكانت ساقاها لا تكاد ان تحملاها لشدة ما كانت مسحوقة محطمة النفس والجسد .

واحست جوعاً نفاراً فشاءت دخول احد المطاعم لتصيب شيئاً من حساء . غير انها لم تدخل . واخيراً وقد عانقها الجوع بانيابه الحداد لم تجد مناصاً عن دخول احد المخابز وشراء رغيف هلالي الشكل راحت تقضمه وهي تسير . واحست عطشاً محرقاً . ولم تدر من اين تستقي فصرفت النظر عن ذلك .

وبلغت حديقة ثانية . وكان السير والشمس قد بعثا في جسمها دفئاً . فجلست ساعة او ساعتين

ورأت جمعاً من المتأنقين بين رجال ونساء يدخل الحديقة . وخيل اليها ان ولدها لا بد داخل بين هؤلاء الناس . وعبثاً تفرست في الوجوه . ونهضت اخيراً لتمضي فكانت لا تجرؤ على طلب افساح الطريق لها فتصطدم بالسابلة . وانتهى بها الامر فعثرت على فندقها .

وامضت ما تبقى من يومها فوق كرسي تحت اقدام سريرها . وتمشت كشأنها بالامس ونامت اخيراً . وكانت تقوم بهذه الاعمال آلياً وبقوة العادة والاستمرار .

وفي صباح اليوم التالي قصدت مديرية الشرطة فطلبت اليهم ان يبحثوا لها عن ولدها . وعبثاً فعلوا .

واستمرت بعد ذلك تطوف في الشوارع يحدوها دائماً الامل بالالتقاء بـــه على غير ميعاد .

وعند ما عادت في المساء الى الفندق قيل لها ان رجلاً سأل عنها وهـو آت من قبل السيد بول . وانه سيعود غداة اليوم التالي . وشعرت بموجة من الهنـاء تغزو قلبها ولم يغمض لها جفن طوال الليل . اتراه هو ؟ اجل انه هـــو ولا ريب بالرغم من انها لم تعرفه من الاوصاف التي اعطيت لها .

وحوالي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي قرع بابها . وهتفت : ـ ادخل.

وتقدم منها رجل غريب وبعد ان اعتذر لازعاجها اخبرها ان له في ذمـــة ولدها بول ديناً وقد جاء ليتقاضاه . وشعرت بحاجتها الى البكاء بدمع غذير ، وكان بواب شارع (سوفاج) قد اعلمه بقدوم امه فتوجه اليها . وناولها ورقة ودون ان تنظر اليها قرأت الرقم (٩٠) فرنكاً . وتناولت حافظة نقودها وناولت المبلغ للرجل . ولم تخرج يومها ذاك .

وجاءها في اليوم التالي دائنون آخرون . ودفعت كل ما كان معها من نقود وابقت لنفسها عشرين فرنكا فقط . وكتبت الى روزالي تشرح لها ما آلت اليـــه امورهـــا .

وامضت اياماً اخرى في التطواف دون وجهة معينة او هدف مرسوم . وبما ارهقها ان ليس لديها من تشكو اليه همها المقيم . وادركتهـا رغبـة في الانصراف وفي العودة الى هناك . . الى بيتها حيث تمكنت جذور عاداتها الكئيبة من الارض .

وذات مساء وجدت رسالة انطوت على مئتين من الفرنكات جاء فيها

« سيدتي جان . عودي سريعاً لأني لن ارسل لك بعد الآن قرشاً . اماالسيد بول فانا التي ستذهب للعودة به عند ما نتلقى خبراً عنه .. احبيك .

« خادمتك : روزالي . »

ورجعت جان الى بانفيل ذات صباح قارس البرد والثلج يتساقط ....

◆◆◆◆◆◆◆◆ ◆◆◆◆

الفَصْلُ الثّامِنُ

أقامت جان في بيتها لانبرحه وقلما تتحرك او تخرج . كانت تستفيق كل صباح في ساعة معينة فتتطلع الى الجو عبر زجاج نافذتها ثم تنزل الى الردهة فتجلس بالقرب من الموقد .

وكثيراً ما كانت تمضي اياماً بطولها، عيناها عالقتان باللهب المتراقص واعضاؤها في سكون واسترخاء تاركة لافكارها المقبضه العنان على غاربه ، متابعة تسلسل ذكرياتها الحزينة المؤلمة .. ثم يهبط الظلام فيجلبب القاعة رويداً رويداً دون ان تختلج في جان جارحة أو تبدر منها حركة ماخلا القاؤها بعض الحطب الى النار اذا ما أوشكت تخبو . وتدخل روزالي فتجدها على مثل هذه الحال فيهب بها : — هيا ياسيدة جان ينبغي لك ان تتحركي قليلاً كيما تشعري جوعاً هذا المساء !..

كانت أفكار ثابتة ملحة تلاحقها اغلب الاحيان ، افكار تغرق قواها العاقلة ممعنة في تعذيبها مر العذاب ، وغدت اتفه الاشياء تبعث فيها انقباضاً وتورثها غصة .

انها تحيي معظم وقتها في الماضي ، الماضي الممعن في القدم . فتلازمها ذكرى حياتها الاولى ورحلة عرسها الى هنالك .. الى كورسيكا ملازمة الظل . فكانت مناظر تلك الجزيرة ، وقد امحت من ذاكرتها منذ أمد بعيد ، تعاودها تباعاً فتراها مرتسمة في صدر الموقد ، في اطار وهاج من السنة اللهب المتطاولة ..

ثم تصل في تتبع شريط حياتها الى سنوات طفولة بول الحلوة عندما كان يزرع لها البقول في الحديقة جاثياً فوق الارض الكثيفة وبالقرب منه الخالة المسكينة ليزون ترعاه بعينها وقلبها !

وندت عن صدرها المقروح تنهدة كاوية : ـ بوليه ! ياصغيري بوليه ! قالتها كما لو كان يصغي الى تدليلها هذا . . وبتجسد اسم طفلها الحبيب فتخال احرف ذلك الاسم منقوشة في فراغ الغرفة فتعلق انظارها باحب اسم الى قلبها في الوجود .

لقد سيطر عليها كل هوس الانطوائيين في وحدة صارمة . فكانت اتفه الاشياء توفز اعصابها وتحرك عواطفها .

اما روزالي فكثيراً ما كانت تقسرها على السير فتقودها الى الطريق فماتلبث بعد عشر دقائق ان تتذمر وتعجز عن متابعة المشي فتجلس على حافة الطريق .

وكثيراً ما ابدت نفوراً من كل حركة فتمكث يومها في سريرها .

ولم يبق لها من عادات شبابها سوى واحدة تلازمها فلا تطيق لها تبديلا الا وهي نهوضها فجأة من سريرها بعد تناول القهوة في الصباح .

الا انها في المدة الاخيرة بدأت ، شيئاً فشيئاً ، تعتاد المكوث حالمة لحظات بعد ارتشاف كأس القهوة واعادته الى مكانه من منضدة الليل ثم تعود فتتمدد في فراشها . . وازدادت فترة هذا الاسترخاء يوماً اثر يوم . . فكانت روزالي تلج غرفتها غضبى فتلبسها ثيابها بالقوة تقريباً .

كانت كل افعالها خالية من المظاهر الارادية . فاذا استمزجت وصيفتها رأيها حول قضية ما كان جوابها الخالد :

ـ افعلي مايحلو لك يابنيتي .

كانت تؤمن ايماناً وطيداً انها ملاحقة بقضاء وقدر لايرحمان حتى انها غدت « قدرية » كالشرقيين . وقد اعتادت ان ترى احلامها دائماً تسير الى الانهيار وآمالها تمشي الى الاضمحلال بشكل لم تعد تجرؤ معه على التعلل بامنية او الاستسلام الى حلم بل غدت تتورع عن القيام باتفه الاعمال ثقة منها ان الامور لن تعتم ان تنقلب الى عكس ماتشتهي وتتمنى .

كانت تردد في كل مناسبة : « انا التي لم اعرف محالفة الحظ السعيد طوال حياتها » فتصرخ روزالي : ـ ماذا كنت تقولين اذاً لو اضطررت الى كسب لقمتك

بنفسك ، لو كنت مرغمة على النهوض الساعة السادسة أتنطلقي الى العمل سحابة يومك ؟ ثمة كثيرات مجبرات على مثل هذا . فاذا مابلغن من العمر عتياً متن من الفاقة والعوز والبأساء !

فتجيب جان : - فكري فيما انا فيه من وحدة .. ولدي وحيـدي .. بوليه .. هجرني ..

فتندفع روزالي في غضبة كاسحة : - يالها من قضية ! حسناً ! ثمة اولاد في خدمة العلم ! ومنهم من هجر الى العالم الجديد ! لابد من وقت يأتي فيفرق بين المرء واحبائه . ان الشبان والشيوخ لم يخلقوا ليعيشوا متلازمين ابد الدهر !

ثم تخلص الى القول بلهجة صارمة :- حسناً ماراًيك لو انه .. مات ؟!

وتلزم جان الصمت لاتنبث .

وعاودها شيء من نشاط عندما بدأ الهواء يلطف عند دنو الربيع الا ان مغريات الطبيعة وتبرجها الفتان لم تكن الا لتزيدها في أفكارها القاتمة استغراقاً وعلى ذكرياتها الماضيات غوصاً وتنقيباً ...

صعدت جان يوماً الى بيت المؤونة لاحضار حاجة عارضة فعثرت في احد الصناديق المهملة على عدد من التقاويم القديمة فجمدت في مكانها كأنها عادت بالسنين القهقرى ... كأنها استعادت في لحظة كل ايام شبابها الحوالي .. فأقامت فترة طويلة جامدة امام هذه القطع المربعة من الورق المقوى الحاملة اسماء السنين الحوالي والتي اعتاد أهل الريف الاحتفاظ بها أمداً طويلاً .

وحملت التقاويم الى غرفتها وشرعت ترتبها حسب السنين ووجدت ، بغتة ، اول واحد منها . ذاك الذي حملته معها الى بوبل .. تأملته طويلاً ... كانت اشارات القلم ماتزال واضحة فوق الايام التي تلت خروجها من مدرسة الدير واقامتها في القصر . وبكت . بكت بدموع غذار سخينة وئيدة . دموع عجوز امام حياتها الصاخبة المكومة امامها فوق منضدة !

ونبتت في رأسها فكرة واضحة ثابتة مسيطرة قوية : ستراجع تلك الايام يوماً فيوماً فتتذكر كل مافعلته في كل واحد منها .

ونهضت الى الجدار فعلقت فوق الطنافس هذه الاوراق المصفرة فكانت تمضي الساعات الطوال امام الواحدة والاخرى متسائلة :

– ماذا حدث لي هذا اليوم او ذاك ؟

وأشارت الى الايام التذكارية الفاصلة من حياتها بخطوط . وتوصلت ، بقوة ارادتها واجهاد مخيلتها الى استعادة حوادث ايام السنتين الاوليتين من حياتها في بوبل يوماً فيوماً فكانت الذكريات تنقاد اليها بسهولة منقطعة النظير ووضوح بارز المعالم .

اما السنوات التالية فقد اختلط عليها امرها فبدت في عينيها متداخلة مغلفة بضباب الماضي الكثيف وكثيراً ماتلبث محنية الرأس وقتاً طويلاً فوق احد التقاويم وقد علقت كل قواها العقلية في المـــاضي فلا تتوصل الى تحديد ما اذا كانت تلك الحادثة او هذه وقعت في تلك الفترة اوهذه .

واحست نشاطاً عظيماً عندما تحرك النسغ في عروق الشجر تحت وهج الشمس وبدأت المزروعات تنبت في الحقول والاغصان تكتسي حلتها الخضراء الرطيبة واشجار التفاح في الحديقة تتجلبب بثوبهـــا الوردي الفواح الاريج يعطر الهواء وينعش الجو .

انها عين الانتفاضة التي اعترتها يوم كانت شابة ترقب المستقبل مطمئنة الى تحقيق آمالها الزاهرة بازدهار أرض الحقول.

كانت لاتستقر في مكان ولا تسكن على حال فلا ترى الا غادية ذاهبة تطوف في الحقول فتتوغل بعيداً . . بعيداً منتشية بنفح الربيع المفناج .

لقد حمل الربيع الى قلبها السرور الا انها كانت لاتفتأ تتألم مرير الالم من ذكرياتها فكأن هذا الزهو الخالد في الطبيعة المستيقظة وهو يلامس بشرتها الجافة

ويداخل دماءها المتبودة لايحمل اليها الا ألماً وسوداوية نفارة .

وخيل اليها ان اشياء عديدة قد تغيرت من حولها . فالشمس أقل حرارة مما كانت عليه في صباها ، والسماء اكثر شحوبا والاعشاب حـــائلة الخضرة والازاهير أميل الى الاصفرار واضعف نشراً . كل شيء لايبعث النشوة في الانفس كما كان يفعل . الا انها لم تعدم ، من حين لآخر ، شعوراً بشيء من الراحة والسعادة فالمرء لايستطيع ، عندما يكون الجو صافياً ، الا ان يحلم ويتأمل ويشرد ..

لماذا لم تكن محبوبة كسواها من النساء ؟ لمـــاذا لم تنعم على الاقل بعيش هادىء راض ؟

وربما غاب عن فكرها احياناً انها عجوز هرمة ليس لها ان تحلم بشيء او تتمنى امراً .. فـكانت ترسم الخطط المحببة وتهيم مع امان مذهبة الحواشي عباقة الاريج شأنها يوم كانت في السادسة عشرة بيد ان الحقيقة المرة ما كانت تمهلها طويلا فتساورها وتنبخ بكلـكلها عليها بضراوة وقسوة ... فتنهض محنية الظهر كأن ثقلاً رهيباً يبهظ كاهلها وهد أركانها وتعود الى السير الوئيد في الطريق المفضية الى مسكنها متمتمة:

ـ يالي من عجوز حمقاء ! يالي من عجوز بلهاء !

أما روزالي فـكانت تردد لها دائماً : ـ احتفظي بهدوئك ياسيدتي لست افهم ما الذي يدفعك الى كل هذه الحركة !

وعادتا الى مسكنها ، مساء ذات يوم ، بعد نزهة في الحقول فلمحتا تحت الباب شيئاً ابيض . انها رسالة القى بها الموزع اثناء غيابها . وادركتا فوراً انها من بول. وفضت جان الرسالة والتأثر يرجف كل اطرافها . كان يقول فيها : « امي العزيزة. لم اكتب اليك قبل الان كيلا ادفعك الى القيام برحلة لاجدوى منها الى باريس وكنت اتوق ابداً الى السير اليك لرؤيتك . اني في هذه الساعة رازح تحت ثقل شقاء باهظ . ان زوجتي في نزعها الاخير بعد ان وضعت الى النور طفلة منذ ثلاثة ايام . انا لاأملك فلساً . لست ادري ما أنا فاعله بهذه الطفلة التي تعهدتهـا البوابة تغذيها بالمصاصه وكم اخشى ان افقدها هي الاخرى . الا تستطيعين تعهدها ؟ لست

ادري ما افعل وليس لدي المال لأتخذ لها مرضعاً . انتظر جوابك بعودة البريد..
وولدك المحب – بول .

وانحطت جان فوق مقعد تكاد تفقد الوعي . وغرقت وروزالي في صمت عميق مطبق .

وتكلمت روزالي اخيراً : – سأذهب بنفسي فأعود بالطفلة ياسيدتي . لن نتخلى عنها .

واجابت جان كأنها تخاطب نفسها : – لك ذلك يابنيتي .

وصمتت .. وعادت الخادمة بعد فترة تقول : – ضعي قبعتك ياسيدتي . سنذهب الى كودرفيل لاستشارة الكاتب العدل اعتقد انه ينبغي عقد قران بول والأم قبل ان تقضي... من اجل الصغيرة على الاقل..

وصدعت جان بالامر لاتنبث ، لقد غمر فؤادها سرور عميق طاغ ... سرور عنيف شاءت كتمان امره باي ثمن ... ان عشيقة ابنها ، المرأة التي سرقت وحيدها تلفظ النفس الاخير !..

واعطى الكاتب العدل المعلومات اللازمة فاستعادتها روزالي مراراً كي لا تنسى منها حرفاً . قالت : – لاتخشي ياسيدي شيئاً فسأهتم بذلك جهد طاقتي .

وسافرت ذلك الليل الى باريس .

امضت جان يومين في اصطخاب من الافكار تركها اعجز من ان تحصر في شيء افكارها . وفي الصباح الثالث تلقت من روزالي كلمة مقتضبة تعلن عن عودتها في قطار المساء . ولا شيء سوى ذلك .

واستحضرت عربة احد الجيران وسارت ، حول الثالثة ، الى المحطة في «بورفيل» للقاء وصيفتها .

واقامت واقفة فوق الرصيف وعيناها عالقتان بالخط الحديدي الغائب في الافق البعيد . وكانت ، من وقت لآخر ، ترنو الى الساعة : عشر دقائق . خمس . ها قد ازف الوقت . لم يظهر شيء في الافق ! ولمحت بغتة بقعة بيضاء . دخان ! ثم

نقطة سوداء آخذة بالتضخم ، منطاقة باقصى سرعتها . القطار ! وخففت الآلةالضخمة اللاهثة من سرعتها أخيراً ثم توقفت والابخرة تفح من كل جزء منها وفتحت منها أبواب . كانت عينا جان معلقتين بالنوافذ مستطلعة بتشوق ونهم . وهبط الركاب فكانت تتفرس في وجوههم بنفاد صبر ..

ولمحت روزالي اخيراً .. كانت تحمل فوق ذراعيها لفائف من قماش ... وهمت بالاسراع الى لقائها الا انها خشيت ان تتخاذل بها ساقاها فتسقط . ورأتها روزالي بدورها فمشت اليها بطلعتها الهادئة المعتادة :

ـ مساء الخير ياسيدتي .. هاقد عدت .. ولكن بعد عناء ونصب ...

سألت جان مضعضعة الحواس : ـ حسناً ؟

وجاءها جواب روزالي كأنه من عالم سحيق : ـ حسناً .. لقد تزوجا ... ثم ماتت هذه الليلة .. وهاهي الصغيرة .

وقدمت اليها الطفلة الغارقة في اللفائف .

وتلقتها جان بحركة آلية وخرجتا من المحطة ثم صعدتا الى المركبة ...

وعادت روزالي تقول : ـ سيصل السيد بول فور فراغه من الدفن . سيكون هنا غداً في مثل هذه الساعة ، دون ريب .

وتمتمت جان : ـ بول ...

ولم تزد .

وهبطت الشمس نحو الافق الانور تذرذر على السهل المخضوضر فيضاً من نورها القاني . وبدت فوق قوس الافق غمائم بيض مموهة بلون النجيع كانها نتف من ريش بجعة مزقتها النسور .. وطافت بالارض سكينة هادئة وسلام عظيم ...

كانت العربة مندفعة باقصى ماتطيق والفلاح السائق يلهب ظهر الجوادين بسوطه الطويل ...

وجمدت انظار جان على لاشيء في الفضاء .. واحست حرارة تتسرب الى

جسدها فتحرك مابرد من دمائها وما ركد ... انهـــا حرارة الـكائن الصغير الذي تحتضن !

ورنت الى اللفائف فرأت وجه الصغيرة ولم تكن قد رأته قبلاً وفتحت الطفلة عينيها الصغيرتين الزرقاوين لدى سقوط النور فوق محياها الغض .. وحركت فمها الطري ...

وضمتها جان وراحت تقبلها بنهم جنوني ... فـكانت ترفعها وتحطها وهي تكسوها قبلاً حانية حرى ...

واوقفتها روزالي :ـ على رسلك ياسيدة جان فقد تبكينها .

ثم اخافت وكأنهاترد على سؤال طرحته هي على نفسها :

ـ الحياة ، كما ترين ، ليست مرارة كلها ، ولا حلاوة كلها ، كما يخيل للمرء ..

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

تقدم

الكاتب البولوني

كونستانتان فيرجيل جيورجيو

الساعة الخامسة والعشرون

قصة الفرد إذا جرد من قيمه وغدا رقماً في إحصاء جماعي ، والجماعة التي
عصرت في بوتقتها الافراد وتحولت الى كتلة ذات حضارة آلية

قصة إباحة الرق في عصر تحريم الرقيق ، واستعباد الشعبين الغالب والمغلوب
في برولیتارية إنسانية يسوسها مجتمع آلي ...

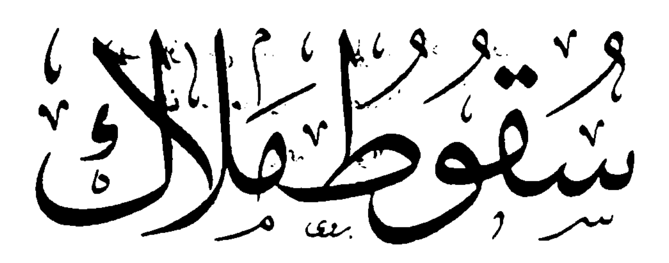
قصة الحضارة التي ابتدعها الغرب وتبناها الشرق
فاصبحت وبالاً عليهما معاً

دار اليقظة العربية
للتأليف والترجمة والنشر

تقدم شاعر الحب والجمال وسيد المدرسة الوجدانية

لامرتين

في قصته المبدعة



يقع الكتاب في زهاء ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير
وعلى ورق أبيض صقيل

من

سلسلة عيون الأدب العالمي

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

تقدم

الكولونيل لورنس

في كتابه

اعمدة الحكمة السبعة

يتناول البحث ثورة العرب ضد الاتراك وتمكن
الانكليز من السيطرة على البلاد العربية بعد
أن استحصلوا على أصدقاء لهم أقوياء
وأعداء أقوياء

**يقع الكتاب في زهاء الف وخمسمائة صفحة من القطع
الكبير وعلى ورق أبيض صقيل**

في

سلسلة عيون التاريخ العالمي

٤

دار اليقظة العربية
للتأليف والترجمة والنشر

تقدم

الجنرال ايزنهاور

في كتابه

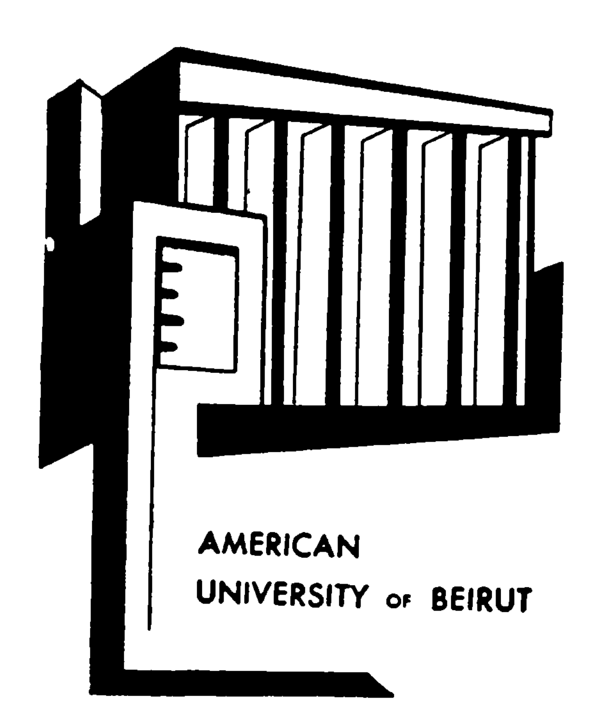
حرب صليبية في أوربا

من أسرار الحرب العالمية الثانية

في

سلسلة عيون التاريخ العالمي

٧


AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

